تأليف ايمري نِف

المؤرخون وروح الشعر

ترجمة
الدكتور توفيق اسكندر

مراجعة وتقديم
محمد شفيق غربال



المؤرخون وروح الشعر

نشر هذا الكتاب بالاشتراك
مـــع
مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر
القاهرة ــ نيويورك
مايو ١٩٦١

المؤرخون وروح الشعر

دراسة لإسهام الأدب والعلوم الأدبية
في تدوين التاريخ منذ عهد فولتير

تأليف

إيمري نف

ترجمة

الدكتور توفيق إسكندر

مراجعة وتقديم

محمد شفيق غربال

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقا)

المشتركون فى هذا الكتاب

المؤلف :

ايمرى نف : أستاذ متقاعد من جامعة كولومبيا ، حيث ظل يدرس اللغة الانجليزية مدة أربعين عاما .

وقبل أن يحصل على درجة الدكتوراه من جامعة كولومبيا سنة ١٩١٤ كان يتلقى علومه فى جامعة ويزليان ، بولاية أوهايو مسقط رأسه ، وفى مدرسة الاقتصاد بلندن ، وجامعة باريس . وقد الف الدكتور نف كثيرا من الكتب عن الآداب الأوروبيـة والأمريكية ، كان خيرها جميعا سلسلة من الكتب تبين الاتصال بين الأدب والتـاريخ والعلم والفلسفة . بدأها فى سنة ١٩٢٤ بكتاب « كارليل ومل » ويعتبر كتـاب « المؤرخون وروح الشعر » الرابع بين كتب هذه السلسلة .

المترجم :

الدكتور توفيق اسكندر : أستاذ الوثائق بكليـة الآداب ـ جامعـة القاهرة . تخرج فى كلية الآداب قسم التاريخ بالجامعة المصرية (جامعـة القاهرة) سنة ١٩٣٠ ، وفى معهد التربية سنة ١٩٣٢ ، واشتغل بتدريس التربية والتاريخ حتى سنة ١٩٤٥ ، ثم أوفد سنة ١٩٤٦ فى بعثة لمعهد الوثائق بباريس ، وحصل على اجازته سنة ١٩٥٣ ، ويشتغل الآن بتدريس علوم الوثائق بجامعة القاهرة ، ومديرا لدار الوثائق التاريخية القومية .

المراجع وصاحب المقدمة :

الأستاذ محمد شفيق غربال : من أشهر علماء التاريخ الحديث بين ابناء العروبة . تلقى دراسته بمدرسة المعلمين العليا بالقاهرة ثم سافر الى انجلترا فتخصص فى التاريخ الحديث ، وعين بجامعة القاهرة أستاذا لهذه المادة فى كلية الآداب . ثم صار عميدا لهذه الكلية ونقل الى مناصب وزارة التربية والتعليم فكان مستشارا فنيـا ثم وكيلا للوزارة الى أن اعتزل الخدمة . وهو الآن أستاذ بمعهد الدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية ويقوم بادارته أيضا ، وهو عضو فى عدة هيئات علمية محلية ودولية ، وله مؤلفات وبحوث نشرت باللغة العربيـة وباللغـة الانجليزية فى مختلف بحوث التاريخ .

مصمم الغلاف :

الأستاذ أحمد محمد منيب : حصل على ليسانس الحقوق من جامعة القاهرة سنة ١٩٦٠ . يعمل بمؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر . صمم للمؤسسة أغلفة لعدة كتب منها : دليل اصلاح السيارات ، وصناعة تنجيد الأثاث ، وموارد الطاقة البشرية .

محتويات الكتاب

مقدمة

بقلم الأستاذ محمد شفيق غربال

أهدى « ايمرى نف » كتابه الى من يعتقدون أن المعرفة كل لا يتجزأ ، واختار أن يسمى الجزء الأول من الكتاب الآفاق المفتوحة . ولا بدع فقد ألزم نفسه بأن يحطم الحواجز القائمة بين الأدب والتاريخ ، والعلم والدراسات الاجتماعية والفلسفة ، وما أحوجنا فى سنة ١٩٦١ لرسالة هذا الكتاب !

فبينما الواقع يحطم الحواجز بين الشعوب ، ويفرض عليها أن تتعلم كيف تستطيع أن تعيش معا ، اذا بها تقيم فيما بينها ما يعطل جريان جداول العلم والأدب والثقافة ، واذا بها لا تكتفى بذلك ، بل تنشىء بين الأدب والعلم سدودا تؤدى الى عقم العلم ، والى عقم الأدب .

أعجبنا فى كتاب « ايمرى نف » بآفاقه المفتوحة ، بالمعنى الذى أعطاه للتاريخ ، وبالمعنى الذى أعطاه للشعر ، وبالنظرة التى تحيط بهما من أيام ڤولتير الى أيام اشبنجلر وتوينبى ، هذا من حيث الزمن ، وبهما فى فرنسا وانجلترا وألمانيا وايطاليا من حيث المكان . أعجبنا بهذا كله ، وان كنا تمنينا لو امتدت النظرة الى شعوب أخرى فى أمكنة أخرى . على أننا ندرك أن امتدادها الى تلك الشعوب يحمل المجازفة ببنية الكتاب ، ويخل بوحدة الأسلوب . فلنثبت اذن الأمنية ونضعها تحت نظر القادرين على تحقيقها .

وانا لنعنى بالقادرين الشباب الناضج من أمثال مترجم الكتاب

« توفيق اسكندر » . فهم الذين أدركوا عهد الاتصال بالآداب الأجنبية ، وهم الذين نشأوا قبل أن نربى الناشــئة على كره الآداب ، وعلى ذلك الضرب من الحياة العقلية الذى لا يتصور الا الجزئيات ، ومن تجارب البحث العلمى غير التى لا ترمى الا الى ايجاد التقاليع .

وما معنى التاريخ ، وما معنى الشعر عند « ايمرى نف » .

لم يندمجا عنده ، أحدهما فى الآخر ، ذلك الاندماج الذى وصفه « ابن رشيق » فى العمدة فى قوله : وكان الشعر ديوان العرب ومستودع حكمتهم والضابط لأيامهم وقيد كلامهم والحاكم لهم والشاهد عليهم . ولم يفترقا عنده ذلك الافتراق الذى أكده ارسطاطاليس فى قوله : ان المؤرخ يثبت ما حدث ، والشاعر يثبت ما كان يمكن أن يحدث ، وان المؤرخ يرمى الى التعــليم ، والشاعر الى بعث السرور ، وان المؤرخ يتحدث عن عصر ، والشاعر عن وقائع ، وللشاعر طريقته فى تحديد البدء والنهاية ، وللمؤرخ طريقته . وهكذا . فلا يهم عند أرسطاطاليس أن يكون أحدهما منظوما ، والآخر غير منظوم ، قال ولو نظمت كتاب هيرودوتس لما تحول من تاريخ الى شعر .

اننا لا نستطيع أن نتبع المعلم الأول فى موازناته الدقيقة ، ومن أراد أن يفعــل ذلك ، فخير دليل يستصحب الكتاب القيم الذى وضــعه « جوم » Gomme فى موقف اليونان من التاريخ والشعر .

على أنهم — اليــونان — عرفوا أيضا التقــريب وعرفوا الوصف « شعرى » يطلق على أسلوب كتابة ، على طريقة وصف ، على استلهام أو الهام . وهذا كله عــلى نحو لا يبعد كثيرا من المعانى التى قصدها « ايمرى نف » حينما تكلم عن روح الشعر فى التاريخ . فلنصف بعض تلك المعانى .

وانك لتستطيع أن تتبين اتجاه المؤلف فى كلامه عن ڤولتير فى ختام فصل بارع : « لقد وسع ڤولتير حدود التاريخ الزمانية والمكانية ، وأجبر المؤرخين على اعتبار شعوب الأرض كافة ، وكذلك اعتبار كل نواحى ثقافاتها ، وبدأ تاريخ الأفكار ، وأدخل الفنون والآداب فى التاريخ العام ، واتجه بعض الشيء صوب التاريخ الاقتصادى والاجتماعى ، وأوجد نوعا جديدا من الوحدة فى صورة الماضى بقضائه على التمييز بين التاريخ الدينى وغير الدينى ، واقراره الأسباب الانسانية والطبيعية للحوادث .

ومضى « امرى نف » بعد أن فتح ڤولتير الآفاق يعرض فى فصول رائعة البيئات التى نبتت فيها العبقريات ، ما مصادر الالهام التى ألهمت ، ما جوانب الحياة البشرية فى ماضيها التى اجتذبتها ؟ أهى أصول الحضارة ، أهى مبادىء الحياة الروحية ، أهى رسالة النبى أو شهادة الشهيد ، أهى النظام السياسى ، أهى العرف والعادات ؟ وما هى الأساليب والمناهج التى اتبعوها : الملاحم والأساطير ، واشتقاق الألفاظ وتراكيب الجمل ؟ أهى النظم والدساتير والقوانين ؟ أهى الوثائق ؟ . كل هذا يجد مكانا فى هذا الكتاب الصغير الكبير .

تجد فيه المؤرخين الرومانسيين من أمثال كارليل وشاتوبريان ، وتجد فيه المؤرخين من أمثال ميشيليه ، يحيون حقبا ، وتجد فيه التاريخ من حيث هو فن (كما هو عند رينان) أو من حيث هو علم (كما عند رانكه) فجاءت بذلك ترجمة الكتاب للغة العربية أول عرض بلغتنا لمجموعة من العبقريات اللامعة ، على أنها فى لمعانها تتصل بمراكز اشعاع محققة الوجود . أو كما قال چورچ ماكولى تريفليان فى العبارة التى اقتبسها المؤلف فى أول الكتاب : « لا تتألف روح الشعر فى تدوين التاريخ من

خيال يطوف فى الفضاء ، ولكنها تتألف من خيال يقتفى أثر الحقيقة ويلتصق بها . وبالنظر الى أن الحقيقة قد وقعت فعلا ، فانها تجمع حولها سر الحياة والموت والزمن الذى لا يسبر غوره ، فعلم المؤرخ وبحثه يجدان الحقيقة ، وخياله وفنه يوضحان مدلولها » .

محمد شفيق غربال

يونيـــة ١٩٦١

إلى من يعتقدون أن المعرفة . . كل لا يتجزأ

لا تتألف روح الشعر فى تدوين التاريخ من خيال يطوف فى الفضاء ولكنها تتألف من خيال يقتفى أثر الحقيقة ويلتصق بها ، وبالنظر الى أن الحقيقة قد وقعت فعلا فانها تجمع حولها سر الحياة والموت والزمن الذى لا يسبر غوره . فعلم المؤرخ وبحثه يجدان الحقيقة ، وخياله وفنه يوضحان مدلولهـــا .

« جورج ماكولى تريفليان »

تمهيد

« المؤرخون وروح الشعر » هو المؤلف الرابع فى سلسلة من الكتب ترمى الى تحطيم الحواجز القائمة بين الأدب والتاريخ والعلم والدراسات الاجتماعية والفلسفة ، والى عرض مدى اعتماد الأفكار والحوادث والفن كل منها على الآخر ، وفى الكتاب الأول وهو (كارليل ومل) (١٩٢٤ — ١٩٢٦) استخدمت العلاقات الشخصية والعقلية لهاتين الشخصيتين المتعارضتين كمقدمة لدراسة الصورة المعقدة للفكر والمجتمع فى العصر الفكتورى . والكتاب الثانى (كارليل) (١٩٣٢) وهو ترجمة نقدية لحياة المؤرخ الأديب الذى تعددت جوانبه . وفى عام ١٩٤٠ صدر كتاب « ثورة فى الشعر الأوروبى » وهو يربط بين التطورات الرئيسية فى الذوق والابتكار الأدبيين فى فرنسا وانجلترا وألمانيا وايطاليا منذ القرن السابع عشر وبين ما يقابلها من ثورات فى العلوم والسياسة والاقتصاد . ويبين الكتاب الحالى — وهو يعتمد على المؤلف السابق — تأثير الأدب والبحث الأدبى وارتباطهما بالحوادث السياسية والتطورات العلمية والصناعية فى روح التأليف التاريخى وشكله ومحتواه منذ عهد فولتير . وسيقتصر البحث على أوروبا ؛ وذلك لأن فى أوروبا وحدها توازى تطور التأليف التاريخى وتطور الأدب والعلم . وقد حدث هذا التطور فى مجتمع متغير الا أنه متجانس الى حد ، وذلك فى خلال القرنين الماضيين .

وتستهدف هذه الكتب غرضا مشتركا ، وهو توضيح صورة العالم الحديث وتقديم أساس للعمل المعقول فى هذه الفترة المتأزمة ، وقد قدمنا

« المؤرخـون وروح الشـعر » للقراء الذين يميلون الى الأفكار مجردة من قشورها العلمية فى صورة حديث يمثل سير التاريخ ويمزج بين الأفكار والحوادث والمبتكرات الفنية .

ويقدم المؤلف شكره العميق لجاك بارزن لما أبداه من نصح فيما يتعلق بخطة الكتاب ، ولتشجيعه على المضى فيه بمقترحاته القيمة ، ولم يبخل ليونل ترلنج ، واروين ادمان ، واليوت ث . ك . دوبى ، والان برون ، بمد المؤلف من فيض علومهم الخاصة . والمؤلف وحده مسئول عما يمكن أن يوجد به من أخطاء فى الوقائع أو الأحكام .

ويقدم المؤلف شكره لدار ألفرد . أ . كنويف لسماحها بالاقتباس من الترجمة المجازة لانحطاط الغـرب لمؤلفه اسوالد شبنجلر ، ولهاركورت وبريس وشركائهم للسماح بالاقتباس من الترجمة المجازة للتاريخ نظرا وعملا لمؤلفه بنديتو كروتشه ، ولدار نشر جامعة كمبردج للسماح بالاقتباس من تاريخ الدراسات الكلاسيكية لمؤلفه سير جون سانديز ، ولدار نشر جامعة أكسفورد للسماح بالاقتباس من دراسـة فن التاريخ لمؤلفه ارنولدج . توينبى ، وللونجمان وجرين وشركائهم للسماح بالاقتباس من كليو ربة الفن ومقالات أخـرى لمؤلفه جورج ماكولى تريفيليان بما فى ذلك شعار هذه الدراسة ، ولأبناء شارل سكربنر للسماح بالاقتباس من مؤلف ادموند جوس الأب والابن ، ولمستر أوسكار بيست لسماحه بالاقتباس من مؤلف ج . ج . هردر الله : بعض الأحاديث الذى ترجمه فردريك بوركهارت .

نيويورك
فبراير ١٩٤٧

ه . ١

الجزء الأول

الآفاق المفتوحة

الفصل الأول

فولتـــير يحطم التقاليـــد

« ان المؤرخ ،حين قيامه باحياء الأزمان الغابرة ، يزداد اهتمامه بهـا وشعوره نحوها كلما زاد أساه أو فرحه عند شهوده الحوادث ، فأحاسيسه تتأثر بالعدالة والظلم ، أو بالحكمة والحماقة ، أو باقبال العظمة وادبارها ، كما لو كانت تمر كلها أمام ناظريه ، وهو حين يتأثر على هذا النحو تنطق شفتاه وان تكن هكوبا (١) لا تعد شيئا مذكورا بالنسبة الى الممثل » . ان هذه الشهادة البليغة التى أيد بها نيبور ما كان للكفاح النابليونى من تأثير قوى على دراسته لتاريخ روما القديمة لا تحتاج الى بيان أهميتها للقرن العشرين ؛ فنحن نعلم أنه لم يكن من قبيل المصادفة أن يبدأ العصر الذهبى للتأليف التاريخى بالاضطرابات الكبرى فى القرن الثـامن عشر كالثورة الفرنسية ، والثورة الأمريكية ، والثورة الصناعية وأن يستمر الى وقتنا هذا المضطرب . الا أن التغيرات السياسية والاقتصادية والعلمية لم تكن تستطيع وحدها أن تكسب هذا العصر الذهبى الصفة المميزة له ، ألا وهى المشاركة فى حياة العصور الماضية مشاركة وجدانية غير مشروطة ، كما يبدو من حرارة كلمات نيبور ؛ اذ كانت هذه الصفة أو المشاركة نتيجة لثـورة أخرى بدأت فى القرن الثامن عشر وهى ثورة قامت فى ميدان الذوق والابتكار الأدبى .

---

(١) Hecuba من شخصيات المسرح الاغريقى وهى عجوز ثرثارة تحاول أن تمنع بثرثرتها الممثل عن تأديته لدوره . المترجم

ان أرقى الخطوات فى مسير الثقافة الانسانية هى شمولها للانسانية جميعها . وفى سبيل هذا الهدف حطم التأليف التاريخى قيوده التقليدية المعروفة ، من شئون عامة وحروب ودين ليسجل كل المظاهر العقلية الانسانية ، وقد ساعد الأدب على هذا التقدم ، فالأدب هو المعبر عن رغبات الانسان وأمانيه ، كما ساعد عليه أيضا العلم ؛ وهو التعبير الجدى الصارم عن نزعته الى المعرفة ، وقد تخطى عون الآداب فى هذا السبيل حدود الشكل والأسلوب التى تصفها الكتب التى تعالج موضوع التاريخ كأدب ، فزودت المؤرخين ببصيرة نافذة شديدة المرونة والعمق فى أمور العقل الانسانى ، الا أنه اذا تغلب الأدب على المؤرخ لاهماله العلم ، أو اذا تغلب عليه العلم لاهماله الأدب ، جاءت الصورة التى يرسمها للانسانية ملتوية مشوهة ، فتدوين التاريخ يقترب من الكمال بقدر ما بين المعرفة والفن من اتساق فى العمل ، ومعالجة هذا الاتساق هى موضوع البحث .

وقد سميت كتابى هذا : « المؤرخون وروح الشعر » لأن الشعر على ما يبدو أنسب شىء يرمز به لجوهر العقل الانسانى ، وكان يمكن أن أسميه فنية المعرفة لوصفه الوسائل التى يختارها المؤرخون ليمكنوا الأجيال الانسانية من تعرف أشباهها وتفهم نفسها . وقد اخترت من هذا العصر الخصيب بمؤرخيه من يمثل منهم الجمع بين الأدب والعلم والوعى الاجتماعى الى أقصاه ، « فالحق — على حد قول بعض الكتاب الفرنسيين — ليس جميلا دائما ، والجمال ليس حقا دائما ، ولكن للحق وللجمال مواضع يلتقيان عندها وهى التى أبحث عنها » .

وقد ظهر هذا اللون الممتاز من التاريخ حين تسلح ڤولتير بنتائج العلوم الطبيعية وهاجم الصورة أو الرواية الدينية للتاريخ ، وهى الرواية التى ظلت

سائدة فى أوروبا مدة أربعة عشر قرنا منذ أن وضع القديس أوغسطين مؤلفه المعروف « المدينة الآلهية » وحين هاجم تبجيل أنصار الحركة الانسانية المحدثين للنص الحرفى لكبار المؤرخين من الاغريق واللاتين ، الا أن نظرة ڤولتير وجيله من المؤرخين الفلسفيين كانت لاتزال نظرة ضيقة ملتوية ، والكلام عن تصحيح هذه النظرة واتساعها بفعل الثورة التى قامت فى ميدان الذوق الأدبى تؤيدها العلوم الحديثة يتطرق بنا الى موضوعنا .

قال ڤولتير يخاطب القارىء فى كتابه : «مقال فى عادات الأمم وأخلاقها»: انك تتمنى لو أن الفلاسفة كتبوا التاريخ القديم لأنك تريد أن تقرأ هذا التاريخ كما يقرأه الفيلسوف . انك تبحث عن الحقائق النافعة ولا تكاد تجد كما تقول — الا الأخطاء التى لا تفيد ، فلنحاول أن نستنير معا ، وأن ننبش بعض الآثار الثمينة من أطلال العصور » .

هذا العرض الذى جمع بين الجرأة والثقة يعتمد على المعنى الخاص لكلمة (فيلسوف) كما فهمه الأوربيون فى القرن الثامن عشر ، فمعجم الأكاديمية الفرنسية (١٦٩٤) عرف الفيلسوف بأنه الذى يتوفر على دراسة العلوم ليتعرف النتائج بأسبابها ومبادئها . وقد يتعسف بعضهم فيستخدم لفظة الفيلسوف أحيانا للدلالة على « المفكر الحر » وهو من يضع نفسه فوق واجبات الحياة المدنية والتزاماتها . وحين وضع ڤولتير مقاله بعد ذلك بنصف قرن كان المعنى الثانوى لكلمة فيلسوف — أى « المفكر الحر » — قد زال عنه ما يشتم من سوء القصد عند معظم المثقفين ممن فاخروا بتحررهم من التحيز فى الأحكام الذى خيم على عقل الانسان . واستخدام كلمة فيلسوف على محملها الحسن فى هذين المعنيين ، أمر مألوف لقراء المؤرخ جيون .

وقد ملأت الانتصارات العلمية منذ القرن السابع عشر قراء ڤولتير باحساس شديد بقوة الانسان على معرفة الأشياء كافة وعلى سيطرته على مستقبله بهذه المعرفة ، وبعد أن طاف الملاحون حول الأرض — مسرح التاريخ — بقليل ، شق منظار جاليليو الفضاء اللانهائى حول الكوكب وكشف المجهر عن عالم مقابل وهو عالم الأحياء الصغيرة المتناهية فى الدقة . وهكذا أثبت العقل الانسانى قدرته على فهم كلا العالمين اللانهائيين . واستطاع ديكارت بعلم الجبر ، وهو تركيب تجريدى شاده العقل ، أن يحل المشاكل الحقيقية الخاصة بالفضاء والهندسة الفراغية ، وأثبت نيوتن فى ١٦٨٧ أن المجموعة الشمسية تسير تبعا لمبادىء رياضية ، وبذلك لم يعد هناك شىء يستعصى على القياس الرياضى . وسجلت ساعة الخطّار « البندول » مرور الزمن تسجيلا دقيقا ، كما سجل البارومتر الضغط الجوى والترمومتر الحرارة والبرودة وحسب رومر ١٦٧٥ سرعة الضوء ، وأنشد أكبر الشعراء فى مطلع القرن الثامن عشر يقول :

كانت الطبيعة وقوانينها يكتنفها الظلام
ثم قال الله لنيوتن كن . فعمّ الضياء

وأصبح النور والاستنارة من مفاخر القرن الثامن عشر ، ولم يحدث من قبل أن شارك مثل هذا العدد الضخم فى الثقة بالعقل الانسانى وقدرته على التحليل والتجريد والتفكير المنطقى . ووازن ديكارت بين التقدم الكبير فى علوم الرياضة والفلك والطبيعة وبين التخلف فى أنواع المعرفة الأخرى ، وخلص منذ عام ١٦٣٧ الى النتيجة وهى أن تقدم تلك العلوم يرجع الى منهجها ، وهو يمكن أن يؤدى الى تقدم مماثل اذا طبق فيما عداها . وقد أكد فونتنل ، أحد تلامذة ديكارت ، أنه « اذا اتخذت الأمور كافة بعين الاعتبار

فان أى مؤلف فى السياسة أو الأخلاق أو النقد أو حتى الأدب يكون أدق اذا قام بوضعه مشتغل بعلم الهندسة ، فالترتيب والوضوح والدقة التى سادت زمنا فى المؤلفات الجديدة قد ترجع أصولها فى الواقع الى الروح الهندسية التى تتسرب بطريقة ما ، بعد انتشارها الى من لا يعرفون شيئا عن الهندسة » . هذا وان تكن الطريقة الاستنتاجية فى الهندسة قد حققت انتصارات أكثر روعة ، الا أن طريقة علمية أخرى كانت تزداد انتشارا وهى الاستنباط من الحقائق الملموسة المبنية على التجربة والتى نادى بها «باكون» وحثت عليها الجمعية الملكية البريطانية وطبقت بنجاح فى علم النفس فى مؤلف لوك « مقال فى العقل الانسانى » ١٦٩٦ . وقد اتفق أنصار الطريقتين على أن المعرفة من أى نوع فى حاجة ماسة الى أن يعاد فحصها بوساطة العقل الناقد الذى لا يهاب التقاليد والسلطات حتى سلطة اجماع الآراء . وقد افتخر ليبنتز صاحب العبقرية العالمية فى الربع الثالث من القرن السابع عشر قائـلا :

« لقد أقمنا عصرا فلسفيا حقا ، واتضحت أعمق خفايا الطبيعة ، وتكشفت الفنون الرائعة والوسائل الشريفة لراحة العيش والأدوات والآلات العديدة ، بل تكشفت الأسرار الكامنة فى أجسادنا ، دون ذكر الضوء الجديد الذى يلقى فى كل يوم على تاريخ العصر القديم » .

أما الضوء الجديد الذى ألقى على تاريخ العصر القديم فانه لم يبعث على مثل الاحترام الذى كان يشعر به أنصار الحركة الانسانية فى القرن الخامس عشر أو القرن السادس عشر عند الكشف عن المخطوطات اليونانية الدالة على ثقافة أرقى . ذلك أن المحدثين بدورهم شعروا أخيرا أنهم فاقوا الأقدمين ، فقد بين ديكارت أن اختراعه للهندسة التحليلية حل من المشكلات

ما عجزت عنه خير العقول عند اليونان والرومان ، وأخذ المثقف من غير الاخصائيين يبدى الملاحظات على العالم الصغير فى فلك بطليموس والجغرافية الاقليمية فى مؤلفات هيرودوتس وأورزيوس وأخطاء جالينوس فى التشريح ووظائف الأعضاء ، وعلى ذلك الجهل بالقانون الطبيعى الذى أدى الى أن توجه العلامات والنذر سياسة الحكم فى اسبرطة وروما ، وفيما سمى أخيرا بالعصور الوسطى . بل ان التخلف عن العصر القديم (الكلاسيكى) فى ميدان الفن الأدبى وفن الحياة المدنية أخذوا يتغلبون عليه . واذا كان فرچيليوس قد ظل فى ذروة العظمة والجمال فى شعر الملاحم ، وأرسطو فى النقد الأدبى ، فان راسين كان قد أخذ ينافس سوفوكليس فى فن تراجيديته وموليير يتفوق على كوميدية ارستوفان ومناندر . أما هوميروس أبو الشعر فانه كان قد بدأ يغضب أهل الذوق الرقيق ، وفى عام ١٧١٤ ترجم هوداردلاموت الالياذة ترجمة تلائم « صالونات » باريس ، فارتفع بألفاظها « العامية » وحذف منها العبارات المتكررة والاستطراد والوصف المسرف وسلوك الآلهة والأبطال مسلكا غير لائق تغلب عليه الوحشية .

وأعقبه اسكندر پوب بترجمة مماثلة للالياذة والأوديسا وان تكن أقل عنفا فى معالجتها للأصل ، وحاول نفر آخر أقل جرأة أن ينقذوا سمعة هوميروس ، وذلك بأن يفسروا كلماته على أنها تصوير رمزى يرمى الى تعليم الشعب الاغريقى الجلف الحقائق السياسية العميقة ، وحكمة مصر التى حنكها القدم .

وعرف الناقد ليبوسى شعر الملاحم بأنه كلام مصنوع صناعة فنية يرمى الى تقويم الأخلاق بالتعاليم التى تضمنتها الصور الرمزية لجلائل الأعمال ، وهو فى الوقت ذاته كلام منظوم بطريقة حسنة مسلية عجيبة .

وقد أحس فولتير ومعاصروه بميزة تفوقوا بها على جميع من سبقهم من المؤرخين ، ولم تشمل هذه الميزة المعارف العلمية وحدها وانما شملت كذلك الأفق الزمنى والمكانى .. ذلك أن أعظم المؤرخين القدامى من أمثال هيرودوتس وتوسيديديس ويوليوس وتاسيتوس ، غالبا يبعثون على الاعجاب لوقوفهم من الحوادث موقف الناقد المنعزل ، الا أنهم بالرغم من ذلك كانوا شديدى القرب من الحوادث التى قاموا بسردها وتحليلها ، فهم كانوا فى حقيقة الأمر من كتاب التاريخ « الحديث » ، بل ان توسيديديس كان فى الواقع من كتاب التاريخ المعاصر ، ولقد بدت حوادث العصر القديم كأنها تكرار لنسق واحد ، أما حوادث العصر التالى فانها أظهرت تنوعا فى أشكالها وألوانها الخاصة بالنظام الاقطاعى المسيحى وبالعصر الحديث بما فيه من كشوف جغرافية وتجارة وعلوم ، وندر أن تطلع المؤرخون القدامى (الكلاسيكيون) الى ما وراء حدود البحر المتوسط أو الامبراطورية الرومانية على الأكثر ، ولكن مسرح الحوادث أصبح يشمل الآن الكرة الأرضية بأسرها ووراءها عوالم لا تحصى قد تكون مأهولة .

كذلك أصبحت دراسة الانسان موضوعا أشد تعقيدا ، ولم يكن كشف الأمريكتين الا أخطر نتائج رحلات الكشف والتجارة التى قربت الصين والهند وحضارتهما التى تفوق فى قدمها ما قالت به التوراة عن قدم الأرض ذاتها ، وبالرغم من أن أهل الشرق كانت معتقداتهم الدينية والخلقية ، غالبا ، على نقيض المعتقدات السائدة فى أوربا فانهم استطاعوا البقاء وحققوا ثقافة عالية . فالكتاب المقدس عند الفرس وهو (الافستا) نص على مذهب خلود الروح قبل أن ينص عليه العهد القديم . فهل استعار الفرس هذا المذهب من اليهود حين وقعوا فى الأسر البابلى ؟ وقد نشر يوسف لافيتاو اليسوعى — بعد رجوعه من بعثة تبشيرية بين قبائل الاروكوا فى كندا استمرت خمسة

أعوام — كتابا قال فيه ان للسكان الأصليين فى العالم الجديد أفكارا وطقوسا دينية تشبه الأفكار والطقوس المعروفة فى الديانة الوثنية القديمة والمسيحية الكاثوليكية ، وذلك تأييدا منه للنظرية القائلة بوجود دين مبنى على طقوس الطبيعة عم انتشاره فيما مضى بنى البشر . واذا كان الكاتب الأخلاقى لابروبير قد راعته « تلك العقول الجريئة التى تفسد نفسها تماما بالأسفار الطويلة ، وتفقد دينها الصغير الذى خلفته والتى ترى فى كل يوم دينا جديدا ، وعادات مختلفة ، وطقوسا متنوعة » فان الفيلسوف حاول بروح العلم التى تجمع بين حب الاستطلاع والنزاهة أن يوازن بين نظم العالم المختلفة فى الأخلاق والدين دون أن ينحاز الى نظم قومه .

أما جان شردان فانه حين كان يقوم ببيع الجواهر لأهل فارس قد لاحظ عاداتهم ملاحظة دقيقة ووضع المبدأ التالى : « ان الشك بداية المعرفة ، ومن لا يشك فى شىء لا يمكنه أن يبحث شيئا ، ومن لا يبحث شيئا فانه أعمى وسيظل على عماه » . وقد هيأت مذكراته اليومية الطابع الفارسى للخطابات الفارسية الخيالية التى وضعها مونتسكيو ١٧٢١ والتى وصف فيها فارسى يزور باريس لأصدقائه فى بلاده عادات الفرنسيين ومبادئهم الغريبة فى الأخلاق ونظم الحكم والدين ، وهى وسيلة لجأ اليها سويفت بعد ذلك بخمس سنوات ولكنه قلبها بارساله جالليفر فى رحلاته . وقد أدى مؤلف مونتسكيو الهجائى الذى امتاز بروح المرح والشباب الى مؤلفه الرائع الرصين الذى وضعه فى سن النضج وهو كتاب « روح القوانين » الذى صدر ١٧٤٨ وشرح فيه الملكية المقيدة والاستبدادية والديمقراطية بأنها من نتاج خصائص الشعوب ، وهذه الخصائص ترجع الى حد كبير الى الأحوال الجغرافية والظروف المناخية ، وقد قضى ڤولتير فى منفاه بانجلترا ثلاث سنين لقى فيها سويفت وپوب ومعظم قادة الأمة الانجليزية ، وتعرف بمجتمع

تميز بنصيب كبير من التسامح الدينى ونظام سياسى دستورى يناقض التعصب والاستبداد القائمين فى فرنسا .

وقد ظهر أن الفيلسوف لا يستطيع بحث المؤلفات التاريخية دون أن يقتحم أغوارا لا قرار لها ، فتأريخ الأحداث عند الشعوب القديمة مضطرب تقلق لاضطرابه العقول الرياضية المرتبة ، ولم تقتصر الصعوبات فقط على ايجاد نقاط محددة تلتقى عندها أزمنة الحوادث فى مصر القديمة وفارس وفلسطين وبلاد الاغريق وروما ، بل انه لم يكن من السهل تحديد التواريخ الهامة فى تاريخ الشعب الواحد . وعجز كبار الرياضيين مثل نيوتن وليبنز عن الاتفاق على مثل هذه الأمور البسيطة .

وأدرك الباحثون تدريجا أن فكرة أهل العصور القديمة عن الزمن كانت فكرة مبهمة أشد الابهام ، وعجزت وسائلهم أو ضعفت عنايتهم بقياس الزمان قياسا دقيقا (١) . أضف الى ذلك أن تصور وجود قوانين طبيعية ثابتة يتطلب اعادة النظر فى تاريخ العصور الوسطى المسيحية ، وكذلك فى تاريخ الأمم الوثنية الذى شابهه فى امتلائه بالخوارق والمعجزات ، الا أنه حين قدم لفسك ديوى فى عام ١٧٢٢ لأكاديمية النقوش شكوكه فى صحة تاريخ القرون الأربعة الأولى من تاريخ روما اتهمه الأب ساليه بالكفر ، فلم وجه مثل هذه التهمة الخطيرة الى مسيحى بسبب شكه فى الأحاديث الوثنية ؟ كان ذلك خوفا مما يمكن أن تؤدى اليه معاييره لتحقيق التتابع الزمنى الأكيد من تأثير فى تاريخ العبرانيين الأول ، فاذا ما تزحزح الحجر الأساسى العبرانى فى بناء العالم الكبير انهار البناء كله وأصبح حطاما .

---

(١) انظر : James Shotwell, "The Discovery of Time" Journal of Philosophy, XII (1915), Nos. 8, 10, 12.

ولقد تجرأ ڤولتير على القيام بهذه المحاولة فخالف ديكارت فى رفضه أية معرفة للتاريخ الغابر السابق على النهضة العلمية فى القرن السادس عشر واعتبارها معرفة عديمة الجدوى ، واذا كان المؤرخون قد قبلوا فى ذلك الوقت أقوال الشهود السذج على علاتها دون تدقيق فان الفحص عنها فحصا دقيقا قد يستخلص منها بقية حقيقة أو واقع ، أو هو على الأقل يمهد الطريق لصدق التدوين فى المستقبل .

وقام ڤولتير بنصيب ضخم فى تحديد هذا العمل الجليل الخاص باعادة تقويم الماضى بأسره ، اذ كان أشهر رجال الأدب فى عصر ساده الاختلاط بين الأمم ، واتصل فى خلال حياته المغامرة بالشئون الأوربية فى نواح عدة ، وشاهد بصفته صديقا للحكام والساسة وموضع ثقتهم كيفية حكم الأمم ، وأحس كسجين هارب ومنفى ببطش السلطان ، كما تعلم العطف على ضحايا الاستبداد والتعصب ، ومهر فى التجارة وعرف تطورات التجارة والمالية فى وقت بدأت فيه الطبقة الوسطى فى الصعود وجذب الانتباه الى القوى الاقتصادية . كذلك كان ڤولتير مفكرا متأملا متعدد الجوانب يهتم اهتماما شديدا بالعلم ، وعلم النفس والأدب والفنون الجميلة ، وألف مقاله فى عادات الأمم وأخلاقها (١٧٥٤ — ١٧٦٩) فى نضجه حين بلغ الستين بعد أن أصبح مستقلا عن نفوذ الكنيسة والدولة . وكان ذلك الاستقلال أمرا ضروريا لعدم تحيز المؤرخ ونادر الحدوث فى أى عصر . ولم يكتب التاريخ من وجهة نظر لادينية صرفة الا منذ القرن الخامس عشر فى ايطاليا ، وأرجع ڤولتير التأليف التاريخى الجيد الى عهد ميكاڤيلى وجويكاردينى ، وأصبح المؤرخ فى القرن الثامن عشر يستطيع أن يحرر نفسه من تملق الحكام والنبلاء ويؤلف كمواطن فى العالم ، غير أنه لسوء الحظ نجد أن شعور ڤولتير بالمرارة نتيجة للكفاح فى سبيل التحرر من الرقابة الفرنسية كان من القوة

بحيث عجز عن الكتابة الموضوعية فى نواحى الحكم الاستبدادى والنظم المسيحية .

وقد رمى ڤولتير من « المقال » الى دحض « التاريخ العام » الذى اشتهر فى فرنسا ، وهو تاريخ العالم (١٦٨١) الذى أعده بوسويه أسقف مو لتعليم ولى عهد لويس الرابع عشر . وقد قص بوسويه تاريخ الانسان منذ الخليقة الى عهد شرلمان وفقا للطريقة التى أقرتها أوربا منذ عهد القديس أوغسطين الذى كان يعتقد بأن الحكم الدينى والسياسى نقطتان تدور حولهما الشئون الانسانية [١] وصور التاريخ على أن الله يقوده بيده حتى يصل الى انتصار الكنيسة والملوك الذين يحكمون باسم الله ، وقسم بوسويه أعمال الناس الى دينية وغير دينية ، وأقر دائما فى أحوال التعارض الرواية التى وردت فى الكتب المقدسة العبرية ، « لأن الله — كما جاء فى كتبها التاريخية — شاء دواما وجود تلك السنة الطيبة التى قضت بتدوين الأشياء وقت حدوثها أو وقت حداثة ذكرياتها ، وليس فى الامكان تغيير كلمة واحدة دون أن يكون ذلك أمرا رجسا » ،

وقصة الشعب المختار وان تكن أوضح الأدلة على العناية الالهية الخاصة التى يسير الله بها أمور الناس ، الا أن مصير الامبراطوريات الوثنية كذلك كان من عمل يده و لايمكن أن يقوم سبب للشك فى المعجزات المذكورة ، لأن الله يمنح الطبيعة قوانينها ويطرحها متى يشاء .

ولم يخص بوسويه الفلسفة اليونانية الا بفقرة واحدة ، والأدب اللاتينى الا بعبارة مدح واحدة ، وخصص جزءا كبيرا لروما باعتبارها أكبر نموذج للعظمة والحكمة السياسية ، وختم بوسويه التاريخ بذروة

---

(١) ترجمة المقتبسات من مقال فى التاريخ العالمى مأخوذة من الطبعة :
Oeuvres Complètes de Bossuet(Paris 1864 ; Vol. XXIV).

هى أحياء الامبراطورية الرومانية على يد شرلمان الذى انتقل ارثه الى فرنسا لويس الرابع عشر . وقد ناسب أسلوب كتابه « تاريخ العالم » موضوعه الخطير واكتسى بذلك الثوب الفخم الجميل الذى تزيا به الخيال الرائع فى الآداب اللاتينية القديمة واستوحى الكتب المقدسة .

وقد أخذ ڤولتير على الأسقف أنه يكتب « فقط ليشير من طرف خفى الى أن كل شىء فى هذا العالم قد صنع من أجل الأمة اليهودية » وأنه فى الوقت ذاته قد أغفل الصين والهنـد . وقال عن العرب « الذين أسسوا امبراطورية قوية وعالما مزدهرا انهم أشبه بطوفان من البرابرة [١] وطعن ڤولتير صميم الرأى المعارض عن العالم فأنكر انكارا قاطعا امكان حدوث المعجزات ، مسيحية كانت أم وثنية ، فقال : « انه لا يمكن أن تتوقف عجلة واحدة فى الآلة الكبيرة دون أن تلقى بالطبيعة كلها خارج نطاق سيرها » . وان المؤرخ لا يحتاج الا الى « تتبع سير العقل الانسانى بعد أن يترك لنفسه » فى عالم القوانين الحتمية .

هذا وان التمييز بين تاريخ مقدس وآخر غير مقدس لا يثبت اذا بحثنا الجزء التاريخى فى الكتب اليهودية على أساس القـواعد المتبعة فى نقد التواريخ الأخرى . فاليهود قوم رحل قلّت لديهم وسائل حفظ المدونات فبالغوا فى طول أعمار شيوخهم ورؤسائهم وعدد أفراد جنسهم وأهميتهم السياسية ، وانه مهما كانت قدرة أنبيائهم على التنبؤ بالمستقبل فانها كانت قدرة انسانية صرفة . وقد وجد ڤولتير فارقا أصيلا واحدا فقط بين العبرانيين وغيرهم من الشعوب القديمة ، وهو جديتهم التامة فى قصصهم عن أصلهم .

(١) ترجمة المقتبسات من « مقـال فى عادات الأمم وروحها » مأخوذة من الطبعة :

Oeuvres Complètes de Voltaire (Paris 1878 ; Vols. XI, XII, XIII).

صحيح ان المؤرخين الرومان يحدثوننا عن عذراء كاهنة حملت بطفلين للاله مارس فى وقت لم توجد فيه كاهنات فى ايطاليا ، وأن ذئبة أرضعت الطفلين بدلا من أن تفترسهما ، وأن كاستور وپولكس حاربا فى جانب الرومان ، وأن كورتيوس رمى بنفسه فى هاوية أغلقت عليه ، ولكن مجلس السناتو الرومانى لم يحكم أبدا بالموت على من شك فى كل هذه الخوارق ، بل كان من الجائز الضحك منها فى الكاپتول ، وقد لمّح ڤولتير بالنسبة لاضطراره الى الحرص فيما يمس المسيحية الأولى الى أنها أيضا لم تكن شيئا خارقا مطلقا .

وأشار ڤولتير بالنسبة للحوادث المعجزة التى قيل انها وقعت ولم تستبعد من التاريخ بقوله : « علينا أن نعتقد فى الحوادث التى تثبتها السجلات العامة ، واتفاق المؤلفين المعاصرين القاطنين فى عاصمة ويلقى كل منهم الضوء على أقوال غيره والذين يكتبون تحت نظر أهم الشخصيات فى الأمة . وهذه النصيحة اذا اتبعت بدقة فان التاريخ كما يراه ڤولتير لابد أن يقتصر على فترات وعصور قليلة ، ثم هى تؤدى الى التخمين فيما يمس أغمض مشاكل التاريخ بما فى ذلك نشأة العالم والجنس البشرى . وقد ظن ڤولتير أن الأرض والانسان أقدم بكثير من عام ٤٠٠٤ ق . م . وهو العام الذى حدده بوسويه لخلقهما معا متبعا فى ذلك حساب رئيس الأساقفة الانجليزى أشر فى القرن السابع عشر . ولكن معرفته بعلم طبقات الأرض والكيمياء وعلم الحياة (وهى علوم كانت لا تزال فى المهد ، وفضلا عن ذلك فان ڤولتير لم يدرسها دراسته لعلم الطبيعة) هيأت له ابداء هذه الملاحظة عن اعادة النظر فى التاريخ الزمنى اعادة شاملة ، وقد سلّم المؤرخون القدامى ومؤرخو العصر الأوسط وبوسويه نفسه بأن طبيعة الانسان أمر معروف ، ولكن ڤولتير أدرك أنه بعد كشف الأمريكتين لابد من وصف الأجناس المختلفة ،

ومراحل ثقافتها ونوعها ، ووضع صورة تخطيطية لترقى الجنس البشرى ترقيا بطيئا شاقا من حالة هى أقرب الى حالة الحيوان . وسار على منوال أرسطو فى اعتباره الانسان حيوانا اجتماعيا ، وتتبع نمو الحكومة من الأسرة والقبيلة الى الأمة ؛ وفيما عدا الصين وجد أن الحكومات الأولى كانت حكومات دينية (ثيوقراطية) ، وشجب حكم الكهنة هذا بأنه أسوأ أنواع الطغيان ، لأنه قائم على الزيف المقصود ممن يتكلمون باسم الآلهة لمنفعتهم الخاصـــة .

ومع ذلك فان ڤولتير أقر بالدين كشىء ينمو نموا طبيعيا ، فالأحلام بالموتى وعودتهم أدت الى فكرة الأرواح والنفس الانسانية ، والخوف من قوى الطبيعة والجهود المبذولة لتهدئتها أنتجت الوثنية متعددة الآلهة ، والآلهة القبلية كالآلهه المناصرة للطرواديين أو اليونان خلقتها رغبة الجماعات فى الحماية والنجاح فى الحرب ، ولكن أقرت كل قبيلة بوجود آلهة القبائل المنافسة لها ، واعترفت بأن آلهتها لا تحكم الا على منطقة محدودة ، ويقص الاصحاح الأول من سفر القضاة أن اله اليهودية ، وان يكن مسيطرا على الجبال الا أنه لم يستطع فتح الأودية ، ويروى السفر الثالث من الملوك أن السوريين فى زمن متأخر ظنوا أن اله اليهود اله للجبال فقط . ويعد ڤولتير بموازنته بين هوميروس والعهد القديم وموازنته الطقوس اليهودية بالطقوس المصرية والفارسية والأفكار الدينية رائدا من رواد علم الأديان المقـــارنة .

أما فيما يختص بأقدم الحضارات — كالحضارة الكلدانية والهندية والصينية والمصرية — فان ڤولتير اعترف بجهله لها جهلا كبيرا . وقد خيم الظلام على القرون الأولى من تاريخ روما ، وبعد فترة قصيرة من النور

نجدها فى المؤرخين اليونان والرومان خيم الظلام مرة أخـرى بسقوط الامبراطـورية الرومانية بفعـل « كارثتين : هما البرابرة والمنـازعات الدينية » . وفيما يخص برابرة الشمال فان الكتّاب القـدامى لم يظلوا مرشـدين أمناء ، ذلك أن تاسيتوس وكوينتيوس كورتيوس وهوراس ، أشبه الناس بأولئك المعلمين الذين يرمون الى اثارة روح المنافسـة بين تلاميذهم ، فيطلقون أمامهم عبارات الثناء على أطفال الشعوب الأجنبية مهما بلغ تأخرهم . أما كتاب الحوادث المتدينون فأنهم استغلوا جهل أولئك الفاتحين وسذاجتهم بالمبالغـة فى بذخ الكنيسة الدنيوى واخفـاء نشأتها الأولى بين الجماهير الوضيعة وعاداتها الديمقراطية . أما منحة قسطنطين المعروفة ، وهى الوثيقة التى يعترف فيها هذا الامبراطور ، تقديرا لجميل شفائه من البرص على يد سلفستر أسقف روما ، اعترافا رمزيا باخضاع سلطته الزمنية للسلطة الروحية ، وبمنح الكنيسة السلطة الزمنية على ايطاليا والأقاليم الغربية ، فانها بعثت ڤولتير على التعليق عليها تعليقا عنيفا اذ يقول : « لما كان النص بأكمله مكتوبا بالأسلوب الملىء بالأخطاء الذى ساد فى القرن الثامن ، ومليئا بالأخطاء التاريخية والجغرافية ، فان المزيف نمّ عن جهل وكان الجهلاء هم المخدوعين » . وقد ظلوا مخدوعين طويلا لأن التزييف لم يفضح أمره الا فى القرن الخامس عشر .

واتجه تفكير ڤولتير ، لحسن الحظ الى أن العالم المسيحى لم يكن يشمل الجنس البشرى بأسره . وفى الوقت الذى سـاد فيه الجهل القارة الأوربية قامت فى الصين والهند حضارة راقية ونشأ بين العرب دين متسامح مع العلم فى امبراطورية امتدت من بغداد الى غرناطة . ويبدو الغرب قبالة هـذه الصورة الشرقية البراقة مظلما كأنه تل من الجرائم والحماقات والمصائب ، ظلت تحدث بين الحين والحين فى بلد أو آخر طوال خمسمئة عام . « وقد

استنزفت الحروب الصليبية المستعصية أوربا فجردتها من المال والرجال دون أن تنشر بها الحضارة ، وأضر المذهب المدرسى فى الفلسفة ، وهو الابن غير الشرعى لفلسفة أرسطو ، بالفكر والعلم أكثر مما أضرت بهما قبائل الهون والونـدال » .

كذلك كان الفكر منحطا فى الشئون الدنيوية ، ووصف ڤولتير نظـام المحاكمة بالمبارزة، بسخرية لاذعة ، فقال عنه « انه نظام يتيح للمتهم بجريمة قتل الفرصة لارتكاب جريمة قتل أخرى » . واذا كانت الفروسية قد نشأت لتلطيف خشونة العـلاقات بين سادة الاقطاع فانها لم تجعلهم أقل قسوة بالنسبة لمن دونهم ، واستخلص ڤولتير من الانحراف بالعدالة فى الحكم الذى أصدرته الكنيسة والدولة على چان دارك واحراقها ، درسا بينا لقرائه من أهل باريس ، فقال : « على مواطنى المدينة الكبيرة — التى تسود فيها اليوم الفنون والملذات والسلام وبدأ الفكر فى دخولها — أن يوازنوا بين العصور ثم يشكوا ان تجاسروا على الشكوى ، وهذه الملاحظة يجب أن تقوم عند كل صفحة تقريبا من هذا التاريخ » .

وقد رأى ڤولتير أن أوربا قد طلع عليها النور مرة أخرى فى أثناء القرنين الثالث عشر والرابع عشر فى ايطاليا ، حيث احتمى الصناع والتجار بغمرة الظلام والاهمال من غضب الأعيان وأطماعهم ، فكانوا كالنمل الذى يحفر مساكنه فى صمت فى حين تمزق النسور والجوارح بعضها بعضا اربا . وان ڤولتير اذ يقف هنا وقفته هذه ليصف حياة الأسرة والفنون النافعة قد وسع مرة أخرى حـدود التاريخ ، وهو قد رأى الثقـافة ترتفع على الأساس الاقتصادى للمدن التجارية حتى نافس الايطاليون فى القرن السادس عشر اليونان القدماء فى النحت ، وتفوقوا عليهم فى التصوير والموسيقى والعمارة وبعض أنواع الأدب . وكان التقدم جليا فى ميدان الشعر الملحمى ، فبعد

(القصيد الغريب) الذى وضعه دانتى أحيا يتراك بحكمته تقليد النماذج القديمة ، وما لبث الشعراء أن تفوقوا على هوميروس وفاقت قصيدة (أورلاندو) للشاعر اريوستو الأوديسة وان شاركتها فى بعض عيوبها كالاغراق فى الخيال والافراط فيما يستحيل تصديقه . أما (انقاذ أورشليم) لتاسو فانها دون شك تفوق الالياذة بحسن ترتيبها وأهمية موضوعها وتنوعها ودقتها وجمالها ونعوتها التى تفسح المجال للسمو ، وانتشرت الثقافة ودقة الذوق فى فرنسا كذلك فى القرن السادس عشر واتجهتا نحو الشمال ، وللحروب الدينية المحزنة نتيجة غير مقصودة وهى أن بعضهم تعلم حكمة التسامح ورأى فى الله أبا للجنس البشرى كافة ، لا منعما على بعض الناس فى بعض المناطق الصغيرة .

ولكن بينما كان الغرب يتقدم أخذ الشرق فى الانحطاط ، فتبعت الصين الهند فى انحطاطها العقلى والفنى ، وفقد العرب سيطرتهم على اسبانيا وأصبحت أوربا منذ القرن السادس عشر قائدة العالم وهى لم تكن قد بلغت القمة بعد ، لأن الفلسفة الحقة لم يبدأ نورها يسطع على البشرية الا قرب نهاية ذلك القرن حين ظهر كوبرنيكوس وجاليليو . ولم يكن جاليليو أول علماء الطبيعة المجيدين فحسب ، ولكنه كتب أيضا بأسلوب جميل كأسلوب أفلاطون ، وتميز على الفيلسوف اليونانى بميزة لا تضارع ، وهى أنه لم يقل شيئا غير مؤكد أو غير مفهوم .

وعلى أبواب عصر الاستنارة ينتهى « المقال » ؛ اذ أن ڤولتير كان قد نشر فى عام ١٧٥١ مؤلفه « عصر لويس الرابع عشر » الذى وصل فيه بتاريخ الانسان الى عام ١٧١٥ . وعصر لويس الرابع عشر هو أول محاولة لوصف حياة عصر ما فى مختلف نواحيه العقلية والفنية والاقتصادية والسياسية والدينية والحربية . ويفتتحه ڤولتير بقوله المأثور : ان هناك أربعة عصور

حقيقة باهتمام أهل الفكر والذوق ؛ وهى تاريخ اليونان من پركليس الى الاسكندر ، وتاريخ روما فى عهدى يوليوس قيصر وأغسطس ، وعصر احياء الفنون فى ايطاليا ، ثم العصر الحالى الذى ترمز اليه فرنسا لويس الرابع عشر وهو عصر زادت فى ثروته مستكشفات العصور الثلاثة الأخرى وهو دون شك يتفوق عليها فيما يتعلق بالفكر الانسانى عامة . اذ أن الناس فيه استزادوا من الاستنارة فى أوربا من أقصاها الى أقصاها أكثر من أى عصر سبقه ، وقد شاهد ڤولتير استمرار الاستنارة وانتشارها حين أكمل « المقال فى أخلاق الأمم وعادتها » فى عام ١٧٦٩ . الا أن وصفه للحقب الماضية لم يبعث فيه الثقة بأن الهمجية والخزعبلات التى فصلت ما بين العصور الكبرى الماضية لا يمكن أن تعود ، فقال : « لو تنبأ أحدهم لأغسطس بأن الكاپتول سيحتله كاهن لدين مشتق من ديانة اليهود لدهش أغسطس لذلك غاية الدهش .. وكل حادثة تؤدى الى حادثة أخرى غير متوقعة » [١] .

وقد أثارت كتابات ڤولتير التاريخية معاصريه ولا سيما بما حوته من أفكار شاملة وقلب للرواية اليهودية المسيحية عن الماضى ، فالتاريخ عندما تعرض لنظرة ڤولتير الجلية الساخرة لم يعد كما كان ، ولكن القارىء فى القرن العشرين الذى اعتاد الشك وتغير المستويات يتأثر أكثر ما يتأثر بميزته الانشائية . لقد وسع ڤولتير حدود التاريخ الزمانية والمكانية والموضوعات التى يطرقها ، وأجبر المؤرخين على اعتبار شعوب الأرض كافة وكذلك اعتبار كل نواحى ثقافاتها ، وبدأ تاريخ الأفكار ، وأدخل الفنون والآداب فى التاريخ العام ، واتجه بعض الشىء صوب التاريخ الاقتصادى والاجتماعى ، وأوجد نوعا جديدا من الوحدة فى صورة الماضى وذلك

(١) انظر وصف جيبون لبداية مؤلفه ، انحطاط وسقوط الامبراطورية الرومانية ، فى ترجمته لنفسه .

بقضائه على التمييز بين التـاريخ الدينى وغير الدينى واقراره الأسباب الانسانية والطبيعية للحوادث دون غيرها من الأسباب . ولكن ما ابتدعه ڤولتير من آراء جـديدة أدى به الى اغفال الوحـدة الشاملة التى جعلت بوسويه كاتبا ضخم الأثر . وهى تلك الوحدة التى تتكشف فيها مقاصد الله من البداية كلما تكشفت الخطة الآلهية . وأسلوب ڤولتير أسلوب جارف قوى يشع ذكاء وسخرية مريرة ، ولكنه لا يسير فى وصفه بخطى ثابتة مهيبة كخطى الأحداث المسيحية . وهكذا نجد أن العقل المحلل قد حطم التاريخ .

هذا ويعد ڤولتير أكثر المؤرخين ابتكارا وأوسعهم علما وكثير منهم قد حدا به الفخر بالقرن الثامن عشر الى الرضا عن نفسه اذا ما نظر الى الوراء . فازدراء العصور الوسطى ، ومدح الفكر والمخترعات الحديثة نراها تسرى فى الخطاب التمهيدى للموسوعة الشهيرة لدالمبر وفى التـواريخ القومية كتاريخ انجلترا للفيلسوف هيوم وتاريخ اسكتلندا لروبرتسون من رجال الدين البروتستنت .

ولعل خير ما يمثل آراء جمهور المثقفين الآراء التى عبر عنها كاتب أقل شأنا وذلك فى كتاب « التأملات الفلسفية فى تاريخ الانسانية » لاسحاق ازلان السويسرى المنشور ١٧٦٤ وكان قد وضعه لأعضاء جمعية محبى الانسانية فى بازل — وهى جمعية كانت ترمى الى البحث فى التاريخ عن المبادىء التى يمكن أن توجه الانسانية الى خير أتم . ونظرية ازلان تقول بأن المرشد الحق للانسان انما هو العقل الذى يقاوم أو يحد من اغراء الحواس والعـواطف والخيـال ، فالاغريق كانوا أول الشـعوب المستنيرة لأن ليكورغوس وصـولون تطلعا الى العصـور المقبـلة وكانا نعم المشرعين الحكيمين ، ولو أن الاسكندر لم يمت مبكرا لاستمرت استنارة العـالم

دون عثرات السيطرة القاسية للامبراطورية الرومانية ومدمريها وهم أكثر قسوة ، فقد سقطت روما لأن الطبقة الحاكمة عجزت عن نشر الثقافة المأخوذة عن اليونان بين الجماهير فأعقبها الظلام طيلة أكثر من ألف عام ، وقد ساعد رجال الدين على نشر هذا الظلام .

« ان المسيحية التى طرأ عليها الفساد ، بدلا من نشر النور والأخلاق وروح الانسانية بين الشعوب الأوربية والعمل على تعميمها ، قد زادت الجهل والفوضى والخشونة وجعلت من العواطف الوحشية والميل الى الخوارق العجيبة الذى سيطر على الناس كبيرهم وصغيرهم أدوات لصالح الكهنة وسلطانهم ، ومن المبادىء المقررة أن أحكام المؤرخين فى تاريخ العصور الوسطى وهم جميعا من رجال الدين لأن أحدا غيرهم لم يكن يستطيع القراءة والكتابة — لا يمكن الثقة فيها » [١] .

وقد رفعت المصادفة ستار الظلام فتعلمت المسيحية من أعدائها المسلمين فى أثناء الحروب الصليبية فلسفة أرسطو والطب اليونانى ، وأدى استيلاء الأتراك على القسطنطينية الى طرد العلم اليونانى الى ايطاليا حيث مهد نقد نصوص المخطوطات الطريق للتفكير الحر ، وانتعش العلم واكتسى رداء لا مثيل له ، واستمد بوالو من الأدب القديم قوانين النقد التى هيأت للشاعرين راسين ودريدن انتاج أعمال طابعها الذوق المصفى . وقد أسهم القرن السابع عشر فى استنارة أوربا أكثر من كل القرون السابقة ، واستمر القرن الثامن عشر فى رعاية ونشر حرية الفكر والذوق فى ألمانيا ، وقويت الأسس الاقتصادية للثقافة ولم تعد غنيمة أو سرقة كما كانت الحال فى العصر

---

(١) ترجمة المقتبسات من « تاريخ الانسانية » لازلان مأخوذة من نص فى مجلدين مطبوع فى زوريخ ١٧٦٨ .

الاغريقى الرومانى ، وقضت أسلحة العلم الحديث على خطر الغزوات البربرية ، وكان من الممكن أن يكون مستقبل الحضارة زاهرا لو أن ملوك أوربا لم يحارب بعضهم بعضا ، ولو أن انتشار الثقافة لم يكن ضئيلا حتى ان أفراد الشعب العادى فى معظم البلاد الأوربية ظلوا تقريبا « على همجيتهم وخزعبلاتهم وأخطائهم كما كانت حالهم فى العصور الوسطى » .

الفصل الثاني

هردر وجوته ، أو الماضى الحى

بعد النظرة النافذة الساخرة للحكيم ڤولتير ، اتجه ألمانى شاب نحـو الحقائق الكبرى التى غالبا ما نشعر بها أكثر مما نشاهدها . وفى العنوان الطويل لمؤلفه الذى نشره دون أن ينسبه الى نفسه وهو : « فلسفة أخرى للتاريخ فى سبيل الثقافة الانسانية » . سخر من العادة المنتشرة التى جرت على استخدام التاريخ لأغراض تهذيبية ، وصبّ جام ازدرائه على « النظرة الضيقة لهذا القرن المستنير جدا » ، التى لا تبصر الا مجرد شذرات من التاريخ ، « وفقا لاستدلال متسرع جدا بشأنها على الطريقة الڤولتيرية » ، والتى عجزت عن فهم رواية التـوراة عن نشأة الانسـان بسبب كرهها « للأمور العجيبة المخبوءة »[1] ؛ فالعقل الذى نفاخر به ليس الا بعض موارد الانسان الذى اخترع قبل يقظة العقل اللغة وغيرها من الوسائل التى لا يزال يتحتم على العقـل أن يعجب بها . « وقد حدث التاريخ بطـرق لم يكن الفيلسوف ذو المنظار ليوافق عليها سلفا كما هو الشأن فى نمو البـذرة والجنين وغيرهما مما تنتجه الطبيعة ، بل ان حرية الفكر التى يقدرها تقديرا كبيرا لم تكن الا بديلا يدعو الى الأسف مما هو أكثر حاجة اليه من « قلب ودفء وانسانية وحياة » .

---

(١) ترجمة المقتبسات من « فلسفة للتاريخ أيضـــا » مأخوذة عن النص الوارد فى مؤلفات هردر الكاملة :

Herders Sammtliche Werke, ed. B. Suphan (Berlin, 1877-1909 ; Vol. V).

ولماذا تأخذنا الحيرة لأن ليونيداس أو قيصر كان من الممكن أن يكون انسانا ماهرا مهارة أهل القرن الثامن عشر . ولكنه ، لأمر ما ، لم يكن على هذه المهارة ؟ ان الخلق يشكله الزمان والمكان « ولكل أمة مركز سعادة بداخلها ، كما أن لكل كرة مركز جاذبيتها » . وما يحلم به المشتغل بالدراسات القديمة من احياء ثقافة فترة زاهرة فى العصر القديم حلم لا طائل تحتــه ، فالثقافات لا يمكن تقليدها ، « وعلوم اليونان بعد أن تشبع بها الرومان أصبحت رومانية ، كما أصبح أرسطو عربيا وفيلسوفا مدرســيا ، بل ان الثقافة فى الشعب الواحد عجزت دائما عن الرجوع مرة أخرى الى ما كانت عليه فيما مضى ، فحكم القدر صلب كالحديد » والانسانية كالنهر لابد من جريانه واتجاه مجراه لا يمكن عكسه .

واستمر المؤلف الذى أغفل ذكر اســمه يقول : ان ديكارت ونيوتن قد ضللا المؤرخين فاتجهوا الى قياس خاطىء . فالانسان ليس آلة من المادة الميتة ، ولكنه حىّ ينمو فى الزمان وينتشر فى المكان ، وتاريخه يشبه تاريخ غيره من منتجات الأرض الحية ، والأساطير الدينية النرويجية القديمة قد استلهمت الغريزة السليمة فى تشبيهها الانسان بالشجرة . وعلى ذلك كان الفناء الذى حير ڤولتير أمرا مناسبا لأحوال الانسان مناسبة النمو لهــا . « وكل شىء ، وكل فن ومعرفة ، بل كل ما فى العالم كانت له فترات للنمو والازدهار والانحطاط » .

ومع ذلك فان الانسان ليس مضطرا أن يتخلى عن التطلع الى المستقبل. فاذا فنى أحد المجتمعات الكبيرة فانه يترك الأرض أشد خصبا وأصلح لنمو مجتمع آخر ، والانسانية تتقدم ، وان تكن طبيعة هذا التقدم متوقفة على تضافر أسباب كثيرة يعجز عن التنبؤ بها أذكى العقول وأقواها ، « واذا كان مسكن الانسان — كما قال نيوتن — يدل فى أصغر تفصيلاته على صورة

الله ، فلماذا لا يدل عليها تاريخ سكانه ؟ » . ان الله يرشد الانسانية ولكنه لا يرشدها بنزوة شخصية كما يبدو فى كتابات بوسويه . والمثال الذى تقدمه الطبيعة وهو الرمز الناطق المعبر عن الله يؤكد لنا وجود التقدم المنتظم الذى يمكن للانسان فهمه ، فالتاريخ وكذلك التاريخ الطبيعى هما المعرض الذى تبدو فيه الخطة الموجهة على الأرض حتى وان كنا لا نرى القصد النهائى منها ، وهما مظهران يدلان على وجود الله وان اقتصر الدليل على الاشارة المجردة وأجزاء المناظر المفردة » . واستمر المؤلف يقول بما عرف عنه من حماسة :

« لو أنى نجحت فى أن أضم معا المناظر المتفرقة دون أن أخلط بينها ، وأن أبين صلة كل منها بغيره ، ونشأة كل منها من غيره ، وفناء كل منها فى غيره ، وأن كلا منها يبدو وحده وانما لأجل ، وأنها فى استمرارها ليست الا وسيلة لغاية — لو نجحت فى ذلك فيا له من منظر ، ويا له من مشجع على الأمل والايمان حتى فيما لا يستطيع الانسان أن يميز فيه شيئا بتاتا ، أو فيما لا يكاد يميز فيه شيئا ما » .

ودعا القارىء الى الامتناع عن الحكم على أساس أى معيار من معايير عصره ، وحث أولا على مشاركته الأمة مشاركة وجدانية ، وقال : « ادخل فى صميم العصر وفى جغرافيته وتاريخه كله واشعر [١] بأنك تعيش فيه حقا » . واذا ما تخيل الباحث أنه فى عهد طفولة الانسانية فانه سيكشف أن الدين « وهو العنصر الذى عاش فيه الناس جميعا وتنقلوا فيه » . ليس من تدجيل الكهنة أو الملوك ، ولكنه نزعة شريفة الى المعرفة ؛ لأن الانسان يعجب بكل

---

(١) هـــذه هى أول مرة يظهر فيها استخدام الفعل einfuhlen بمعنى يحس ، أو يشعر ، وانتشر استخدامه فيما بعد انتشارا كبيرا .

شىء قبل أن يراه بوضوح . بل ان الخوف الذى لجأ اليه الكهنة والملوك الأول لخلق النظام لم يكن على القسوة والانحطاط اللذين افترضهما ڤولتير قياسا على النظام الاستبدادى الحديث فى الشرق . فكان الدين ملاطا لا غنى عنه للغريزة فى وضع أساس العادات الى أن تهيأ الناس لاتباع العقل . وكان سلطان رب الأسرة رائدا أمينا للجنس البشرى فى عهد طفولته المتجولة التى صورها سفر الخروج قبل أن تجذب الزراعة الناس الى مقر ثابت وتخضعهم لنظام أشد صراحة يتمثل فى مصر . فالجمود المصرى لم يقدر تقديرا صحيحا نظرا للحكم عليه تبعا للمعايير الاغريقية لا تبعا لطبيعته وطرازه كما هو الشأن فى الفن المصرى بطابعه الخاص المعروف ، ويحتمل أن بعض القيم الثقافية قد ضاعت حقا فى أثنــاء انتقالها الى بلاد اليونان لأن « السفينة الانسانية تعجز عن نقل بضاعة بأكملها فى وقت واحد ، ولابد لها أن تخلف شيئا وراءها فى تقدمها » .

وأجبرت دفعة الطبيعة المستمرة على التقدم من عهد شباب الانسانية الذى تمثله اليونان الى عهد الرجولة الرومانية التى فرضت الوحدة على العالم القديم . ولم يكن برابرة الشمال الذين قضوا على روما مجرد أداة لتعطيل الحضارة الغربية ؛ فقد شبههم الانجليزى هورد فى مؤلفه الحديث « رسائل فى الفروسية » بابطال اليونان فى عهد هوميروس . وكان للعصور الوسطى بالطبع جانبها المظلم ، الا أن ڤولتير وهيوم وروبرتسون وازلان غالوا فيه وعجزوا عن ادراك قوتها المبدعة . وقوت المســيحية فى العصر الوسيط الاتحاد بين شمال أوربا وجنوبها ، وزالت عنها تدريجــا الأفكار الدخيلة الممجوجة التى اختلطت بها كنتيجة حتمية للعقلية الوثنية لمعتنقيها الأوائل .

أما فن العمارة فى العهد الوسيط — وهو الفن القوطى الذى كان موضع

الازدراء — فانه كانت له ميزات وصفها المؤلف بعبارة تدل على شىء من الحذر وشىء من عدم الادراك فقال : « العمارة القوطية المريعة المفرطة فى زخارفها ، الثقيلة الحزينة ينعدم فيها الذوق ولكن ما أضخمها وما أغناها وما أجمل سقوفها وأقواها ! » وخففت المسيحية من غلواء الاقطاع فتولد منه قانون الفروسية الذى يبعث على الاعجاب ، فالعمل والفكر كان لكل منهما فضائله .

وهل كان يحتمل أن تجد الانسانية بعد هذه الرحلة الطويلة المتقلبة هدفها ومستقرها فى علم القرن الثامن عشر واعتباره أن العالم كله وطن للفرد؟ كان من الواضح أن العلم لا يزال فى مهده لأن التاريخ الطبيعى — أى علم الحيوان وعلم طبقات الأرض — لم يكن اذ ذاك قد بدأ على يد بوفون ، أما اعتبار العالم وطنا للفرد فأنه كان يهدد بزوال التنوع فى العادات والصفات القومية والذوق الفنى . فالقرن الذى يزدرى العصور التى لا تشبهه ، قرن أعمى ، وقد أثبت التاريخ مبدأ عظيما وهو أنه — لا يوجد شىء هو وسيلة فقط ، وأن كل شىء هو فى نفس الوقت وسيلة وغاية .

والمؤلف الذى تحدى الفلاسفة والمتمسكين بالتقاليد على هذا النحو هو يوهان جوتفريد هردر الذى كان رئيس القساوسة لدى حاكم الولاية الألمانية الصغيرة شومبرج لب . وكان مؤلفه هذا أول مؤلفاته التاريخية اذ كانت مؤلفاته السابقة أغلبها فى النقد الأدبى وتزعم فيها ، وهو فى الثلاثين من سنه ، ثورة على السيادة الفرنسية فى أمور الذوق الأوروبى . وجاء مؤلفه « فلسفة أخرى للتاريخ » (١٧٧٤) بعد أن أتم ڤولتير مقاله فى عادات الأمم وأخلاقها بخمس سنوات ، الا أنه كان نداء عصر جديد لأن هردر كان أصغر من ڤولتير بخمسين سنة ؛ وهكذا هيأت النشأة الشعبية لهذا المفكر

المبتكر الشاب فى مجتمع أرستقراطى وبُعْدُه عن مركز الثقافة فى باريس أن يقوّم التاريخ تقويما جديدا .

كان هردر ابنا لأحد المعلمين البروتستنت فى قرية من قرى پروسيا الشرقية ، وعرف باستقلاله وحدة مزاجه مما جعله أقل شبها بعشيرته الجرمان وأقرب الى الصقالبة القاطنين على حدود موطنه ممن قابلهم فى شبابه كزملاء فى طلب العلم فى كونجزبرج أو فى خلال الفترة الأولى التى عمل فيها قسا فى مدينة ريجا — الا أن تعليمه كان تعليما پروسيا بمساوئه وحسناته ، تمثلت مساوئه فى النظام القاسى فى مدرسة القرية ، ومحاسنه فى جامعة كونجزبرج التى أنشأت فى عام ١٧٧٠ ما يسمى الآن بالدراسة التوجيهية فى ميادين المعرفة الرئيسية ، وكانت ترمى الى تنشيط « القدرة على التفكير والبحث عن طبائع الأشياء دون تحيز فى الحكم أو تشيع لرأى [1] » .

هذا وان يكن هردر قد ترك الجامعة قبل ذلك بخمس سنوات الا أن التشجيع على القيام باطلاع واسع كان قد وجد فى أيام دراسته بها ويمثله على خير وجه مدرس خاص وهو «ايمانويل كانت» الذى أشرب روح باكون وليبنتز واتخذ المعرفة كلها ميدانا له . وكان كانت فى أواخر العقد الرابع من عمره ، ولم يشتهر بعد لأن مؤلفاته الفلسفية الكبرى لم تكن قد ظهرت ، الا أنه كان عالما سواء فى ميدان التجريد الخاص بالرياضيات وما وراء الطبيعة ، أو فى ميدان المعلومات المحسوسة فى السياسة وعلم الانسان والأدب. وتتبع باهتمام وتطلع كل فروع العلم من الطبيعة والفلك العلمين المستقرين اللذين أسهم فيهما بنظرية فى السديم الى التاريخ الطبيعى الذى

(١) جاء ذكر ذلك فى :

Preserved Smith, A. History of Modern Culture (New York, 1930), II, 404.

كانت قد بدأت تتميز فى نطاقه كل من علوم الحياة وطبقات الأرض والكيميا . وكان كانت معلما ملهما قال عنه أحد زملاء هردر انه « كان يسكب نفسه فوق الزمان والمكان بنظرياته الجريئة » ويوضح عقيدته فى وحدة المعرفة بذكر اقتباس من الشاعر پوب « ومقاله فى الانسان » كأنه نيوتن أو لوك فى صورة شعرية . وقد أصر كانت على أن يحضر هردر الفقير الذكى محاضراته دون أن يدفع شيئا ، واستقى منه هردر ايمانه بقوانين الطبيعة التى لا يعتريها التغير ، وعرف عن لينيوس وبوفون من رواد علوم الأحياء ، كما عرف كتب الرحلات التى كانت مصدرا ومادة لعلم الانثربولوجيا ، ودل ناشر مؤلفات كانت على كرمه وأتاح للطالب النشيط فرصة التنقل بين أحدث المطبوعات المعروضة فى متجره ، فالتقى فيها بالتأملات الجريئة لفولتير وروسو وديدرو ودالمبر .

وكان هردر يدرس ليصبح قسا ، ولكن ذلك لم يؤثر مطلقا فى قراءاته، لأن أساتذته فى علوم اللاهوت كانوا يفسرون المبدأ البروتستنتى فى حرية بحث أمور العقيدة تفسيرا متحررا ، فشجعوه على تعلم العبرية واليونانية كأساسين لدراسة الكتب المقدسة ، وأطلعوه على مؤلفات العلماء المحدثين ، ومنهم العالم ج . د . ميخائيلس من جوتنجن ، وهم الذين كانوا يفسرون التوراة على ضوء عادات الشرق وجغرافيته وقد ذكر هردر فى المقدمة التى كتبها لأعظم كتبه فى حنين زائد « تلك السنين الأولى التى كانت فيها مروج العلم لا تزال تمتد أمامى وهى فى روعة حلة الصباح »[1] .

وكان من المحتمل أن تمحو حركة الاستنارة تدريجا أقوى ما طبعته القرية فى نفس هردر فى أثناء طفولته كالقصص الشعبى عن الخوارق ،

(١) مقدمة «أفكار فى فلسفة تاريخ الانسانية»، فى مجموعة مؤلفات هردر طبعة سوفان ١٣ : ٧ .

وقراءته بصوت عال فى أثناء اجتماعات الأسرة للعبادة لسفر الخروج الذى سطعت فيه الخوارق بأشعتها على الحياة الساذجة لشيوخ اسرائيل ، والابتهاج بالطبيعة التى وجد فيها ملاذا من الدراسة الممقوتة . كان من المحتمل آن تأتى الاستنارة على ذلك كله لو أنه لم يقابل فى كونجزبرج أديبا وهو يوهان همان ، وكان مفكرا غير مستقر أو مدرب على نقيض كانت يحاول جاهدا أن يبين فى كتاباته الغامضة التى ينقصها التنظيم الآراء التى رجع بها من روسيا وانجلترا ، وكان قد استمع فى ريجا برغبة قوية فى الاطلاع ودون تحيز الى الأغانى الشعبية لأهل لاتفيا ، ووجد فى كلماتها شعرا أصيلا وتأليفا غير مكتوب لا يعرف مؤلفه لشعب لم يكن لديه بعد أدب نثرى .. ووازن بين خبرته هذه ووصف الشعوب البدائية الأخرى القديمة والحديثة ، ووصل الى أن الشعر لا النثر كان هو حتما اللغة الأولى للجنس البشرى ، وكان انطلاقا تلقائيا ايقاعيا للعاطفة والخيال قبل يقظة العقل .

وقد قلبت هذه النتيجة التى وصل اليها همان التاريخ الأدبى كما كان يفهمه غالبية الألمان ، اذ كانوا يتبعون الفرنسيين فى تصور الشعر ، أو ما هو حقيق بأن يسمى شعرا ، على أنه قد ظهر مؤخرا حين أصبح فى استطاعة العقل أن يرشد الذوق فى ميدان الأساليب والأوزان التى أقرتها سلسلة طويلة من أساطين النقاد منذ أرسطو الى بوالو . الا أن « همان » لقى فى انجلترا تأييدا كبيرا لشكه فى ذلك المعيار المطلق للشعر الجيد ، ذلك لأن الانجليز كانوا قد بدأوا اذ ذاك يوقرون شكسبير الذى ألف المسرحيات والمامه باللاتينية قليل وباليونانية أقل ، وجعل شكلها مستمدا من المسرح الشعبى فى العصور الوسطى . وقد قرأ همان اعتراض الشاعر ادوارد يونج على تلمس الشاعر پوب الاعذار لشكسبير ونقص علمه :

قد تفخر ربة الشعر الشريفة التى توحى الى پوب بكريم نسبها المنحدر من هوميروس وڤرجيل وهوراس ، الا أن المؤلف المبتكر أكرم منها نسبا .

وكان شكسبير فى المحدثين نجما كبيرا كما كان پندار فى القدامى وهو الذى افتخر بجهله وسمى نفسه بالنسر لتحليقه فوق العلم . ان العبقرية هى الصانع المجيد وما العلم الا آلة . وثمة شىء فى الشعر يفوق التفكير الهادىء وفيه من الأسرار ما لا يمكن شرحه ويتحتم الاعجاب به [١] .

وظن همان أنه قد اهتدى الى معرفة مصدر هذه الأسرار وهو وحى الله ، وكان فى أثناء فترة من اليأس العميق والفقر والوحدة فى لندن قد بحث عن العزاء فى التوراة ، ومر من قراءته لها بتجربة صوفية عن علاقة الله بالناس والعالم . ان الله لم ينسحب — كما قال ڤولتير — الى سمائه ليرقب منها سير الآلة الدقيقة التى خلقها ، بل ظل دواما فى الطبيعة والطبيعة الانسانية ، وأدرك همان أنه لا ينفرد دون غيره بتصوره لروح حالة فى كل شىء فى الكون اذ وصل كثيرون الى هذا التصور الذى وصل اليه الأفلاطونيون المحدثون ، والايطالى چوردانو برونو فى القرن السادس عشر الذى ثمل بضخامة الكون مما رآه كوپرنيكوس حديثا ، كما وصل اليه مؤخرا لوردشا فتسبرى الانجليزى فى أنشودته المليئة بالنشوة والموجهة الى الطبيعة . ولقد ميز الله بعض الناس فسرت فيهم هذه الروح الكونية بقوة ، وأولئك هم العباقرة عند شافتسبرى وهمان . ورأى « همان » فى وصف سقراط للروح التى أرشدته فى قراراته الحاسمة محاولة لوصف هذه التجربة الداخلية . ألم يسجل أفلاطون أن سقراط قال أيضا ان كل الشعراء المجيدين « لا يؤلفون قصائدهم الرائعة بوساطة الصناعة والفن ، وانما لأنهم يتلقون الوحى وبهم

---

(١) Edward Young, Conjectures on Original Composition (London, 7591).

مس » ؟ ان الروح الكونية تسرى حيث شاءت وهى قد تحرك لقول الشعر من شاءت من الغلاظ الجهلة كما هو الحال فى المؤلفين المجهولين لتلك الأغانى اللاتقية .

وقد جمع حب التوراة كشعر موحى به بين همان وهردر ، انغمر هردر منذ طفولته فى الأغانى الشعبية ، ولم يكن فى حاجة الى اقناعه بجودة الأدب المنقول بطريق الرواية الشفوية عند الشعوب التى لم تنل حظا من التثقيف . الا أنه كان يعجز عن بلوغ غايته دون الالتجاء الى الاشكال الأدبية الكلاسيكية مما كشف عنه همان حين ألقى به فى غمار مسرحية هاملت ، ليعلمه اللغة الانجليزية ، فالتوراة وشكسبير مصدر وحى يوسع فكرة الانسان عن الوحى نفسه .

ولما أتم هردر دراسته بكونجزبرج أوصى همان بصديقه ورشحه لمنصب قس فى ريجا حتى يتمكن هردر من أن يرى لنفسه الممكنات الفنية لشعب غير متعلم . وظل هردر فى ريجا أربع سنوات تقريبا من ١٧٦٥ الى ١٧٦٩ . ولما رحل الى باريس وهو فى الخامسة والعشرين من سنه كان قد قرأ مثلما قرأ كولريدج ، كما ونوعا ، ولكن ما هو أهم من ذلك هو أن تأملاته وملاحظاته بلغت من الجرأة والوضوح حدا لم يصل اليه كولريدج قط . واستطاع — بقدرته النادرة على ادراك النزعات المتشابهة فى الميادين المختلفة للفكر والعمل ، وذلك التوافق اللاشعورى الذى تلتقى عنده المسالك المختلفة ويخلع على العصر طرازه أو روحه — استطاع هردر بهذا كله أن يقامر باستخدام القياس ؛ وهو أداة خطرة اذا كانت فى أيد أقل مهارة ، وكشف فى ميادين اهتمامه الرئيسية كالأدب واللغات والفلسفة والعلوم عن مبادىء مشتركة تقوم عليها خلاصة للفكر والعمل وهى التاريخ كما تصوره .

واستمدت بعض هذه المبادىء من حقيقة واحدة ؛ وهى أن الشعر — وان يكن مظهرا انسانيا ساميا حتى انه يوصف بأنه إلهى — يمكن انتاجه دون جهد ارادى يرشده العقل والذوق ، وهو قد ظهر منذ أقدم الأزمنة بين الشعوب والأفراد التى لم تنل حظا من التعليم ، ولقد تجمعت أخيرا الأدلة على هذه الحقيقة التى حيرت مؤرخى عصر الاستنارة من مؤلفات الرحالة بين الشعوب غير المتحضرة كما تجمعت بصورة أشد تأثيرا من احيـاء الماضى المهمل لأوربا الشمالية . فترجم « ماليه » بعض أشـعار الأساطير الدينية الشمالية المعروفة بالادا (Edda) الى الفرنسية فى مؤلفه « آثار من أساطير وشعر السكندناويين القدماء » (١٧٥٦) . ونشر «جيمس مكفرسون» ١٧٦٢ « أجزاء من الأشعار القديمـة المجموعة فى جبال اسكتلندا » ونسبها الى الشاعر الكلتى أوسيان ، وحوى مؤلف الأسقف پرسى « بقايا الشعر الانجليزى القديم » (١٧٦٥) أغانى شعبية انجليزية واسكتلندية لها وقار شعر المأساة ، وظهر أن البرابرة غزاة روما قد ابتكروا شعرا مؤثرا وأسـاطير دينية عن الڤالهالا موطن الآلهة استغلت كأساطير الأوليمب فى تغذية الشعر الملحمى . ولم تنته أعمال الشعوب البدائية عند هذا الحد ، اذ تبين أن هوميروس كان بدائيـا .

ووضع چيمس بلاكويل (١٧٣٥) مؤلفا عنوانه « بحث فى حياة هوميروس وشعره » . وجعل موضوعه أن القرن الثامن عشر أساء فهم هوميروس لجهله بالمبدأ الذى يقرر أن كل أنواع الكتابة وخاصة الشعر تتوقف على عادات العصر الذى أنتجت فيه[1] وقال بلاكويل ان هذا الجهل يفسر اخفاق أحسن الكتاب المجيدين ومنهم ڤولتير فى انتاج ملحمة مقبولة . وعاش الاغريق فى زمن هوميروس مهددين بالقرصنة وقطع الطريق ولم يكن تفكيرهم علميا

(١) J. Blackwell, An Enquiry into the Life & Writings of Homer (London), 1735), P.65.

فكان من الطبيعى أن يجدوا أن الأمور المدهشة العجيبة هى عصب التوتر الملحمى ، ولكن تقليدها فى عصر العلم وفى الدول التى انتشر فى ربوعها الأمن زيف يبعث على السخرية . ان العادات البسيطة غير المتكلفة للعهود التى كانت فيها « ثنايا صدر الانسان وخباياه مفتوحة للعيان » حيرت المحدثين المتصنعين . ولما كان المحدثون يعيشون فى داخل المنازل فانهم اعتبروا التشبيهات المأخوذة من الطبيعة تشبيهات وضيعة ؛ ذلك كان موقف المحدثين كقراء .. أما موقفهم ككتاب يتبعون التقاليد الملحمية فهم قد أطاعوا تعليمات بوالو التى تقضى « بتجريد حوادث الحياة العادية من ثيابها البسيطة ونسبتها الى قوة أعلى احتفاظا بهيبتها ، ومنح الحياة للجماد ، والباسه ثوب الأشخاص وصفاتهم المناسبة » (١) . والتقليد غير الأمين لم يخدع أحدا ؛ لأن « العادات الخاصة بالعصر الذى نعيش فيه وكذلك عادات المدينة والأسرة كلها تلتصق بنا التصاقا شديدا وتنم عنا فى كل حركة تصدر منا » (٢) . وان صوت هوميروس الفطرى أثبت صحة الرواية الاغريقية التى تقول بأنه كان منشدا متجولا فقيرا شأنه شأن أهل جبال اسكتلندا الذين سمعهم بلاكول ، وهو اسكتلندى من ابردين ، ينشدون من الذاكرة ، ومن المحتمل أن هوميروس ألف أشعاره شفاها فى أوقات مضطربة حركت الناس لاستخدام لغة حماسية تشبيهية .

وفى عام ١٧٦٥ ، وهو العام الذى وصل فيه هردر الى مدينة ريجا ، شارك روبرت وود فى هذا الجهد المبذول لمعاونة القارىء فى القرن الثامن عشر على تخيل الظروف التى ألفت فيها القصائد الهوميروسية ، ووصف فى مؤلفه « مقال عن عبقرية هوميروس الأصيلة ومؤلفاته » التأثير الذى تحدثه قراءة

(١) ذكره بلاكويل فى المصدر السابق ص ٤٥ .
(٢) المصدر نفسه ص ٣٢ .

هذه الأشعار فى مكان طروادة الأسطورى ، ويبدو أنه لم يكن لمثل هذه التجربة سابقة منذ عهد الخطيب اسخينس فى القرن الرابع ق . م . وقد نظر وود بعينى هوميروس الى الغرب عبر طول البحر المتوسط ، وصور لنفسه أخطار السفر فى تلك الأزمان السحيقة ، وأدرك أن ما كان بالنسبة لهوميروس شيئا مثيرا للخيال ، فقد صفته هذه حين « جعل مؤلف الأنيادة (ڤرجيل) جزيرة سرس واقعــة فى جواره ، وبلاد اللاستريجون واقعة فى حــدائق أشراف روما » [١] . وذكر معاصريه بأنهم لا يبعدون كثيرا عن العهود التى كان كبار الساسة فيها من الأميين ، ولم يجد صعوبة فى افتراضه أن هوميروس قد عاش فى عصر لم يعرف فيه فن الكتابة ؛ ويجب على من تؤذيهم الصور الساذجة البدائية ، وتبدو لهم « شجاعة اخيلاوس وحشية قاسية ، وحكمة عوليس مكراً دنيئا » [٢] أن يتأملوا الشبه بين عادات الاغريق الآسيويين فى عهد البطولة وعادات البدو الذين عاشوا فى تلك البلاد ذاتها منذ عهد سحيق . وهذا التشبيه أقل دقة من التشبيه الذى قال به ريشـــارد هورد ، وهو لم يكن من الرحـــالة ، فى مؤلفه « رســـائل فى الفروسية وقصص الحب » (١٧٦٢) حيث شبه تلك العادات الاغريقية بعـــادات القوط فى العصور الوسطى الأولى . وبالرغم من عدم دقة ذلك التشبيه فان هردر انجذب اليه لأنه يتفق مع نظرية ميخائيلز فى سفر أيوب ؛ وهى أن هذا السفر كتبه الرحل العرب . وهكذا تضافر ســفر أيوب وشعر هوميروس وقصائد الادا على الوقوف الى جانب الشعوب البدائية .

وان تفوق لغة هذه الشعوب فى أغراض الشعر ، وغنـــاها بالمترادفات

(١) Robert Wood, An Essay on the Original Genius and Writings of Homer (London, 1765), p. 141.

(٢) المصدر السابق ص ١٧٩ ــ ١٨٠ .

والمصطلحات ومرونتها الكبيرة فى الانشاء ، استثناء خطير للمبدأ القائل بأن الأشياء كافة يمكن أن تتحسن بوساطة العقل والذوق الرفيع . وهذه هى الحال أيضا فى اللغة الفرنسية التى اشتدت قبضة العقل والذوق عليها لمدة تزيد على مائة عام . وقد أقامت الأرستقراطية الفرنسية لغة كلامها الجارية وميولهـا كمعيار للعرف الحسن باستبعاد الألفاظ والتعبيرات الشعبية والاقليمية وما تقادم عليه العهد منها ، واعتبر أصحاب العقول العلمية أن اللغة وسيلة لتبادل الأفكار وحدها ، فعملوا جاهدين على أن يجعلوا لكل كلمة معنى واحدا لا يتغير ، وعلى وضع قواعد للنحو لا تقبل الاستثناء ، ولم يرضوا عن المترادفات وقالوا انها زيادات لا حاجة اليها أو عن التعبيرات المصطلح عليها وقالوا انها استثناءات ومدعاة الى الخلط . وهكذا عمل العقل الصافى والذوق الارستقراطى معا فى احترام متبـادل على تقليل المفردات الفنية للقرن السادس عشر بمقدار الثلثين تقريبا واستمرت اللغة فى فقرها . وكان هذا معناه أن يصاب الشعر بكارثة [1] . بل ان هذه الكارثة كانت من العظم بقـدر ما توهم الفرنسيون عن غير وعى أنهم قاموا بتحسين لغتهم لاستعمالها فى كل الأغراض . وخطبة الافتتاح فى « دائرة المعـارف » التى عرض فيها الفلاسفة بزهو أنواع التقدم الحديث فى المعرفة والفنون أحصى من بينها أن ڤولتير « لابد أن يرتقى وحده مكانة مرموقة فى عداد القلة من كبار الشعراء ، وله فى الوقت ذاته ملكة قوية لم تكن لشاعر من قبل حتى بقدر ضئيل ، تلك هى ملكة كتابة النثر » [2] . أما اليـوم فان ڤولتير لم يعد يحسب الا فى عداد كبار الناثرين .

---

(١) انظر :

Emery Neff, A Revolution in European Poetry (New York, 1940) Chap. I.

(٢) مجموعة مؤلفات دالمبر Oeuvres d'Alembert (Paris, 1805), I, 292

وكانت انتصارات النثر الفرنسى كبيرة ؛ اذ أصبحت اللغة الفرنسية لغة السياسة الدولية ولغة المجتمعات الراقية ، وأخذت تحل محل اللاتينيـة فى المجال الدولى للبحث والعلوم ، وانتشرت الرغبة فى اصلاح اللغات الأخرى وفقا للنموذج الفرنسى حتى ان كاتبا مثل جوناثان سويفت اقترح خطـة لتحسين اللغة الانجليزية « وتثبيتها » حتى لا تضطر الأجيال القادمـة الى مكافحة التعبيرات التى بطل استعمالها [1] . وأصبح للفرنسية سحر لا يقاوم فى ألمانيا التى خربتها الفوضى الاقطاعية والحروب الدينية ، حتى قل الشعر الجيد منذ انقراض أسرة هوهنشتاوفن فى مطلع القرن الثالث عشر وانعدم النثر الجيد تقريبا منذ لوثر . وألف ليبنتز أعظم كتبه بالفرنسية ودعا فردريك الأكبر ڤولتير الى پوتسدام ليصحح له الشعر الفرنسى الذى كان يؤلفه . ومن الألمان القلائل الذين غالبا ما كانوا ينتمون الى الطبقة الوسطى وأملوا خيرا فى لغتهم القومية الأستاذ جوتشد من أهالى ليبزج ، وكان « دكتاتورا » فى ميدان الأدب فاقت سطوته ما كان لمعاصره الدكتور صموئيل جونسون ، وحاول أن ينقذهـا باستبعاد الألفاظ المركبـة (وهى نادرة فى الفرنسية) والمصطلحات الألمانية .

وفى الوقت الذى تعرض فيه الشعر فى ألمانيا لتهديد خطر وجد هردر تشجيعا فى انجلترا حيث اشتد الخطر على الشعر [2] . ولكن بدرجة أقل مما كان عليه الحال فى وطن هردر . وبالرغم من أن الجمعية البريطانية الملكيـة سبقت الأكاديميات الفرنسية من حيث الأغراض العلمية فان روح الفردية

(١) انظر :
Jonathan Swift, Proposal for Correcting, Improving, and Ascertaining the English Tongue.

(٢) مما يجدر ملاحظته فى هـذا الشأن المعارضة التى حدثت فيما بعد لصياغة وردزورث الشعرية .

والكبرياء القومية قضت بالاخفـاق على المحاولات لتأسيس أكاديمية فى انجلترا على النظام الفرنسى بغية الاشراف على اللغة والأدب ، حتى أن دريدن الذى أصبح بتقليده الحكيم للميزات الفرنسية يعد أب النثر الانجليزى الحديث لاحظ بالنسبة للشعر :

أن لغتهم قد ضعفت لفرط تصفيتهـا
وهى كالذهب الخالص يلين كلما لمس

وقد وجد بلاكويل بعد ذلك بجيل من الزمان أن هذا الضعف انما يرجع الى أسباب سياسية فقال :

ان بلاطا مطلق السلطان لابد أن يؤثر تأثيرا سيئا فى تنوع الصفات فى الأمة وكذلك فى مدى انتشار لهجاتها . فكل الناس يلتزمون السير على نهج البلاط ، ولعلنا نرى فى جزيرتنا ووطننا المثل الحسن للصلة بين الحرية والعلم، فنحن نجد لغتنا قوية شريفة ، واسـعة المدى قابلة للتنوع فى الأسـلوب والميزات أكثر من أية لغة حديثة [1] .

وبالرغم من ذلك فقد تطلب دفاعه عن يونانية هوميروس شجاعة كبيرة فى زمن لقيت فيه ترجمة پوب رواجا واسعا . « أليس القول بعدم صلاحية اللغة المصقولة للشاعر الفحل أشبه بالخيانة فى بلاط الآله ابولو ؟ ان ما نسميه صقلا ما هو الا تقليل للغة ، وابطال استعمال كثير من الكلمـات وحبس الانسان فى أضيق مكان وعدم السماح له الا بمجموعة واحدة من العبارات ، وحرمانه من كثير من المصطلحات ذات المعنى والتعبيرات القوية الجميلة »[2] . وبعد ذلك بثلاثين سـنة وضع روبرت وود المسألة فى سياقها التاريخى

(١) Blackwell, An Enquiry, pp. 60-61.

(٢) المصدر السابق ص ٥٨ ــ ٥٩ .

فقال : « اذا فحصنا عن نشأة اللغات وتقدمها بغية تطبيقها واستخدامها وجدنا أن مراحل تقدم اللغة ليست كلها سواسية من حيث صلاحيتها لظهور شتى أنواع النشاط العبقرى ، وأن المشتغل بالفنون العملية والفيلسوف يجدان بغيتهما فى عدة تحسينات تعترض مقاصد الشاعر أكثر مما تسهلها » (١) .

وبدأت دراسة اللغات فى فتح النوافذ على التاريخ ، وهى الدراسة التى جذبت اليها هردر لحاجته المهنية الى اليونانية والعبرية لتفسير التوراة وكذلك لاهتمامه بالشعوب البدائية . وكان الانسانيون الايطاليون مدفوعين بحبهم لجمال الأسلوب الى المقابلة بين اللاتينية القديمة واللاتينية الوسطى فكانوا أول من لاحظ أن اللغات تمر بتغيرات تاريخية . وفى عام ١٤٤٠ أثبت لورنزو ﭬالا فائدة اللغة فى اختبار صحة الوثائق وتاريخها ، وذلك باثباته أن الوثيقة المعروفة بمنحة قسطنطين حوت ألفاظا وتراكيب لم تدخل فى اللاتينية الا بعد عهد قسطنطين بعدة قرون ، وقد استغل ﭬولتير هذا الكشف فى أغراضه المعادية لرجال الدين ،وبعد ﭬالا بقرنين وضحت قيمة اللغة كمستودع لما يسمى الآن بما قبل التاريخ أى التاريخ قبل اختراع الكتابة والرياضيات . وقد أعجب هردر أيما اعجاب بما هيأته دراسة اللغات لليبنتز وبلاكويل وود وميخائيلز من نظرات خاطفة فى الأصول الأولى التى أتى عليها النسيان وقد لاحظ بلاكويل « أن معظم الأجزاء البدائية فى اللغات المعروفة بأصالتها ألفاظ خشنة لا تنصرف ، وهى ألفاظ لا شخصية تتألف من مقطع واحد وتعبر عادة عن أقوى الأهواء وأغرب الأشياء التى توجد فى الحياة الانفرادية المتوحشة ، فالكلمتان الشائعتان فى العبرية للدلالة على اللحم والخبز وهما Tereph, Lechem تدل أولاهما على القتال ، والثانية على السلب والنهب

(١) Wood, Essay on ...... Homer, p. 279.

وكلمة Gur معناها يغترب ويسافر ، وألحق بها معنى يخاف ويرهب ،وكلمة Ger أو Gur بمعنى غريب أو شبل . والكلمة القديمة اليونانيــة للدلالة على الثروة هى كلمة Leia . ومعناها أصلا النهب وفىء الحرب والقرصنة ، والألفاظ الكثيرة الدالة على الحسن والأحسن أصلهــا مشتق من القــوة والعنف . ومما يعطينا فكرة عن سوء أسلوب الحياة أن نجد الكلمة العبرية Karab ومعناها يقترب ، تعنى فى الوقت ذاته يقاتل ويحارب ، ومن هنا كانت Kerab بمعنى معركة [١] .

وكشف ليبنتز فى مؤلفه « مقالات جديدة » (١٧٦٥) الذى نشر بعــد وفاته عن بقايا سيكولوجية بدائية مماثلة فى اللغة الألمانية الحديثة ، وأشار باستخدام اللغات التيوتونية كأدوات للبحث فى الأصول الأوربية الشمالية وقال : « ان أسماء الأنهار ترجع الى أقــدم العصور المعروفة وهى أحسن الكلمات الدالة على اللغات القديمة والسكان القدماء ... ولما كانت اللغات بصفة عامة أقدم آثار الشعوب قبل قيام التدوين والفنون فهى خير ما يدل على العلاقة بين أجناسها وهجراتها » [٢] .

وظلت للغة باعتبارها مفتاحا لنفسية الشعوب قيمة عظيمة حتى فى الأزمنة الأخيرة ، فقال وود « ليس لدينا ما يهدينا الى نشأة المعرفة وتقدمها عنــد اليونان خــيرا من الاشتقاق اللغوى ؛ فهو فى هذا المجال بمثــابة التاريخ اليونانى » [٣] . وشعر اليهود حوى من أسماء النبات ما يبعث على الدهشة . وأبان لميخائيلز أن واضعيه من الرعاة والفلاحين وألقى الأسر البابلى بذور

(١) انظر : Blackwell, An Enquiry ص ٤٠ والهامش .

(٢) مجموعة المؤلفات الفلسفية اللاتينية والفرنسية لليبنتز (امستردام وليبزج ١٧٦٥) ص ٢٤٢ .

(٣) Wood, Essay on ...... Homer, pp. 241-242.

الانحطاط فى الشعر لانتزاعه الأدب اليهودى من موطنه ، ووازن ميخائيلز بين حزقيال — الذى كتب بعد الأسر — والشعراء الذين أعقبوا عصر أغسطس قيصر ، فوجد « بعض الشبه فى الأسلوب ، وشيئا ما يدل على شيخوخة الشعر » [1] . ولاحظ بلاكويل وود فى اللغة اليونانية مراحل مماثلة تشمل الطفولة والنضوج والشيخوخة . وقال بلاكويل : « ان اللغة اليونانية حين وصلت الى التعبير عن خير ما فى المشاعر الانسانية وأعظمها بطولة واحتفظت بقدر كاف من صبغتها الاستعارية الأولى المدهشة ، كان هوميروس قد بدأ فى تأليفه [2] ؛ أما العصر الذهبى للفن اليونانى فقد جاء بعد ذلك فى عصر پركليس كما قال يوهان ڤنكلمان فى مؤلفه « تاريخ الفن فى العصر القديم » (١٧٦٤) .

ولما كانت اللغة اليونانية فى عصر بركليس — وهو احدى ذرى التاريخ الثقافى التى تخيرها ڤولتير — قد فقدت شيئا من « نبل بساطتها » التى امتدحها وود فى المرحلة الهوميرية ، فان هردر خلص من ذلك الى أن أى عصر لا يمكن أن يجمع وحده ودون غيره كافة الميزات ، وأن كل عصر تبعا لذلك يستوجب الدراسة لما حواه من المميزات الخاصة به .

وقد وجد فى كتاب : « الشعر المقدس عند العبرانيين (١٧٥٣) لمؤلفه روبرت لوث عبارة تحمل على الاعجاب عن واجب المؤرخ فى أن يستمع لكل عصر بعطف ولما يقوله هو عن نفسه « يجب علينا أن نعمل كما يعمل علماء الفلك فى ذلك الفرع من علمهم الذى يطلق عليه الفلك المقارن ، فهم يتصورون أنهم يمرون فى الكون كله ، وأنهم يمسحونه ويتنقلون من كوكب

(١) Robert Lowth, Lectures on the Sacred Poetry of the Hebrews ترجمة G. Gregory (London, 1787), II, 89. • والهامش لميخائيليز

(٢) Blackwell, An Enquiry, p. 45.

الى آخر ، وأنهم أصبحوا من سكان كل منها وقتـا ما » (١) . وذلك حتى يكونوا فكرة أقرب الى الكمال عن المجموعة العامة وأجزائها المختلفة .

أما أن المثل المضروب قد أخذ من علم الفلك فهذا أمر له دلالته البالغة ؛ ذلك أن اتخاذ العلم نموذجا للتفكير عند الفلاسفة والطريقـة المقارنة التى كان ڤولتير قد استخدمها ضد ما ادعته المسيحية من كونهـا فذة العقيدة والطقوس ، حتمت اتخاذ مواقف العطف والتخيل ، وهو موقف كان يستحيل على عقل ڤولتير تصوره ، ولكنه متفق مع مبادىء النسبية والتعدد التى طبعتها دراسة الأدب واللغة والفنون فى نفس هردر .

وقد لقى هردر فى طليعة الفلاسفة العقليين وعلى رأسهم ليبنتز وهيوم من أقر بحدود للعقل المجرد . فليبنتز الذى شارك نيوطن فى كشفه عن الحساب الدائرى الذى أتاح حساب مدار الأجرام السماوية كان ، على عكس نيوتن ، يهتم بالرياضيات البحتة أكثر من الرياضيات التطبيقية .

وفى عام ١٧٦٥ ، أى بعد وفاته بخمسين سنة تقريبا نشرت من مخطوط له « مقالات جديدة عن العقل الانسانى » وهى رد على مؤلف لوك المشابه لها فى عنوانه ، وقد حوت هذه المقالات استنتاجات تبعث على الدهشة من فكرة المتوالية الدائرية ، ولم يأخذ ليبنتز بتشبيه لوك الشهير لعقل الانسان عند ولادته باللوح الخالى من النقش الذى تسطر عليه الاحساسات الآتية من العالم الخارجى محتوياته بأسرها . وقال ليبنتز ان اللوح الخالى الذى لا يجرى فيه عرق أو شذوذ يميزه عن غيره لا وجود له . واللوح الخالى من النقش تماما هو أحد « مجردات العقل » (٢) . التى لا ضرر منها ما دام قد

(١) Lowth, Lectures, I, 113.

(٢) ليبنتز : المقـالات الجديدة ص ١٢ (فى مجموعة المؤلفات الفلسفية واللاتينية طبعة Raspe امستردام وليبزج ١٧٦٥) .

عرف أنها تجريدات ، ولكنها اذا أخذت حرفيا فانها تطمس الحقيقة التى مفادها أنه ليس فى الوجود عقل انسانى يشبه غيره شبها تاما ، وأن الفروق بين الأفراد يجب تبعا لذلك أن يحسب حسابها منذ عهد الطفولة . ثم ان لوك أخطأ أيضا فى اعتباره أن محتويات العقل لا تشمل الا الاحساسات التى يشعر بها العقل لأن التأمل فى الحساب الدائرى أظهر أن عقولنا تسجل كثيرا مما لا نشعر به ، فنحن نسمع صوت كل موجة من أمواج البحر وان كنا فى الواقع لا نشعر الا بهديرها العام ، ونصم الآذان بحكم العادة عن هدير مسقط المياه أو طاحون الهواء على قربه ، وأن سيلا لا ينقطع من « المدركات الدقيقة اللاشعورية » [1] . تملأ العقل بالذكريات اللاشعورية ، وظهور هذه الذكريات فى الأحلام دليل على أن اليقظة ليست مطلقة والاستمرار الوثيق المتلاحق من المميزات الأخرى للأرقام الدائرية ، وهنا نجد مرة أخرى أن انشاء رياضيا بحتا يثبت أنه صالح لعالم الواقع .

« يقرر قانون الاستمرار أن الطبيعة لا تترك أى فراغ فى النظام الذى تتبعه . فاذا بدأنا بأنفسنا وسرنا منها الى أحط الموجودات فاننا نجد أن بينها نزولا مسلسلا يتكون من درجات بسيطة وسلسلة متصلة من الأشياء تختلف قليلا بعضها عن بعض فى كل انتقال ، فهناك أسماك لها أجنحة ليس الهواء بغريب عنها ، وطيور تعيش فى الماء دمها هو دم الأسماك البارد ، وحيوانات تقرب جدا من الطير حتى انها تتوسط بينها وبين الوحوش ، والحيوانات البرمائية تتوسط كذلك بين المخلوقات البحرية والهوائية . ولبعض الوحوش من المعرفة والعقل مثل ما لبعض الحيوانات التى تسمى بالناس ، والتقارب بين الحيوان والنبات من الشبه بحيث أنك لو أخذت من أحدها أشدها نقصا ومن الآخر أكثرها كمالا ، صعب ادراك فارق كبير بينها . وهكذا نجد أنى

(١) المصدر السابق ص ١٠ ـ ١١ .

اتجهنا أن الأنواع يرتبط بعضها ببعض بدرجات لا تكاد تدرك حتى نصل الى أحط أجزاء المادة وأقلها أجهزة » [١] .

وقد رأى هردر لتوه أن ابراز أهمية الفروق الفردية تؤيد النسبية التاريخية وأن الذكريات اللاشعورية تفسر الابداع المرتجل . وساعد مبدأ الاستمرار كذلك على ادماج الجزئيات التي ترك ڤولتير التاريخ الماضى عند حدها وذلك دون حاجة الى التخلى عن اعتقاده فى وقوع الانسان وأعماله وقوعا تاما فى نطاق قوانين الطبيعة . الا أن قوانين الطبيعة ، على ما قال به ڤولتير هى قوانين علم الطبيعة الميكانيكية ، أما ليبنتز فانه قد بيّن وجود الاستمرار فى سلم الأحياء كله ، وبذلك أوحى الى هردر أن المجتمع الانسانى يحسن فهمه اذا قيس بالكائن الحى . صحيح أن ليبنتز لم يصل الى حد تصوير الطبيعة فى صورة النمو ، وبالرغم من أن نجاح النباتيين فى تنويع ثمار الفاكهة بطرق صناعية قد أثار فى نفسه الشك فى ثبات الأنواع حتى قال ان الأسد والنمر والفهد كلها ذرارى متفرعة من نوع منقرض من أنواع القطط ، فانه لم يبحث فكرة التطور ؛ لأن فكرته عن الخالق « الها مفارقا للعالم وغير فاعل »[٢] حالت دون اعتباره الخليقة عملية مستمرة ولا تزال تستمر ، وقد أتاحت فكرة همان عن حلول الله الدائم فى كل شىء ، لهردر أن يتخطى هذا الحاجز والتهب عقله لقول ليبنتز : « انى أحبذ كثيرا جدا البحث عن أوجه الشبه بين الأشياء ، وسيمدنا النبات والحشرات والتشريح المقارن بكثير منها وخاصة اذا أحسن استخدام المجهر [٣] وبعد وفاة ليبنتز ساعد لينيوس على تقدم علم النبات وبوفون على تقدم علوم الحياة الى حد

(١) المصدر السابق ص ٢٦٧ و ٢٦٥ .
(٢) العبارة هى لهردر فى كتاب الله : بعض الأحاديث .
(٣) ليبنتز : المصدر المذكور ص ٤٤١ .

جعل هردر يثق بامكان وضع الانسان فى مكانه من نسق الطبيعة دون أن يصبح بذلك آلة .

وقد حذر ليبنتز أصحاب العقول الرياضية من مخـاطر التجريدات . أما هيوم فانه سار على التقليد الانجليزى فى التفكير الاستنباطى ، ووجد حدودا أخرى للعقل المجرد فى أثناء بحثه الحقائق التاريخية بحثا بريئا . ولم يجد خلافا أكبر من الخلاف فى الدين فيما يتعلق بالاجابة عن المسألة الفلسفية الخاصة بأساس العقل والمسألة التاريخية الخاصة بأساس الطبيعة الانسانية فى مجموعها مما بحثه فى مؤلفه التاريخ الطبيعى للدين (١٧٥٧) . وقد سهل على هيوم كفيلسوف عقلى أن يعلن أنه « تبعا للتقدم الطبيعى فى الفكر الانسانى فان الجمهرة الجاهلة لابد لها أولا أن تتبع الرأى المألوف فى وجود القوى الخارقة للطبيعة قبل أن تتمكن من توسيع تصورها حتى يشمل ذلك الكائن الكامل الذى نظم أسس الطبيعة كافة »[١] ولكن فى الوقت ذاته أدى به البحث التاريخى الى نتائج أخرى متناقضة محيرة ، اذ بدا له أنه « مهما بلغت السخافات الدينية من الوضوح فان ذلك لم يمنع من أن يعتنقها أحيانا أكبر الناس ثقافة وفهما ، ومهما قست التعاليم الدينية فان قسوتها لم تمنع من أن يتبعها أكثر الناس شهوة وانحلالا . واستخلاص أية نتيجة فى صالح أخلاق الانسان من الدقة فى عباداته وان أعتقد فيها مخلصا يعد بحق أمرا غير مأمون »[٢] . فليس فى الطبيعة الانسانية شىء خالص أو شىء واحد كله ، فالذكاء الحاد يجاور الجنون ، والمرح الزائد يحـدث أعمق الحزن ، وأهنأ الملذات يعقبها أقسى أنواع الملل والسأم »[٣] وقد ابتعد

(١) David Hume, Essays : Moral, Political and Literary (London, 1882), II, 331.

(٢) المصدر السابق ص ٣٦٢ ، ٣٥٩ .

(٣) المصدر السابق ص ٣٦١ ، ٣٦٢ .

هيوم بطبعه الهادىء وفلسفته العقلية عنهذه النظرة التىسبقتالرومانسيين المتأخرين مثل كيتس .

« ان الأمر كله معضلة ولغز وسر لا يفهم ، ونحن لحسن الحظ نهرب الى نواحى الفلسفة الهادئة بالرغم من اظلامها »[١] وقد حاول هيوم أن يكون موضوعيا الا أن نزعته العقلية السابقة أوقفته وهو على وشك الوصول الى كشف هام . فقد اتفق أنه فى أثناء اطلاعه على بقايا العبادات البدائية وقع على حقيقة غريبة سجلها سترابو وسوتيشوس وهى أن « من يقتل الكاهن القائم فى معبد اريسيا بالقرب من روما فانه يحق له أن يخلفه قانونا ، وهذا نظام فريد جدا ، لأنه مهما كانت الخزعبلات الشائعة همجية دامية بالنسبة لغير رجال الدين الا أنها كانت عادة فى صالح الطبقة المقدسة »[٢] وان هذه الملاحظة التى ظن هيوم أنه قال فيها كل ما يمكن أن يقال على هذا النحو الساخر المتأثر بروح المعارضة لرجال الدين أصبحت فيما بعد نقطة بداية للسير جيمس فريزر فى مؤلفه المعروف « الغصن الذهبى » .

ومع ذلك فان هردر استطاع البناء على أساس مثل هذه المعلومات المحيرة لأنه كان يعلم — بوصفه رجلا من رجال الدين — أن الكهنة قد يأتون من الأعمال ما يعارض مصالحهم ، وكان لخبرته بمزاجه الخاص لا يرى بأسا بقبول متناقضات الطبيعة الانسانية ، وقد أسهم هيوم — فضلا عن اهتمامه القوى بدراسة الأصول — بفكرته هذه ؛ وهى أن الأديان بما حافظت عليه من طقوس زال معناها من الذاكرة ، قد تكون شبيهة باللغات من حيث هى وثائق حفظت لنا بطريقة معجزة عصر ما قبل التاريخ ، وهى تظهر طرق التفكير الخاصة بالشعوب التى خلقتها أو اتبعتها . وكان من الطبيعى أن يرسم

(١) المصدر السابق ص ٣٦٣ .
(٢) المصدر السابق ص ٣٣٩ .

كل شعب بدائي في محاولته لفهم العالم صورة للكون على هيئة أساطير أو فلسفة مضطربة أو علم « اصطبغ بلون من ألوان اللاهوت » [١] وكان من الطبيعي كذلك أن تعكس تلك الأساطير الجو الذي نشأت فيه ، فتخيل الهنود أن الأرض محمولة على ظهر فيل ، وتخيل السكندناويون فناء الأرض على يد عمالقة الصقيع . وقد أعلن هردر في مقال له لم يطبع في « الأديان المختلفة » كتبه بعد قراءته لهيوم ١٧٦٦ أن « أشعار الادا والمعتقدات الخاصة بنشأة الكون والآلهة ، وأشعار البطولة عند قدماء الاغريق والأقوال الشائعة عن الهنود والاسبانيين والغالة والألمان والبرابرة كافة كلها أصوات تجمعت في صوت واحد هو صوت الشعر من حيث هو سجل للأزمان الغابرة » [٢] ؛ وعلى ذلك فان ما يرفضه اللاهوتيون المسيحيون باعتباره خطأ قد يكون له قيمة تاريخية كبيرة :

« اني اذا سجلت الخطأ وقمت هادئا بدحضه فان أهم شيء لا يزال باقيا وهو تفسير نشأة هذا الخطأ . ان أي رأي من الآراء لم يبلغ حدا من الحماقة امتنع معه أن يلقى تأييدا من أحد الفلاسفة ، ولم يبلغ أي دين من البلاهة حدا امتنعت معه الأمم عن اعتناقه ، وقد دارت الأخطاء دورتها ثم رجعت الى الدوران حول نفسها ولا تزال فلسفتها في حاجة الى مثل هذا التاريخ للحكمة ، ولا يزال اللاهوت الديني الطبيعي في حاجة الى تاريخ للأديان » [٣] ولم يكن هردر قد تخطى الثاني والعشرين ربيعا حين وصل الى هذه النظرة الثاقبة .

---

(١) Emil Gottfried von Herder, ed., Herders Lebensbild (Erlangen, 1846), I, 386.

(٢) المصدر السابق ص ٣٩٠ .

(٣) المصدر السابق ص ٣٧٧ .

وفكر هردر قائلا : بما أن العقل المجرد قد أدى وحده الى مغامرات فاشلة كثيرة أو لا يحسن أن ندعو الى نجدته الخيال والشعور والدافع الى العمل حتى نشرك الانسان كله بعد أن قصرت حركة الاستنارة موارده على ملكة واحدة ؟ ان الابداع الشعرى والفنى لا يأتى وحده من « أركان النفس المظلمة » [١] بل ان معظم المخترعات الانسانية ولدت كذلك من محض المصادفة لا من البحث المقصود :

« اذا نويت أن أخترع هذا الشيء المعين فان ذلك معناه فى الواقع أنى نويت أن أخترع ما تم اختراعه فعلا ؛ لأنى استطعت أن أسميه باسمه ، ولو كان لدينا تاريخ للمخترعات لدل على أننا مدينون لاله المصادفة بمعظمها وأثمنها . ان المخترع مثلا قد يكون ذهب الى نزهة دون هدف ، أو لهدف آخر غير الاختراع ويقع تحت سلطان الأحلام ، ويتعثر بشيء ويلتقطه فلا يدرك فى مبدأ الأمر ماهيته ولكنه فيما بعد يدرك أنه جوهرة فيصقلها . لقد تضافرت الأسباب على العمل معا فى نفس الوقت وعلى التعاقب وفى السر بحيث يعجز المخترع عن شرحها حتى بعد الاختراع مباشرة ، اذا كانت جذوة الابداع قد انطفأت فى نفسه وبدأت ملكة التمييز والحكم تمتزج بالشعور [٢] .

الا أن غموض مشكلة الأصول لم يضطر هردر لقبول النظرية السالفة على حركة الاستنارة وهى النظرية القائلة بأن النعم الالهية تأتى الى الانسان فى شكل كامل . وقد اتفق مع همان فى أن الله يعمل دائما ، وأكد أن « سير الطبيعة كله وتاريخ العقل الانسانى والفنون والعلوم والأعمال » ، يعارض

(١) المصدر السابق ص ١٢٦ .

(٢) المصدر السابق ص ١٢٥ ــ ١٢٦ .

افتراض أن الأشياء الثمينة كالكلام والشعر كانت « كاملة فى بدايتها ثم — كأى شىء آخر فى الطبيعة والفن — أصابها الانحلال بدلا من التحسن نتيجة استخدامها المستمر وتشكلها »[1] ولا يجب الزراية بشىء لضعة نشأته ، واذا كان الدين كما قال هيوم قد نشأ من الخوف والحاجة الملحة فأن الصلاة الحارة أنتجت الشعر .

ولا يستطيع باحث فى أقدم أيام الانسانية التى رآها هردر فى حاجة الى البحث أكثر من غيرها أن يتجنب اعلان رأيه فى سفر التكوين المعروف بأنه أقدم الوثائق التاريخية التى تعرض المعلومات الأكيدة عن الحوادث الأولى ، وألف هردر فى ريجا مقالا فسر فيه الفصول الأولى من الكتاب المقدس على أنها محاولة سابقة على العلم لشرح أصول الأشياء أشبه شىء بفكرة الكون عند الشعوب البدائية فى أنحاء العالم كافة ، وذلك لأنه أدرك أن الفلاسفة وان كانوا على حق فى اعتبارهم بعض أجزاء العهد القديم صبيانية الا أنهم لم يرقوا فى تفلسفهم الى مرتبة الاستمتاع بخيال الطفولة والانسانية وتقدير جهود الانسان الأولى لشرح أعمال الطبيعة . ولم ينشر هردر هذا المقال ولعله خاف أن يجتمع ضده أهل الشك وأهل السنة ، وانطلق فى هذا المقال بروح الشباب وقد ضاق ذرعا بالعقلية الحرفية والاخلاص فى غير محله فقال :

ما أكثر الجمود فى الأشياء : — فالشعر والأغنية الشرقية الحسية القديمة جدا تصبح بعد ميلاد المسيح بعدة قرون نصا مشذبا من نصوص العقيدة ، أما أن كل حرف منها وكل كلمة منها تؤخذ كما لو أنها كتبت فعلا للأغراض المدرسية الجافة شأنها فى ذلك شأن أى فصل من فصول

(١) المصدر السابق ص ١٠٨ .

الطبيعة أو ما وراء الطبيعة ، فهذا أمر قد وضع العقل الانسانى فى الأغلال وألقى به فى الرغام . ففيما مضى فى مطلع هذا القرن تجرأ بعض من أقدر النقاد على اطلاق اسم الشعر على الفصول الأولى من الكتاب المقدس ووقفوا عند حد هذه التسمية ؛ وفى أيامنا تكررت هذه التسمية ولكن كتسمية فقط أيضا . أما التفسير الذى يوضح هذا العمل وينير غوامضه ويضعه فى اطاره القوى فانه لم يأت بعد[1] .

وهذا التفسير الذى انضم فيه التاريخ الى الأدب هو من أهم الأعمال التى قام بها هردر ولكن كان لابد له من الانتظار حتى يؤمن مركزه كرجل دين .

وفى أثناء ذلك قامت مشكلة أدبية فتحت المجال لآرائه الجديدة فى التاريخ وهى : ما هو النموذج الصالح للأدب الألمانى ؟ فالنقاد كانوا يوصون المؤلفين باتباع التقاليد الاغريقية الرومانية التى أوحت الى كورنى وراسين وموليير وعاونت المزاج العلمى على خلق النثر الأوربى الحديث . ووقف خلف هؤلاء النقاد صف طويل من المفسرين لهذه التقاليد الاغريقية الرومانية من أرسطو وهوراس وفيدا وكاستلفزو الايطاليين الى بوالو وبوب الذى شرح فى كتابه « مقال فى النقد » عبارة راپان الفرنسى التى جاء فيها أن كتاب الشعر لأرسطو هو « الطبيعة موضوعة فى منهج وهو الذوق السليم مركزا فى مبادىء » وذلك فى البيت المعروف : قواعد من قديم كشفت وليست موضوعة وهى من الطبيعة ولكنها على منهج موضوعه ، وحين كان هردر فى مدينة ريجا هاجم الكاتب الألمانى اللامع (لسنج) هذا الموقف واقترح على مواطنيه شكسبير كنموذج أحسن ، وبين أن مبادىء

(١) المصدر السابق ص ٤٦٤ ـ ٤٦٥ ، ٤٦٧ .

المسرح التى ذكرها أرسطو فعلا ، اذا انفصلت عن التفسيرات والاضافات التى قام بها خلفاؤه ، فانها ليست الا تعميمات عن أكثر المسرحيات نجاحا فى المسرح اليونانى .

أما شكسبير فقد واجه ظروفا مسرحية جديدة ، ووصــل الى نتائج أدبية عظيمة عن طريق شكل مسرحى آخر . وفى ١٧٦٧ وهى السنة التى أوضح فيها « لسنج » رأيه هذا أحسن توضيح فى كتابه (التأليف المسرحى بهمبورج) جاء هردر وكان يصغره بخمس عشرة سنة لتأييــده بالأدلة التاريخية الكامــلة وذلك فى أول كتاب مطبوع له « شذرات من الأدب الألمانى الحديث » .

وقد أعجب هردر بتفوق اللغة الفرنسية الحديثة ولاتينية عصر أغسطس قيصر فى الصقل والتعبير عن الألوان الدقيقة ونقل الأفكار ، الا آنه ادعى أن للغة الألمانية ميزات أخرى تعوض ذلك . وقد مزج هردر بين ملاحظات وود وبلاكوبل وميخائيلز بشأن تاريخ اللغتين الاغريقية والعبرية وبين تشبيه استقاه من النظرية التربوية الثورية لروسو فى كتابه «اميل» (١٧٦٢)، وبيّن استحالة ما يطلب الى اللغة من أن يكون لها كافة مميزات العصور المختلفة فى وقت واحد »[١] . فكما أن عقل الطفل — على حد قول روسو — لا يمكن تنميته تنمية سريعة ، وانما يجب أن يستعيد ببطء التاريخ العقلى للجنس البشرى ، كذلك الأدب الألمانى لا يستطيع فى التو والحال أن يقفز مخلفا وراءه الثقافة الفجة للشعب الألمانى ولغته القاصرة .وبدلا من البكاء على هذا التخلف ، ومحاولة التغلب عليه بتقليد الفرنسيين والرومان فى عهد أغسطس فانه يجب على المؤلفين الألمان أن يفيدوا من ميزات اللغة الألمانية

(١) مجموعة مؤلفات هردر طبعة سوفان ١ ، ١٥٢ .

الشابة . فلغة كاللغة الفرنسية التى يسهل عليها التجريد وتتميز بالشفافية الصافية هى « لغة سيئة بالنسبة للشاعر لأنه مضطر أن يستخدم الألفاظ الزائدة عن حاجة غيره وليس سبيله أن يعرف الصور العقلية تعريفا واضحا ، وانما سبيله أن يحاول التعبير عن هذه الصور وعن مبتكراته تعبيرا مؤثرا خصبا »[١] . وليس الرومان والفرنسيون بالمرشد الصالح للأدب فى عهد شبابه ، ذلك لأنهم ازدروا أدبهم فى عهد شبابه فنسوه أو أضاعوا ما دوّن منه : قام الرومان بذلك احتراما منهم لأدب اليونان وكان أكثر نضجا ، وقام الفرنسيون به اعجابا منهم بالرومان . أما الأدب العبرى فانه فى الواقع قد حفظ ما دوّن فى شبابه بل وما دوّن فى عهد طفولتـه ، الا أن الأساليب العقلية للشرقيين يصعب على الألمان اتباعها ؛ ولحسن الحظ نجد أن أدبا غربيا عظيما قد ظل قائما فى كل مرحلة من الطفولة حتى الشيخوخة وهو الأدب اليونانى .

ولكن قبل أن يتمكن الألمان من تقليده بحكمة يجب أن يروه على ما كان عليه فى الواقع . فالناقد التاريخى يجب أن يقوم بالنسبة للآداب اليونانية بما قام به ڤنكلمان بالنسبة للفن اليونانى ، فكما أن ڤنكلمان رفض أن ينظر الى النحت اليونانى كما جرت عادة القرون قبله بعين الرومان ، كذلك يجب على هذا الناقد التاريخى أن يمحو صورة اليونان كما يظهرون فى مسرحيات راسين التى جعلت عاداتهم هى عادات الطبقـة الأرسـتقراطية الفرنسية وبواعثهم أحيانا بواعث مسيحية . ويجب عليه أيضـا أن يرجع بالمسرحية اليونانية الى الوراء من عهد نضجها فى مسرحيات سوفوكليس الى أصولها فى الأشعار المفقودة التى تمدح ديونسيوس اله الخمر والتى بقيت بعض آثارها فى أغانى پندار العنيفة المتدفقة .

(١) المصدر السابق ١ : ١٥٩ .

ويلزمه أن يرى فى ذلك الجانب غير المتحضر من هوميروس ، وهو الجانب الذى يزعج القراء الذين يصعب ارضاؤهم ، بقية من أغانى البطولة البدائية التى كان يغنيها المنشدون الذين شابهوا المنشدين فى بلاد أوربا الشمالية . واذن فان هوميروس وپندار يصلحان لتنشيط أدب شاب كالأدب الألمانى ، بشرط أن ينصب تقليدهما على الروح لا على الأسلوب . وخير منهما الأدب الشعبى القومى لشمال أوربا وخاصة شكسبير ، والأدب الألمانى فى العصر الوسـيط .

وهذا الكتاب الأول من مؤلفات هردر جره الى جدل مع الأستاذ كلوتز الذى خضع للرأى السائد فقال ان هوميروس يمكن تقليده دون اعتبار للزمان والمكان ، وقد رأى ما يمكن أن تؤدى اليه نظريات هردر التاريخية اذا طبقت على الكتاب المقدس فأظهر الشك فى عقيدته وأصابت هذه الطعنة هردر فى الصميم فألقت بالكاهن الشاب فى مخاوف زادها ارهاقه من كثرة العمل ، واستولت عليه نوبة من السأم من الكتابة بل فى أعماله الكهنوتية الناجحة .

وبحث عن الانتعاش فى تغيير المناظر ، فاستقل سفينة تجارية شراعية أنزلته على بر فرنسا بعد ستة أسابيع . وفى باريس قابل دالمبر وغيره من الفلاسفة ووجد الثقافة هرمة على ما توقع . وجدها تنتج دوائر المعارف والمعاجم وكتب النحو بدلا من التأليف الابداعى ، ولكنه عثر فى رحلته هذه على عدة كشوف مفيدة .

ففى الأيام الأولى التى قضاها على السفينة تألم ألما شديدا لانعـدام الكتب والحديث المنشط ، اذ كان المسافر الوحيد عليها ، ولم يجد أمامه الا بحر البلطيق بضبابه وشواطئه المنبسطة فأخذ يراقب البحارة من فرط

سأمه وأثارت الأوامر القاطعة والطاعة دون مناقشة فى نفسه احتجاجا صامتا ، اذ كان دائما من المعترضين على فرض السلطة ، ولكن حين تقطعت حبال السفينة وطغت الأمواج رأى أن النظام يؤدى الى عمل سريع حاسم وانتهى به الأمر بعد تردد الى الاقرار بضرورة النظام الاستبدادى هنا وفى كل الجماعات البدائية التى تقع تحت رحمة الطبيعة . ان رؤية البحارة بأيديهم المدربة وعيونهم الحادة واحساسهم الغريزى بالعواصف قبل هبوبها قد ملأت الشاب الشاحب اللون فى زيه الدينى بالضجر وأقنعته بانعدام فائدته اذا كان مجرد « دواة للتأليف العلمى ومعجم للفنون والعلوم » [1] ، وأقر بما عرف عنه من ميل سريع الى التعميم أنه قد أساء تقدير الرجال العمليين ودورهم فى التاريخ . ان قصص البحارة عن المغامرات العنيفة وتطيرهم يشبه شعر اليونان أعظم رجال البحر فى العصر القديم ، لقد عرف الآن لماذا ابتدع اليونان الأساطير عن البحر ، ولماذا ابتدع المصريون الأساطير عن الأرض اليابسة ، ولا جدال فى أن البحر المتوسط بشمسه قد شكل الشعر تشكيلا يختلف عن تشكيل البحر البلطى له بضبابه ، وفى طريقه وهو يمر بمضيق سكاجراك الى بحر الشمال المتسع شاهد جبال النرويج البيضاء التى يكسوها الضباب وقواعدها الخضراء التى تعلوها مياه الفيوردات العميقة ، فعرف السبب فى أن أشعار الادا واوسيان تنبىء عن نوع من العنف يختلف عما حوته الأوديسه ، واسترجع هردر صورا زاهية عن رحلته هذه وكتب يقول :

« تركت العمل فجاءة وخلفت الضجيج والتنافس الأحمق فى عالم البورچوازية ، ومقعد العالم المريح ، والأريكة الوثيرة للمجتمع ، وألقيت بنفسى بقوة دون وسائل تسلية أو مكتبات أو دوريات علمية أو شعبية على

(١) المصدر السابق ٤ : ٣٤٧ .

سطح سفينة تسير فى البحر الممتد الذى لا حدود له بين رجال دولة صغيرة يخضعون لقوانين أشد صرامة من قوانين جمهورية ليكورجوس وسط طبيعة مختلفة تماما ، طبيعة حية متحركة تحيط بها كل يوم العناصر التى لا تتغير ولا تنتهى ، وبين آن وآخر ألحظ شاطئا جديدا ، أو شعبا جديدا أو بلادا مثالية — آنا هنا بجانب صخور اولاف المشهورة فى كثير من القصص العجيبة ، وبجانب الأراضى التى جال فيها فيما مضى المنشدون والفيكنج بسيوفهم وأغانيهم بعد أن اخترقوا البحار على سفنهم أو جياد منطقة الأرض، وآنا هناك بعيدا بجانب الشواطىء التى وقعت فيها أعمال فنجال ، وغنّى اوسيان أغانيه الحزينة تحت السماء المتقلبة ذاتها . صدقنى أن المنشدين تختلف قراءتهم فى هذا المكان عن قراءتهم من قمطر الأستاذ اختلافا كبيرا »[1] .

وهكذا أصبح هردر يعتقد الآن أن مادة التاريخ هى العمل والغريزة والجو وروح الشعب فى وسطه الجغرافى ؛ ثم ان التاريخ يجب عرضه « كصور » ولا ينبغى أن يحلل الى تعميمات مجردة وسحره فى « غيابه » وبعده . وقد وجد هردر فى فكرة البعد هذه القوة الدافعة لمزاجه ونشاطه فهو يقول :

« ومن هنا كان حبى للتأمل والافتراض وللجانب الغامض فى الفلسفة والشعر والقصص والفكر ، وميلى الى ظلال العصر القديم ، والى القرون البعيدة التى انقضت ، وميلى الى العبرانيين واليونان والمصريين والكلت والسكوت . الخ . ومن هذا الحب نشأ أول مجال لنشاطى وأحلام شبابى بعالم من المياه ، واضطرابى أمام الكشوف السيكولوجية والأفكار الجديدة

(١) المصدر السابق ٥ : ١٦٨ و ١٦٩ .

التى تخرج من النفس الانسانية ، وأسلوبى الذى جمع بين الوضوح والغموض ، ونظرتى الجامعة الى الأجزاء والتماثيل ووثائق الجنس البشرى ، بل منه نشأ كل شىء ، ان حياتى موكب يسير بين عقود قوطية [١] .

وثمة جزء لم ينشر فى كتابه « يوميات رحلتى ١٧٦٩ » يحوى ما تمنى هردر أن يكون عليه مؤلف حياته فقال انه : « تاريخ التقدم وأنواع نشاط العقل الانسانى خلال مرّ العصور والأمم معا ، لقد شجعنى عليه روح ملهم طيب تسربل بالليل فعسى أن يصبح عملى فى حياتى وتاريخى وتأليفى الذى أضعه وهذا وحده هو ما يمكن أن يحفظ علىّ نشاطى دائما ، اذ أنى سأكون دواما متجولا فى ردهة عظماء الرجال » [٢] .

ان هذا العمل الطموح كان بطىء النضج ، فقد مضت خمس سنين قبل أن ينشر خطته التمهيدية « وأيضا فلسفة أخرى للتاريخ » وهذه السنون بدأت بآفاق متسعة فى فرنسا وهولندا وبلاد الرين ولم تلبث أن صارت الى العزلة فى بكبرج وهى العاصمة الريفية لامارة شاوبرج لپ ببلاطها وجوه الخانق . ان السنين التى أمضاها فى محاولة اقامة أدب ألمانى مستوحى من الأدب الشمالى قد نمت أفكاره التاريخية وشهدت بداية صداقته مع كاتب كانت عبقريته أكثر عالمية من عبقرية هردر ، وعاونه بعبقريته فى تخطيط أعظم مؤلفاته وهو « أفكار فى التاريخ » .

حدث اللقاء بين هردر وجوته فى مدينة ستراسبورج حيث كانت تجرى لهردر جراحة فى احدى عينيه . وكان جوته اذ ذاك من طلاب القانون فى الحادية والعشرين من عمره وهو الذى سعى الى لقاء هردر الذى كان يكبره

---

(١) المصدر السابق ٤ : ٤٣٩ .

(٢) الجزء الثانى ص ٣٤٨ ـ ٣٤٩ . Herders' Lebensbild,

بخمس سنوات وله شهرة واسعة فى ألمانيا كناقد أدبى . وقد ظــل هردر الشخصية الغالبة زمنا ما ويقول لنا جوته :

« علمتنى كتب هردر أن فن الشاعر هبة عالمية وهبة للأمم وليس ارثا خاصا لبعض المثقفين المهذبين » (١) وفتش جوته بناء على نصيحة هردر عن الأغانى الشعبية بين فلاحى الالزاس ، وأعلن أنه كشف عن اثنتى عشرة أغنية « حال خروجها من حناجر أكبر الجدات سنا .. بألحانها القديمة كما وضعها الله (٢) وأن ايمان هردر باليونان الأول وخاصة پندار كمصدر وحى للشعر الغنائى الألمانى أثمر سريعا فى أشعار جوته وأغانيه » .

أما حثه على معالجة موضوعات العصور الوسطى الألمانية على نحو ما فعله شكسبير بتــواريخ الحوليات فقد أدى الى ظهور مؤلف جوته « جوتز فون برليشنجن » الذى وجه بعد ذلك بجيل من الزمــان المؤلف الروائى سكوت الى القصة التاريخية وهى لا تزال حتى الآن أكثر المؤلفات التى جمعت بين التاريخ والأدب انتشارا .

وظهر منشور المدرسة الأدبية الجديدة وعنــوانه « الروح الألمانية والفن » فى عام ١٧٧٣ وقد اشترك فى تأليفه هردر وجوته وأدى مباشرة الى تأليف هردر فى التاريخ . وكان مقال جوته فى فن العمارة الألمانية تقديرا ممتلئا بالحماسة للمعمارى الذى بنى كاتدرائية ستراسبورج . وبالرغم من أن جوته قد أخطأ فى ظنه أن الطراز الدولى الوسيط المسمى بالقوطى هو من أصل ألمانى (وقد ادعى الانجليز مثل هذه الدعوى قبل أن تتوطد أسس

(١) Poetry and Truth الجزء الثانى الكتاب العاشر .

(٢) Heinrich Düntzer and Ferdinand von Herder, eds., Aus Herders Nachlass (Frankfurt-am-Main, 1856). I,29,

خطاب من جوته مؤرخ فى سبتمبر ١٧٧١ .

تاريخ العمارة) — بالرغم من ذلك فان تشبيهه الموفق لبناء الكاتدرائية « بشجرة الله الباسقة العريقة الواسعة الانتشار التى تعلن فى خارجها عن عظمة اللهصاحبها بفروعها وأوراقها الكثيرة كأنها رمالالبحر» [(١)] قد ساعد على فهم روح العصر الوسيط . أما هردر فأنه آكد فى مقاليه نسبية الذوق وبذلك وضع أساسا للدراسة المقارنة للآداب القومية . وكان مؤلفه « رسائل عن أوسيان وأغانى الشعوب القديمة » فى الواقع صورة مصغرة لمؤلفه الذى ظهر فيما بعد وهو « الأغانى الشعبية (١٧٧٨—١٧٧٩) وفيه ظهر مترجما ملهما للشعر البدائى عند كثير من الشعوب القديمة والحديثة ، وأدى ما لاحظه من ضياع الشعر الشعبى الألمانى نتيجة لاهماله الى الكشف عن أناشيد وأغانىتكاد تنافس أغانىاسكتلندا وانجلترا (ومؤلف برنتانو وارنم) « الطفل العجيب Oas Knaben Wundebar ١٨٠٥ » هو الصنو الألمانى لمؤلف پرسى « الآثاروا لبقايا » ، وافتراضه كذلك ضياع الشعر الشعبى الرومانى وهو ضياع لا يعوض دعا المؤرخ نيبور الى محاولة احياء الأصول الصحيحة لروما [(٢)] وأعلن هردر فى مقاله عن « شكسبير » أن مسرحياته ثمرة طبيعية للزمان والمكان والجنس شأنها فى ذلك شأن مسرحيات سوفوكليس — قال : « حيث ان كل ما فى العالم يتبدل كذلك تبدلت الطبيعة التى أنتجت الأدب المسرحى اليونانى [(٣)] ، وأن جهود الفرنسيين للاحتفاظ بها كمعيار مطلق خطأ كاقتناعهم بأنها قد أنتجت من جديد فى هذه المسرحيات الحديثة . وأن تصور هردر عن تعدد الثقافات وفنائها واستحالة استرجاعها قد أصبح من النضج بحيث أدخله فى السنة التالية فى مؤلفه « وأيضا فلسفة أخرى للتاريخ » .

---

(١) مجموعة مؤلفات جوته (ميونخ ١٩٠٩) الجزء الأول ص ٢٨٩ .

(٢) انظر الفصل الرابع ص ١٢٠ من هذا الكتاب .

(٣) مجموعة مؤلفات هردر الجزء الخامس ص ٢١٣ .

وقد استطعنا بارجاع الأفكار الرئيسية فى ذلك الكتاب الى أصولها أن نفهم السبب فى أن هردر يمكن أن يحتل مكانا وسطا بين ڤولتير وبوسويه ؛ اذ كان مخلصا للعلم كڤولتير وللقيم الدينية كبوسويه ، ولكن فهمه المرن الواسع لها وفق بينها ، وسار على نهج ڤولتير فى تحطيم الحواجز بين التاريخ الدينى وغير الدينى ، أو بين الانسان والطبيعة ولكن دون أن يحط من قدر اليهود أو يجعل من الانسان آلة . وقبل الاستنارة من العلم دون أن يجعل ضوءه البراق يلقى ظلالا قاتمة شديدة على العصور الوسطى أو على طفولة الجنس البشرى ، واحتفظ بقيمة الحواس والخيال والشعور ضد طغيان العقل وتحليله ، ووسع الفكرة الجديدة لڤولتير عن تاريخ الحضارة بذوق أدبى أشمل ، وحيثما وجد ڤولتير أن أمر الانسان فوضى وجد هردر فيه خطة ونظاما ، الا أن هذا النظام يختلف عن نظام بوسويه ، فهو ليس مفروضا على الانسان نتيجة تعسف أو نزوة بل هو يتكشف وفقا لقوانين نمو الأحياء ؛ وأن المبدأين المستفادين من الأدب وهما المشاركة بالخيال ونسبية الذوق قد أظهرا فى ميدان التاريخ أن نسيجه مستمر واحد ، وان تعددت ألوانه ؛ والاستمرار يتضمن الحركة فى الزمان والزمان غير قابل للرجوع ، وعلى ذلك فان التقاليد لا يمكن أن تقيد المستقبل ، والانسانية تسير دائما الى هدف لا نراه ، وللطريق اليه سحر المجهول ، وليست له دهشة النزوة المفاجئة ؛ لأن أى نظرة الى الوراء تبين أن كل ما حدث كان حدوثه وفقا للقوانين ، والعلم يوسع الكون ويبيِّن أعمال الطبيعة الانسانية المعقدة ، فهو يكثر من الأسباب التى تدعو الانسان الى الدهشة والاعجاب .

وكان أول مؤلف تاريخى لهردر منشور يشبه « الروح الألمانية والفن » الذى نشره فى العام السابق وكان له نفس العيب الذى عرفت به المنشورات وهو المبالغة فى شرح القضية على حساب غيرها . ولذلك نجد أنه فى عرضه

للنقاط الغامضة فى مؤرخى حركة الاستنارة قد عجز عن انصاف جرأتهم ودقتهم فى استخدام طرق العلم ونتائجه على ضيق ادراكهم لها . وهذا العجز عن الانصاف كان مرحلة عارضة عند هردر ، اذ أنه شعر فى أثناء عزلته العقلية فى بكبرج بتأثير الرسائل التى تبادلها مع همان الصوفى ولاڤاتر وهو متحمس دينى غريب ، واللوازم المنبرية فى أسلوبه وعرضه غير المرتب تتباين تباينا يدعو الى الأسف مع وضوح ڤولتير وصفائه ؛ على أن انتقاله الى وسط أكثر تنشيطا أعاد الى عقله الاتزان الذى كان له فى مدينتى ريجا وستراسبورج .

وربط الحظ السعيد مرة أخرى بين هردر وجوته ؛ ففى عام ١٧٧٦ دعى هردر الى رياسة الكنيسة الرسمية لدوقية ويمار ، ولما كان الدوق لا يرغب فى أية خلافات كهنوتية بشأن العقيدة فان جوته أقنعه أن هردر هو ضالته المنشـودة .

وأجمع رجال الدين فى ويمار على المعارضة لشكهم فى هردر بسبب ما أشيع عن أفكاره الدنيوية وخلقه وزيه (اذ جاء الى بكبرج وهو يرتدى معطفا أزرق اللون مذهب الحوافى وقميصا أبيض وقبعة بيضاء) . ولكن الدوق فرض عليهم ارادته ، وبالرغـم من أن هردر كان على علم بهـذه المعارضة فانه قبل هذا المنصب على ما فيه من قلق وظل يشغله بقية حياته.

وتعرف هردر فى ويمار الى بلاط مثقف مستنير يميل الى اللهو المألوف والتحلل من القيود الأخلاقية ، والى جمع من رجال الدين على استقامة فى الخلق وضيق فى العقل ، وحاول أن يوجد بين الحاشية والاكليروس شيئا من التفاهم المتبادل وذلك بتفسيره الكتاب المقدس تفسـيرا يفتح عيون الطبقة الأرستقراطية على العظمة الخلقية والجمال الشعرى فى « الكتاب المحتقر » ويباعد بين الكهنة وبين تصوراتهم العقيدية التى يؤمنون بها دون

مناقشة — بل انه استرسل فى آماله الى أبعد من ذلك لأن مثل هذا التفسير للكتاب المقدس قد ينقذ التأليف التاريخى من الدخول فى المنازعات اللاهوتية كما كان يخشى منذ عالج ڤولتير بعنف تاريخ الحضارة اليهودية ، ولا يعجز عن مد تاريخ العالم الذى سيتوج أعمال حياته بالخصب والوحدة . وكان لاقامة هردر فى ويمار ميزة كبرى وهى سهولة المباحثة مع جوته أكبر شعراء عصره ويوهان ايشهورن أكبر عالم بالتوراة والأستاذ بجامعة يينا التى لا تبعد الا بضعة أميال ، وقد درس مع ميخائيلز ، وكان على علم مكين باللغات والعادات السامية مما يعاون على تحقيق خطة هردر التى وضعها فى مدينة ريجا وهى وضع العهد القديم فى اطاره القومى ، وأهم من ذلك وأكثر نفعا أنه كان يكشف عن أمثلة للطرق البدائية فى تسجيل التاريخ ، وهى أمثلة ظلت باقية ، وظلت قرونا لا يلحظها انسان على الرغم من وجودها فى أشهر كتاب معروف عنى بدراسته فى أوربا .

وقد مهد الطريق لهذا الكشف تدريجا أكثر من مائة عام من البحث العلمى الجدى فى تاريخ الكتاب المقدس تعد افتراضات ڤولتير الى جانبه من توافه الهواة . وقد أثار المشكلات الرئيسية الفيلسوف اليهودى سپنوزا فى كتابه « مقالة لاهوتية سياسية » (١٦٧٠) والقس الكاثوليكى الفرنسى ريشار سيمون فى كتابه « التاريخ النقدى للعهد القديم » (١٦٧٨) .

ولم يستطع سپنوزا أن يوفق بين ما تعلمه فى المدارس الربانية اليهودية من أن الله قد أملى الأسفار الخمسة على موسى كلمة كلمة وبين ترتيب موضوعاتها فقال :

« اذا دققنا النظر فى الطريقة التى جمعت بها كل هذه التواريخ والتعاليم فى هذه الكتب الخمسة جنبا الى جنب دون نظام أو اعتبار للأزمنة ، وتكرار

القصة الواحدة غالبا بصور مختلفة أحيانا ، فانه يسهل علينا أن نرى أن كل هذه المواد أو الموضوعات قد جمعت جنبا الى جنب وضمت معا حتى يمكن أن تفحص فيما بعد وتنظم باستعداد أكبر ، ولم يقتصر الأمر على هذه الكتب الخمسة فحسب ، وانما تعداها الى التواريخ التى احتوت عليها الكتب السبعة الأخرى المنتهية بخراب أورشليم ، فهى قد جمعت بنفس الطريقة .

فمن لا يرى أن سفر القضاة ٢ ، ٦ انما يقتبس من مؤرخ جديد ، وهو المؤرخ الذى كتب أيضا عن أعمال النبى يشوع ، ومن لا يرى أن ألفاظه انما تنقل عنه ببساطة[١] .

أضف الى ذلك أن موسى لا يمكن أن يكون مؤلف الأجزاء التى تروى حوادث وقعت بعد موته ومنها وصف مفصل لدفنه . الا أن الكتب التاريخية من حيث ارتباطها فيما بينها ، ووحدة وجهة النظر فيها ، يبدو بوضوح أنها من عمل شخص واحد . وظن سپنوزا أن هذا الشخص قد يكون هو عزرا الذى يحتمل أنه جمع المدونات الثمينة لتاريخ أمته حين رجع اليهود من أسرهم فى بابل « ولم يتناول عزرا التواريخ بالصقل ولكنه قنع بجمعها من مختلف الكتاب » [٢] ويمكن أن نميز فيما تكرر وروده أجزاء من المصادر التى ضاعت مثل الآيات الأربع الأخيرة من سفر الملوك الثانى ؛ فهى هى الآيات الأربع الأخيرة فى سفر ارميا ، وكذلك ورود أنساب ملوك ادوم المذكورة فى سفر التكوين مرة أخرى فى الاصحاح الأول من سفر أخبار الأيام الأول . وأن عزرا لا يمكن أن يكون هو نفسه مؤلف السفر الذى يحمل اسمه ، أو أن نحميا قد ألف سفر (نحميا) لأن محتويات هذين السفرين تدل على أنهما قد ألفا حتما بعد أن أعاد يهوذا المكابى العبادة الى

(١) The Chief Works of Benedict Spinoza ترجمة Elwes (London, 1905). I, 135.

(٢) المصدر السابق ص ١٣٣ .

المعبد . ووصل سپنوزا الى هذه النتيجة العامة وهى : « أن الكتب المقدسة لم يؤلفها شخص واحد أو شعب حقبة واحدة ، وانما ألفها مؤلفون كثيرون مختلفو الأمزجة وذلك فى أزمنة تمتد ما بين أول المؤلفين وآخرهم أكثر من ألفى عام أو قد تزيد على ذلك بكثير » [١] .

وكتب سپنوزا باللاتينية وأغفل ذكر اسمه حتى يتجنب اثارة الناس ، ولكن ظهرت فى هولندا عام ١٦٧٨ ترجمة فرنسية لمقالته اللاهوتية السياسية، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل نشر القس ريشار سيمون بلغته الفرنسية كتابا هذب فيه النظريات التى وردت فى « مقالة » سپنوزا ، وقد تحرى سيمون أصل العهد القديم وكيفية وصوله وانتقاله فوجد أن آباء الكنيسة كانوا يشكون فى نسبة بعض الأسفار الى مؤلفيها ؛ اذ رأى القديس چيروم أن موسى لايمكن أن يكون قد كتب كل الأسفار التى تحمل اسمه ، واعتبر سفر الملوك من عمل أكثر من مؤلف واحد . وسبق بعض آباء الكنيسة — ومنهم العالم اوريجانوس — نظرية سپنوزا فى أن عزرا باعتباره الكاتب الرسمى للأمة اليهودية جمع الكتب التاريخية من « مذكرات قديمة » وغالبا ما كان ذلك بصورة موجزة . أما عن مدى الدقة فى الحوادث المدونة فان سيمون قال : « ليس من الضرورى مطلقا أن تكون كل العبارات قد دونها مؤلفون معاصرون شهدوا ما يروونه والا انعدمت الثقة فى كل ما جاء بسفر التكوين » [٢] .

وواضح أن ذلك أيضا كان هو الشأن فى الأمور المتعلقة بتأريخ الحوادث فان قدماء العبرانيين لما لم يجدوا فى تواريخهم من الأجيال الانسانية

(١) المصدر السابق ص ١٨٢ .

(٢) Richard Simon, Histoire critique du Vieux Testament (Rotterdam, 1685). pp. 3-4.

ما يكفى لملء كل الفراغ الزمانى جعلوا الشخص الواحد يعيش قرونا عدة ، كذلك اختلاف الأسلوب فى الأسفار المنسوبة الى موسى يعارض أن يكون لها مؤلف واحد « فالأسلوب يكون أحيانا موجزا وأحيانا مطولا جدا بالرغم من أن اختلاف الموضوع لا يتطلب ذلك » [1] وهذه ملاحظة كان لها فيما بعد نتائج بعيدة المدى . وقال سيمون ان الاقرار بأن بعض الأجزاء التاريخية فى الأسفار الخمسة قد ألفت بعد وفاة موسى لا يضر بالعقيدة المسيحية ؛ لأن الله لم يوح الى موسى تاريخ أمته ، وانما أوحى اليه الشريعة .

وهذا التمييز بين الجزء التاريخى والجزء الدينى فى كتب العهد القديم أى التمييز — بعبارة أخرى — بين حرفية النص وروحه وهو تمييز قال به سپنوزا كذلك ، هذا التمييز قد أرضى رؤساء سيمون من طائفة الواعظين ، ووافق مراقب المطبوعات على نشر كتابه « التاريخ النقدى للعهد القديم » ، وتبناه كاهن من ذوى النفوذ اعتزم أن يطلب من الملك لويس الرابع عشر أن يقبل اهداءه اليه ، ولكن ما ان ألقى بوسويه نظره على فهرس محتويات الكتاب حتى ثار ، فهرع الى رئيس الديوان وحصل منه على أمر بمنع نشره. وكان ذلك دون جدوى لأن الكتاب موضع الاتهام ظهر باللغة الفرنسية فى هولندا تحت اسم مستعار ، وكان سيمون من الشجاعة بحيث دافع عنه مطالبا أن يبرهن نقاده على خطئه من واقع المخطوطات العبرية . وعوقب على عناده بالطرد من طائفة الواعظين بباريس ونفى الى أبروشية ريفية بقية أيامه ، ولكن ثأر له بعد موته بأربعين عاما طبيب خاص سابق للويس الرابع عشر .

ذلك أن هذا الطبيب — وهو الدكتور جان استريك — أخذ يزن الأدلة

(١) المصدر السابق ص ٢٩ .

القائمة ضد نسبة سفر التكوين الى مؤلف واحد والتى بينها سيمون وسپنوزا وكذلك الفيلسوف الانجليزى هوبز والبروتستنتى الفرنسى لكلير ، وخطرت له فكرة موفقة وهى أن يربط بها أمرا غريبا لاحظه القديس أوغسطين وترتلليان وغيرهما . وهو أن النص العبرى يحوى اسمين مختلفين لله : أولهما ، يهوه والآخر اليوهيم . وفصل بين الأجزاء والفقرات التى تحوى كل اسم منهما وجعلها فى نهرين متوازيين فوجد أن هذه الفقرات تكون تاريخين مستمرين — فيما عدا الاضافات المنقولة والفقرات المكررة — وهذا أكثر مما يتوقع من مؤلف بدائى وكاتب غير متمرن . وهكذا مزج موسى على ما يظهر بين تاريخين لنشأة شعبه كانا مستقلين أصلا . وبقيت بعد ذلك جملة فقرات لم يرد فيها ذكر الله ، وهى فى مجموعها شرح لبعض الاشتقاقات اللغوية وتعليق للكاتب ولكنها تتضمن تاريخا ثالثا للطوفان . وكان هذا الكشف من المهارة بحيث انه يبرر الشعار الذى اقتبسه استريك ووضعه بدلا من اسمه على كتابه الذى سماه « تخمينات بشأن المذكرات الأصلية التى يحتمل أن موسى استخدمها فى جمع سفر التكوين » (١٧٥٣) وهذا الشعار هو قول لوكريسيوس :

« انى لأطوف وحيدا فى منازل ربات الفن التى لا طرق فيها ولم تطأها الأقدام من قبل » .

وكان من أول ما قام به هردر عند وصوله الى فرنسا (١٧٦٩) شراؤه كتاب استريك هذا . وكان قد سمع عن سپنوزا وسيمون من ميخائيلز أستاذ ايشهورن وعلى ذلك فانه كان مهيئا بسبب اطلاعه على هذه المؤلفات لفهم مؤلف ايشهورن الذى بنى عليها وهو « مقدمة للعهد القديم » (١٧٨٠ — ١٧٨٣) وبه بدأ عصر جديد .

وقد أثبت ايشهورن أن للعهد القديم نوعا جديدا من الاعجاز ينفرد به وهو الناحية التاريخية ، ففيه « وصف لتاريخ الثقافة والاستنارة لشعب قديم أتم وأكمل مما تجده فى أى تاريخ موجود لأى شعب آخر » [١] . وطلب الى قرائه أن يتخيلوا معه كيف كان يدون التاريخ الأول (البدائى) كالتاريخ المدون فى سفر التكوين ، وقبل وجود الوثائق المكتوبة كالوثائق التى افترض استريك وجودها أمام موسى لابد انه كانت هناك فترة طويلة تعتمد على الرواية الشفوية ؛ ونسب الكشوف التى اهتدى اليها الجنس البشرى كاستخدام المعادن ونظام الملكية الى أفراد ثبت من اشتقاق أسمائهم أنهم أفراد وهميون مثل Tuba ومعناها الحداد وقايين أوقابيل ومعناها المالك . وكما حدث فى الأساطير اليونانية نسبت الكشوف المتأخرة الى الأسماء القديمة بعد توسيع معناها . وقد أقيمت نصب من الحجارة أو المذابح فى أماكن معينة لتسجيل الحوادث فى مكان وقوعها وبعد أن درست ذكرى الحادثة ظلت النصب أو ظل المذبح فارتبط ببعض الحوادث التالية . كذلك جذبت الأسماء الشهيرة اليها أعمالا تمت بعدها بوقت كثير وزين الخيال قصص البطولة التى اجتمعت حولها . ثم تساءل ايشهورن :

« أليس مما يغتفر كثيرا أن تحمل الأجيال التالية مجرد الصور والأفكار الشعرية على محمل تاريخى » [٢] ؟

وكلما نما عقل الانسان تطلع الى الأصول والأسباب ، ولما كان الانسان لا يفكر الا بأشباه انسانية فانه تخيل أن الأسباب أرواح ساكنة وأدت الرغبة فى استطلاع أصل الشعوب وعلاقاتها الى انتشار « قصة غامضة »

---

(١) Johann Gottfried Eichhorn, Einleitung ins Alte Testament (2nd ed., Reutlingen, 1790), I, vi.

(٢) المصدر السابق الجزء الثانى ص ٢٥٢ .

بين كل الأمم تقريبا تقول بأن الجنس البشرى من سلالة زوجين . ومتى انعدمت الكتابة كانت الأفكار عن الزمن شديدة الغموض . « وتلاعب الخيال بالأرقام ينتج عنه الأنساب الغريبة كما يحدث بين الشعوب التى لا تزال فى طفولتها » .

ولم يكن أمام كتاب التاريخ الأوائل الا تسجيل هذه التواريخ التى حفظت بطريق الرواية الشفوية لأنه لم يكن لديهم مقياس للتحقق الا فى الحوادث المعاصرة ، بل انهم استمروا فى استخدام الاستعارات فى تأريخها وذلك لانعدام المصطلحات المجردة وهكذا « أصبحت الأفكار الجليلة والأحكام الخطيرة وحياوأوامر من الله ، وعلى حد التعبير المصطلح عليه كان الانسان على صلة مستمرة بالله »[1]. وبهذا يتضح السبب فى أن الكاتب أو الكتاب الذين ضموا سفر التكوين بعضه مع بعض قد جمعوا تواريخ يغلب عليها المبالغة أو التناقض ووضعوها جنبا الى جنب دون تعليق . ولعلنا نستمع الى صدى ضعيف عن حالتهم العقلية فى عصر متأخر أشد تكلفا ، وذلك حين قال هيرودوتس : « ان من واجبى أن أعيد كل ما قيل ، ولكنى لست مجبرا أن أعتقد صحته كله ، وهذه الملاحظة تنصرف الى كل كتابى ». وقد قال ايشهورن : « ان من حسن حظ الأجيال التالية أن كاتب أو كتاب سفر التكوين لم يقوموا بأية محاولة للتوفيق بين المتناقضات ، لأن فن مقابلة المصادر لاستخلاص الحقيقة لم يكن معروفا بالطبع ، وأية خطوة فى هذا السبيل كانت لابد قاضية على المعلومات القيمة عن العقل البدائى . وبقاء مصادر سفر التكوين على حالتها الأصلية دليل على صحته فالمزيف لا يمكن أن يزيف على هذا النحو .

---

(١) المصدر السابق ص ٢٥٨ .

واسترشد ايشهورن بهذه الأفكار عن التدوين البدائى وبالفروق بين المفردات والأسلوب فوزع بقية النص فى النهرين الثالث والرابع لاستريك على أحد التاريخين اللذين ميز كلا منهما باسم من اسمى الله (يهوه والوهيم) [1] وأقر بصعوبة القيام بهذا العمل . « فهو يحتاج الى دقة شديدة ، والى التمييز بين أساليب التدوين لادراك ما بينها من فروق لا تكاد تدرك ، وساعات يظل فيها العقل يقظا حتى لا يفقد أبسط أنواع الشبه والخلاف »[2] الا أن الجزاء الحاصل من هذه الطريقة الجديدة فى معالجة سفر التكوين كبير كما بين لقرائه — قال :

اقرأ هذا السفر على أنه تأليفان تاريخيان جد قديمين وبذلك استنشق هواء العصر والبلاد ، وانس العصر الذى تعيش فيه وما يقدمه لك من معرفة وان لم تستطع فلا تطمع فى قراءة هذا السفر بروح الأصل ، فشباب العالم الذى يصفه يحتاج الى أن يهبط الانسان الى أعماقه ، والأشعة الأولى لفجر المعرفة لا تتحمل ضوء العقل الساطع ، والراعى لا يتحدث الا الى الراعى ، والشرقى القديم لا يتحدث الا الى الشرقى ، ومن السهل أن يبتعد الانسان عن معنى هذا السفر اذا حاول أن ينقذه ويفسره دون الملم وثيق بعادات الحياة الرعوية وطرق التفكير والتخيل السائدة بين الشعوب غير المتحضرة التى نحصل عليها بدراسة العالم القديم وبخاصة بلاد اليونان فى أقدم عصورها والأمم غير المتعلمة فى العصور الحديثة [3] .

ثم ان ايشهورن لقى فى عمله على تفهم الكتب المقدسة المتأخرة مشكلتين

---

(١) ان البحث العلمى الحديث قد يزيد فى المادة التى تكون منها سفر التكوين .

(٢) ايشهورن : المقدمة ج ٢ ص ٢٩٧ .

(٣) المصدر السابق ص ٣٤٥ .

وهما شرح وظيفة الأنبياء وما ضمته هذه الكتب من مؤلفات لها طابع علمانى أو دنيوى واضح مثل سفر الجامعة ونشيد الانشاد . وقد ظنت الغالبية العظمى من المسيحيين فى عصره أن الأنبياء يتنبأون بالمستقبل بوحى من الله ؛ أما الفلاسفة فانهم على العكس وضعوهم فى مصاف العرافين الوثنيين وكهان الاستخارة وقد استهدف كتاب فوتتنيل فى تاريخ الاستخارات (١٦٨٦) بطريق ملتو النيل من اليهودية والمسيحية ، وزود ڤولتير بسلاحه ولكن ايشهورن لم ير فى ارتباط الأنبياء أول الأمر بالاستخارات شيئا يحط من قدرهم فقال : « يفترض قيام الاستخارة والأنبياء بعض التقدم فى القوة العاقلة لدى الانسان فيدرك عقله المستيقظ على مر الزمن أن أشياء كثيرة تتكرر بنظام ثابت ، وأن حوادث معينة تتوالى على نحو منتظم باستمرار»[١] سواء أكان ذلك فى ميدان المعنويات أم الماديات ، وهبة التنبؤ لا يحصل عليها الا من كان على ذكاء غير عادى وتجربة كبيرة . « ما أعظم خطر أولئك المعلمين لشئون المستقبل ! انهم يدبرون كل الأمور كأنهم صور أو ممثلون لله على الأرض . انهم صوت الأمم المشترك وليسوا مجرد ناصحين ، فهم مشترعون وحكام أقوياء شمل سلطانهم الملوك والشعوب » [٢] فلا عجب اذا تكلموا كأنهم ملهمون ، ولجأوا الى الصور والتشبيهات والأخيلة ، وقاموا بالحركات والاشارات فى ارتجالهم أقوال الاستخارات وأن أكبر عمل لأنبياء العبرانيين أنهم حولوا شريعة موسى من طقوس الى شريعة روحية .

أما الحيرة فى أمر نشيد سليمان (نشيد الانشاد) وسفر الجامعة فانها تزول اذا فهمنا العهد القديم على انه : « ديوان الآداب القومية العبرانية»[٣]

(١) المصدر السابق ٣ : ١ ، ٢ .
(٢) المصدر السابق ص ٤ .
(٣) المصدر السابق ص ٥٤٥ .

فشهرة سليمان كانت هى السبب فى نسبتهما اليه وان تكن ألفاظهما ونحوهما يدلان الآن على أنهما قد ألفا بعد زمن سليمان ، فهما قد نسبا اليه لنفس السبب الذى نسبت من أجله بعض المزامير الى أبيه : « ولم يعرف شعراء الأزمنة المتأخرة شيئا يحلون به أناشـيدهم خيرا من اهدائها الى اسـم داود [١] . وقد بيّن ايشهورن أن مثل هذه النتائج « للنقد الأعلى » باعتباره متميزا عن « النقـد الأدنى » المتعلق باقرار النص الصحيح فقط هى من آثار الطرق الثابتة المتبعة فى دراسة الوثائق الأخرى فقال : « قامت محاولات ظلت زمنا طويلا لتحديد عصر المؤلفات اليونانية والرومانية التى لا يعرف لها مؤلف اعتمادا على محتوياتها أو اذا لم يكف ذلك فعلى الأغلب من لغتها ولم يقتصر الأمر على ذلك بل تعداه الى أن تفصل عن التأليف القديم بعض الأجزاء التى ترجع الى أصل متأخر واختلطت اتفاقا بالأقدم » [٢] .

واستغرقت هذه المشاكل اهتمام علماء التوراة ممن ساروا على هذا النهج فى النقد حتى انهم لم يعيروا اهتماما يذكر للمميزات الأدبية للكتب المقدسة وقال هردر انه يأسف لأن « احساس سپنوزا بشعر الأنبياء كان احساسا ميتافيزيقيا فقط ، كذلك بالنسبة لريشار سيمون فانتصوره الضيق لأسلوب الشعر اضطره أن يرفض ما أبداه القديس چيروم والمؤرخ اليهودى يوسيفوس من أن سفر أيوب وسفر المزامير كتبا شعرا ، فقال ان هذين السفرين ينعدم فيهما ترتيب المقاطع الطويلة والقصيرة على نحو ما هو موجود فى الشعر اليونانى واللاتينى ، ولذلك نجد أن رجال الدين الذين رفضوا البحوث النقدية وعلى رأسهم بوسويه باحساسه المرهف غالبا ما كانت أحكامهم فى مثل هذه الأمور الفنية أدق ، وكان أول مؤلف يبحث فى العهد

(١) المصدر السابق ص ٣٩٣ .
(٢) المصدر السابق ص ٦٢ .

القديم من حيث هو أدب هو المؤلف الذى وضعه روبرت لوث أحد أساقفة الكنيسة البروتستنتينية الانجليزية وكان فى هيئة محاضرات لاتينية لطلاب اكسفورد جمعت بعنوان « الشعر المقدس عند العبرانيين » (١٧٥٣) ، ووجد لوث أنه من الغريب « أن تحظى مؤلفات هوميروس وپندار وهوراس باتتباهنا وتستأثر بثنائنا ، فى حين أن مؤلفات موسى وداود واشعيا لا يلحظها أحد كلية » بالرغم من أن « النماذج الوحيدة للشعر القديم الأصيل توجد فى الكتب المقدسة »[1] وأهم أسباب هذا الاهمال هو ضياع مبادىء العروض العبرية منذ زمن بعيد حتى ان الأحبار فى القرن السابع الميلادى الذين وضعوا قواعد النقد الخاصة بنصوص التوراة وأقروا النص المعروف (بالماسوريت) أى النص المقبول المشكل لم يميزوا بين الشعر والنثر ، ومن الممكن علاج هذا الاهمال اذا سلمنا بأن « لكل لغة طابعها وعبقريتها الخاصة التى تتوقف عليها مبادىء العروض وأسلوب أو لون انشاد الشعر الى حد كبير »[2] أما الأسفار والأجزاء التى تظهر فيها الروح الشعرية بجلاء فهى تتميز عن بقية النص « بتكرار الجمل تكرارا دقيقا » . ولابد أن يكون هذا هو أساس العروض العبرى بصفة خاصة . ومثل هذا التوازى الشعرى وما يصحبه من مفردات خاصة أو « لهجة شعرية » لا يميز فقط أسفارا برمتها كسفر أيوب ، وانما هيأ كذلك للوث أن يكشف عن بعض القصائد القصيرة كنشيد لامك فى ثنايا السرد التاريخى ، ودافع عن مبدأ التوازى الشعرى ضد تهمة التكرار الممل ، وحاول أن يتغلب على كره المستمعين من طلابه « للصور الشعرية المأخوذة من الحياة العادية » وان يكن قد نسى اعتراضه الذى أبداه هو نفسه على النقد « حسب قواعد

(١) لوث : المحاضرات ١ : ١٥٠ .
(٢) المصدر السابق ص ١٠١ .

أجنبية غير صالحة » حتى انه حاول أن يطبق على الشعر العبرى أغراض الشعر اليونانى وأنواعه فى الرثاء والأنشودة والوصف والمسرحية وأن لوث بانصافه لشعر العبرانيين وجمعهم بين السمو والبساطة فى الأسلوب والغرض والأخلاق يمثل التسامح المتزايد فى الذوق البريطانى الذى أثر فى هردر فى سنى تكوينه .

وقد نقح ميخائيلز مبالغة لوث فى أن الشعر العبرى نسيج وحده ، وذلك فى الملاحظات التى ذيل بهـا الطبعة الألمانيـة من كتاب الشعر المقـدس سنة ١٧٧٠ فقال :

« يحتاج الأمر الى أدلة قوية غير عادية لاقناعى بأن الكتب المقدسة تفسر بقواعد تختلف فى كل ناحية عن القواعد التى تفسر بها اللغات والمؤلفات الأخرى . وفى الحق يحتمل جدا أن توجد فى قصيدة طويلة كنشيد الانشاد اشارة تبعثنا على نسبتها للحب الالهى أو شىء لا يتصل اتصالا واضـحا بالعاطفة الانسانية الجامحة . ومن المؤسف كثيرا أنه لم يظهر ناقد له ما يؤهله لشرح هذه القصيدة الجميلة ، ومن حاولوا ذلك كانوا من رجال الدين العلماء أو كانوا من المتصوفة فأغفلوا المعنى الواضح الأنيق وليس هذا العمل سهلا ، فهو يتطلب الماما دقيقا باللغات الشرقية ومصطلحاتها ، كما يتطلب الماما وثيقا بعادات العصر القديم وعلما كبيرا بالتاريخ الطبيعى . ويضاف الى ذلك قراءة واسعة للشعر العربى ، وخاصة فى الشعر الغزلى ، وأخيرا تذوق رفيع للشعر . وقد وجدت بعض هذه الصفات متفرقة ولم تجتمع كلها أبدا فيمن أخذوا على عاتقهم شرح هذه القصيدة [١] .

وقد عمل هردر ، قبل مقابلته لا يشهورن ١٧٨٠ ، بنصيحة ميخائيلز

(١) المصدر السابق ص ٢٣٨ هامش ١ ، ص ٣٣٢ هامش ١١ ، ص ٣٤٨ هامش ٢٨ . وهذه الهوامش وضعها ميخائيلز .

فنشر بقصد التجربة ترجمة لم يدرج فيها اسمه لنشيد الانشاد وجعل لها عنوانا غير دينى وهو « أغانى الحب . أقدم وأجمل الأغـانى فى الشرق (١٧٧٨) » وطبع النص الألمانى على هيئة أبيات من الشعر مرتبة بحسب طريقة التكرار أو الموازاة العبرية ، ورتب الأناشـيد كأنها مجموعة من قصائد الحب الشعبية ، وقال عن سليمان انه جامعها وعدد المؤهلات اللازمة للشارح الأصيل ومنها معرفة تاريخ اللغة العبرية ولم تكن هذه المعرفة مما امتاز به هردر .

واستطاع هردر لحسن الحظ أن يعتمد فى هذه الناحية وفى غيرها من شئون البحث الفنى على ايشهورن لاعداد مؤلف أكبر سماه روح الشعر العبرى ، وهو موجه أيضا الى الجمهور من غير العلماء . وقد مهد هـذا المؤلف الطريق لعمل أكثر طموحا وهو ترجمة التوراة كلها حسب خطة وضعها هردر نفسه ، « يعاد فيها كل سفر أو جزء من سفر الى حالته الأصلية دون تقسيم الى اصحاحات وآيات ، ويفصل الشعر عن التاريخ بعناية » . حتى تبـدو فى مجموعها — « لا كالتوراة ، وانما كمجمـوعة من الكتـابات القديمة » [1] . ومن المحيّر تقدير ما كان يمكن أن يكسبه التاريخ والشعر على السواء من اثارة عقل الجمهور لو أن هردر نفذ هذا المشروع الذى لم ينفذ بأية لغة طيلة أكثر من مائة عام . ويبدو أن ترتيب نشيد الانشاد على هذا النحو قد لقى ترحيبا كبيرا لأن هردر ذكر اسمه فى مؤلفه روح الشعر العبرى (١٧٨٢ — ١٧٨٣) وهذا المؤلف يشبه فى خطته التاريخ المثالى للأدب اليونانى على غرار الخطة التى رسمها فنكلمان فى كتابه «المقتطفات» فالشعر العبرى يصور على أنه الثمرة الطبيعية لشعب ولغته وعقليته وتاريخه،

(١) مجموعة مؤلفات هردر طبعة سوفان الجزء ١١ ص ١٧٠ .

أما كلمة « روح » فى عنوان الكتاب فأنها تدل على أنه تصور مثيلا آخر لمؤلف منتسيكو روح القوانين .

وقال هردر فى مقدمته : « قبل أن يتكلم الانسان عن الجمال أو القبح فى أى شىء يجب عليه أولا أن يتعلم أن يفهمه . فالفهم الصحيح للألفاظ والصور والأشياء يهىء لذوى الاحساس دون ثرثرة أو مجاملة ادراك الجمال[1] وفهم الشعر العبرى يجب أن يبدأ باللغة التى كان عجزها عن التعبير عن المجردات ميزتها التى طوعتها للشعر ، انها اللغة الحسية لشعب يغلب عليه الحس المادى ويعيش متصلا بالطبيعة ، ولذلك فهى غنية بمترادفات الأشياء المادية المحسوسة والأفعال الدالة على العمل . والصدق وانعدام التكلف هما أداة سحر أسلوبها القديم : « ويعد الشعر الفنى عند اليونان زخرفا منوع الألوان والخطوط بجانب بساطتها الخالصة التى هى أشبه ببساطة الطفولة » .

واتفق قالب الشعر مع مراحل الثقافة القومية وتطور من الخشونة الواضحة فى نشيد السيف للامك الى نشيد الخلاص من البحر الأحمر الذى تنشده جوقة من المغنين ، والى التعقيد الكبير فى المزامير ، ونشيد الحرب لديبورا ، ونواح دواد على شاؤول ويوناثان ، والمزامير تقف ندا لخير أمثالها فى الآداب الأخرى .

ومما له دلالة أن هردر أبدى أسفه لزوال شعر الحياة العادية كأغانى الحصاد وعصر النبيذ وأغانى الطحان فى أثناء عمله . ولم يبق من الشجرة الباسقة للشعر العبرى الا فرعان هما الشعر الدينى وشعر الملوك »[2]

(١) المصدر السابق ص ٢١٩ .
(٢) المصدر السابق ج ١٢ ص ٢٨٧ .

ولم تكن المطالبة بحق العبرانيين فى مكانة متميزة فى الشعر العـالمى الا تمهيدا للغرض الرئيسى الذى يرمى اليه هردر ، وهو تحديد « روح » شعرهم ، وأبدى أسفه لأن معاجم اللغات السامية قليلة العون ، وتطلع الى الزمن الذى نستطيع فيه بوساطة الذوق والفهم السليم ومقارنة اللهجات المختلفة ، تمييز المعانى الجوهرية من المعانى العرضية ، وفى ميدان اشتقاق الألفاظ يصبح تطبيق الاستعارات فنا صحيحا للكشف عن الروح الانسانية والوصول الى منطق الأزمنة الغابرة[1]. وافترض أن التاريخ فى كل الشعوب ينشأ من قصص البطولة ، فوازن بين قصص جنة عدن والطوفان وبرج بابل من ناحية ، والقصص اليونانية عن نشأة الأشياء ، كقصـة پروميثيوس ، وقصة پاندورا ، ووجد أن اللاهوت العبرى قد اصطبغ باللون المحلى ، فسماؤه هى سماء سكان الخيام الذين يرنون الى سـماء لا غيوم فيها ، وتصورهم لأرض الموتى مر بتغيرات كثيرة سجلت « دقات قلب الأمـة » ولفظة (الوهيم) بمعنى الله وهى فى صورة الجمع تكشف عن تعدد الأوثان القديم الذى أسكن روحا فى كل شىء فى الطبيعة . أما الفعل الذى يلازمها وهو بصيغة المفرد فيدل على أن الكاتب فى العصر المتأخر قد اعتنق التوحيد، وقد اعتقـد هردر أن من الافتئات على التـاريخ أن ننكر على الشعوب القديمة الأخرى أنها قد اتخذت مثل هذه الخطوة لتبعد عن الوثنية وقال : « لماذا نغار ولا نعترف للفرس والهنود والكلت بالخطوات التى خطاها كل منهم على قدر طاقته فى حفظ وتنمية الدين البدائى فى الأرض ؟ » .

ولم يستخدم هردر الطريقة المقارنة للحط من قدر اليهود كما فعـل ڤولتير ، ولكنه بيّن الفروق الجوهرية القائمة فى نطاق الوحدة والتشابه ، وأبرز العبقرية الروحية والخلقية للشعب العبرى وأسبقيته فى الكشف عن

(١) المصدر السابق ج ١١ ص ٢٣١ ــ ٢٣٢ .

وجود خطة أو نظام فى التاريخ وحيويته الخاصـة فى طريقة تسـجيله . « والتاريخ لدى العبرانيين هو فى الواقع شعر ونقل قصة تصور كما لو كانت ماثلة أمامنا »[١]. حتى انه يستحضر أمام أعيننا أقدم حالات العاطفة الانسانية . وان « ما كان عند الشعوب الأخرى من قصص غريبة عن الأبطال والمغامرات أصبح لدى هذا الشعب العبرى قصصا عن الله والأنبيـاء تؤيده الأنساب والآثار . واحتفظ التاريخ عند العبرانيين حتى عهد الملوك بأسلوب قصص البطولة احتفاظا يكاد يكون دائما » [٢] . وساعد هردر خيـال القارىء فى القرن الثامن عشر بصور للشخصيات العظيمة كموسى وقد أشرب الأفكار والعادات المصرية وابراهيم البدوى ، وأيوب الأمير على حدود الصحراء العربية ، وأثنى على الأنبياء باعتبارهم قادة للحضارة فقال :

« انظر الى الشعوب المتوحشة أو المتأخرة ، ولاحـظ الدرك المرعب الذى تهبط اليه الانسانية اذا لم تجد من يرفعها بالقوة ويوقظها من سباتها العميق ، فانك حينئذ تقر بفضل أولئك الملائكة الحراس القدامى لجنسنا البشرى الذين أناروا الطريق أمامنا بروحهم وأحاطوا الأمم بقلوبهم ورفعوها بقوة العمالقة على الرغم منها » [٣] .

ولم يخف هردر فخره بالعمل الجماعى الذى تم فى عصره ويعد كتابه « روح الشعر العبرى » جزءا منه فقال : « اذا كان لا يزال فى عصرنا وأمتنا مكان قفر مجهول فهو فى هذا الجهد الهادىء الذى لم تسممه الشروح الهامشية والتفسيرات العميقة والمبذول فى سبيل الوصول الى المعنى الأصلى البسيط الذى رمى اليه هؤلاء الشعراء والاستماع الى أقوالهم الشبيهة بكلام الله فى الجو التاريخى للأزمنة الغابرة » [٤] .

(١) المصدر السابق ص ٢٣٤ .
(٢) المصدر السابق ج ١٢ ص ١٥ .
(٣) المصدر السابق ص ٥٢ .
(٤) المصدر السابق ص ٢٣ .

ولم يبق أمام هردر بعد ضم التاريخ العبرى الى الأدب العبرى على قدم المساواة الا خطوة واحدة أخيرة نحو ايجاد تركيب شامل للتاريخ ؛ ولكن هذه الخطوة كانت أصعب الخطوات لأنه لابد عليه من أن يوحد بين الانسان وبين الأرض وجميع الأحياء التى ترافقه فى رحلته عبر الزمن . ثم ان عقيدته فى تشكل الانسان وفقا لنوع العالم الذى يعيش فيه ، واحساسه الشعرى بأن الطبيعة حية والهامه الدينى بأن الله موجود فى الطبيعة — كل أولئك حث هردر على القضاء على الفصل بين المادة والروح ، وشجعه منذ أن ألف (فلسفة أخرى للتاريخ) ما كشف عنه من تقدم سپنوزا فى هذا الاتجاه وظهور كتابه فى الأخلاق (١٦٧٧) الذى عالج فيه العواطف والأعمال الانسانية على أنها « ظاهرة تسير على القانون الطبيعى » ولقى سپنوزا عقبة فى طريقه وهى العلم السائد فى عصره الذى لم يوضح القانون الطبيعى الا بأمثلة من علوم الرياضة والميكانيكا (الحيل) وأمل هردر فى أن يقوم بما هو خير من ذلك بمعاونة علوم الأحياء النامية .

وقد شهدت الأعوام السبعون التى انقضت منذ أن فكر ليبنتز فى قيام استمرار لا ينقطع من « أدنى أجزاء المادة وأقلها جهازا » الى الانسان نفسه تأييد هذا الرأى النابه بمجموعات كبيرة من الحقائق . وما دامت المادة تعرف على حد قول نيوتن فى كتابه « البصريات » بأنها « جامدة متكتلة ، صلبة لا ينفذ شىء فيها وذرات متحركة ، كانت النظريات التى تأثرت بالمادة موضع الكراهية الحقة ممن عرف القيم الانسانية العليا . الا أن الكشوف الحديثة فى الظواهر الكهربية خلعت على المادة صبغة أكثر حيوية وروحية — وكتب بوفون أكبر العلماء ذوى النظريات فى أيام هردر فى عام ١٧٤٩ يقول : « ان مصدر حياتنا الحق ليس هو العضلات والأوردة والشرايين والأعصاب التى

وصفت بدقة كبيرة ، وانما هو القوى الخفية التى لا تحددها القوانين الآلية الفجة — التى ندعى سيطرتها عليها » .

وفى عام ١٧٥٧ . أى بعد مضى خمس سنوات على ما أثبته فرانكلين من تطابق الكهرباء والبرق — وصف الفيزيولوجى السويسرى هالر استثارة الأنسجة الحيوانية الميتة بالمكثف الكهربى المعروف بقدر ليدن المخترعة حديثا واحداثها نشاطا عضليا يقلد نشاط الحياة . وبدا أن الكهربا وهى غير محسوسة وغامضة هى فى الوقت ذاته قوة طبيعية وشىء كبير الشبه بالقوة العصبية والحيوية فى الانسان والحيوان ؛ وهكذا تصور هردر أساس الكون « كقوة » (وهى أشبه « بالطاقة » فى المصطلح العلمى الحديث) (١) تظهر بدرجات مختلفة كتفاعل كيموى أو كهرباء فى المادة ، وكحساسية وقابلية للاستثارة فى النبات ، ونشاط عصبى وتفكير فى الانسان — وهى كلها أشكال الجوهر الروحى لله الموجود فى كل مكان . ووصف مركز الانسان فى كون الطاقة هذا وصفا بليغا فقال :

« ليس فى جسم الانسان شىء انعدمت فيه الحياة ، وكل شىء فيه من نهاية الشعر الى أطراف الأظافر تملؤه قوة واحدة تزوده وتقويه واذا ما تخلت هذه القوة عن أصغر الأعضاء أو آكبرها فان هذا العضو ينفصل عن الجسم فلا يبقى بعد ذلك فى مملكة القوى الحية لبنى الانسان ، ولكنه مع ذلك لا مهرب له أبدا من مملكة القوى الطبيعية ، فالشعرة الميتة أو قلامة الظفر تدخل فى محيط آخر تعود فيه الى التأثير والتأثر تبعا لطبيعتها الراهنة فقط ، ولنفحص الآن عن العجائب التى تكشف لنا عنها

(١) انظر :

Robert T. Clark, Jr., "Herder's Conception of Kraft" Publications of the Modern Language Association of America. LXXXI (September, 1942), 750 ff.

فيزيولوجية الكائن الانسانى أو أى حيوان . فأنت لا ترى الا مملكة من القوى الحية ، كل قوة منها ثابتة فى مكانها وتحدث بصلاتها ونشاطها الصلات والبناء والحياة فى الكل ، وكل منها نتيجـة لطبيعتها الجوهـرية وهكذا يكوّن الجسم نفسه ويزودها وينفق من ذات نفسه حتى يأتى عليها تماما ، وكل ما نسميه مادة مشرب بالحياة قليلا أو كثيرا »(١) .

واستعان هردر فى وصفه الحيوان والنبات فى النظام الكونى بالمعلومات الكاملة الدقيقة التى جمعها رائدان عظيمان ، وهما : لينيوس السويدى ، وبوفون الفرنسى .

أما لينيوس فانه درس تأثير البيئة الطبيعية على النبات فى أجزاء مختلفة من العالم مثل لابلاند التى زارها فى صدر حياته ، والأمريكتين ، واليابان ، والشرق الأدنى ، وقد جلب تلاميذه منها العينات والتقارير . ولاحظ وجود صراع يحفظ التوازن فى مملكة النبات فقال : « يبدو أن لكل نبته حشرة خاصة بها لمراقبتها ومنعها من زيادة الانتشار أو ازالة جيرانها » وصنّف بمزيد من الصبر النباتات المعروفة تبعا لما بينها من أوجه الشبه البارزة واخترع فى سنة ١٧٤٨ لهذا القصد الطريقة الحالية المزدوجة الأساس للتحقق من أنواع النبات .

أما الكونت بوفون وكان أمينا للحديقة الملكية فى باريس (وهى حديقة النباتات الحالية) فقد كانت تحت تصرفه وسـائل غير عادية لتنظيم البحث وهو أول عالم حاول أن يخضع الطبيعة حية وجامدة لقانون باعتبارها كلا موحدا ، ومؤلفه الجامع فى التاريخ الطبيعى بدأه ١٧٤٩ بكتابه « نظرية فى

(١) God : Some Conversations ترجمة Frederick Burckhardt (New York, Veritas Press, 1940) P. 172 طبعة معادة باذن من Oskar Piest

الأرض وآراء عامة فى التناسل والانسان ، ثم بمجلدات عن ذوات الأربع ، والطيور وانتقل منها الى دراسة المعادن فى الوقت الذى كان هردر يقوم فيه بتأليف كتبه . وقد وجد بوفون صعوبة كبيرة فى التمييز الفاصل بين الحيوان والنبات وبين أنواع كل منها ، ففى دراسته للثدييات التى ساعده فيها دوبنتون بالتشريح المقارن ، لاحظ التشابه الجسمى بين القردة العليا والانسان وتحدث عن النظرية القائلة بأن التشابه فى الكائنات العضوية قد يتضمن علاقة سلالية بينها معارضة بذلك النظرية السائدة القديمة فى نوعية السلالة ولكنه رفضها بتهكم :

« لا يعد الحمار والحصان وحدهما بل الانسان نفسه والقردة وذوات الأربع والحيوانات كافة أعضاء يكونون عائلة واحدة ، واذا أمكن اثبات أنه كان هناك فى الحيوان والنبات نوع واحد ولا أقول عدة أنواع ، نتج فى أثناء التوالد المباشر من نوع آخر — فانه لا يمكن أن نضع حدا لقوة الطبيعة ، ولن نكون مخطئين اذا افترضنا أنها بعد زمن كاف استطاعت أن تطور شتى الأشكال العضوية من نوع أصلى واحد .

وكان هناك زمن كاف لذلك فقد قدر بوفون فى كتابه : « عصور الطبيعة (١٧٧٨) » أنه قد مرت أربعون ألف سنة منذ ظهور الحياة على كوكب الأرض . فالحفريات هى بقايا الكائنات الحية ، وانعدامها فى الجرانيت يدل على أن الأرض أقدم من أى شكل من أشكال الحياة . وأضاف دى سوسير فى مؤلفه : « رحلات فى جبال الألب » (١٧٧٩) الى ذلك معلومات بشأن الحفائر وأنها تحدد الأعمار النسبية لطبقات الصخر ، وتشير الى تقلبات كبيرة فى الجو مما أيده الكشف عن بقايا الفيلة فى سيبيريا والذى قامت به قبل ذلك ببضعة أعوام بعثة روسية رأسها سيمون پالاس الألمانى . وقد أوحى

بوفون بدراسة تأثير الجو والبيئة الجغرافية على جسم الانسان وعاداته بنوع جديد من البحوث الانثروبولوجية وجد هردر له مادة خصبة فى تقارير الكشوف الحديثة مثل : رحلات بوجانفيل وكوك فى المحيط الهادى الجنوبى ، ورحلات كوك التالية فى الالوشيان والقطب الجنوبى ورحلات پالاس فى سيبريا ، ورحلات كارتر بين الهنود الحمر فى أمريكا الشمالية

وعلم هردر قبل أن يعد للنشر الأجزاء الانثروبولوجية من كتابه « أفكار عن التاريخ » أن صديقه جوته أثبت خطأ افتراض التمييز الجسمى بين الانسان والحيوانات العليا على أساس انعدام عظمة ما بين الفكين ، وجاء هذا الاعلان فى مذكرة ملؤها الحماسة مؤرخة فى ٢٧ مارس ١٧٨٤ : « لم أعثر على ذهب أو فضة ولكنى عثرت على ما يبعث فى نفسى سرورا لا يوصف وهو عظمة ما بين الفكين فى الانسان . كنت أقوم بالموازنة مع لودر (أستاذ التشريح فى جامعة يينا) وعثرت على الحل وها هو ذا ، وسينشرح له صدرك أيضا لأنه أشبه بمفتاح للانسانية ، وقد فكرت فيه مرتبطا بمؤلفك (أفكار عن التاريخ) وما أجمل أن يكون فى مؤلفك هذا » (١) .

وقد أيد علم الأجنة ما افترضه هردر من وجود علاقة بين الأحياء جميعا بالرغم من أن تقدم هذا العلم كان بطيئا حتى اختراع المجهر المركب فى القرن التاسع عشر . ووازن سوامردام الهولندى بين الأطوار التى تمر فيها الحشرات ، وتحول ابى ذنيبة من ضفدع صغير الى ضفدعة تامة التكوين، ومراحل نمو الجنين الانسانى الذى يبدأ بيضة ويمر بعد ذلك بمرحلة يكون فيها شكله أشبه بالدودة أو العلقة . ووصف كاسبار وولف ١٧٥٩ ، وهو أخ لتلميذ نابه من تلامذة ليبنتز ، فى كتابه « نظرية التوالد » ظهور أعضاء

---

(١) انظر Aus Herders Nachlass ج ١ ص ٧٥ .

صغار الأفراخ فى البيضة عضوا بعد آخر بشكل أولى ، ونموها نموا تدريجيا ؛ ومن هذه الملاحظات التى دعمتها نظرية روسو المتشابهة فى أن النمو العقلى فى الأطفال يسترجع مراحل الحضارة اتجه هردر قبل غيره الى أكثر الفروض البيولوجية اغراء ، وهو أن الجنين يلخص بشكل موجز المراحل التطورية لنشأة نوعه ، وهكذا سار تفكير هردر من الأدب والدين المقارنين الى التشريح المقارن والانثروبولوجية والأجنة المقارنة ..

وان الهوامش التى ألحقها بكتابه وتشير الى كتب عديدة طواها النسيان ولا يذكرها الا مؤرخو العلوم تدل على جهده الكبير الحصيف فى وضع تاريخه على أساس أحسن المعارف العلمية .. ومن سوء حظه أنه ألفه قبل أن يضع كوفييه ولامارك وسانت هيلير وبيشا وبلومنباخ أساس علم الحياة الحديث . وقبل أن يضع لافوازيه أسس الكيمياء الحديثة ، وهتون أسس الجيولوجيا الحديثة فى مؤلفه « نظرية فى الأرض » الذى ظهر بعد صدور الأجزاء الجيولوجية فى كتاب هردر بسنة واحدة . ولكنه كان يلقى معاونة جوته الذى كان فى الوقت ذاته شاعرا يفهم الحياة والنماء ببداهته وملاحظا موضوعيا عظيم الجلد نافذ البصر فى التطلع الى الطرق التى لابد أن يسير فيها العلم . « ان مؤلف هردر يقول انه من المحتمل أننا كنا فيما مضى نباتا وحيوانا وما ستأخذه الطبيعة منا وتزيله عنا يجب أن يظل مجهولا لنا »[١] ذلك هو الأثر الذى تركه كتابه فى نفس احدى قارئاته الأوليات وهى صديقته فى مدينة ڤيمار السيدة فون شتاين ، وكان هردر مضطرا الى سد الثغرات فى المعرفة بالفروض اللاهوتية وهى ثغرات لم تملأ حتى عهد داروين ، بل ان بعضها لم يملأ حتى الآن فظل عالم الطبيعة الحديث ينقح تصورنا

(١) ذكره سوفان فى مجموعة مؤلفات هردر ج ١٤ ص ٦٦٥ .

للمادة ولكن المزج بين الفروض والحقيقة لم يشوه الى حد خطير رأى هردر فى مكان الانسان فى الطبيعة موجها للتاريخ .

وظهر كتاب هردر « أفكار فى التاريخ » وهو أكثر مؤلفاته طموحا على أربع دفعات بين ١٧٨٤ و ١٧٩١ وأعلن فى مقدمته أنه توسيع للنظرية التى أبداها ١٧٧٤ وفحواها أن للتاريخ خطة يمكن ادراكها بالفحص الدقيق الشامل فى الطبيعة والبحث فيها عن الخطة عمل شاق ولكن أى سبيل آخر لا يكفى للوصول اليها : « من شاء مجـرد فروض ميتافيزيقية فانه يبلغها بطريق أقصر ، ولكنى أظن أن الفروض أذا انفصلت عن التجارب والقياس بالطبيعة فهى تسلية سارة ، ولكنها لا تؤدى الى الهدف الا نادرا » [١] . والقياس المشجع هو القياس بما يتم فى العلوم المكانية « ألا يسير الزمان على النظام نفسه الذى يسير عليه المكان ؟ انهما فى الواقع توأمان لقـدر واحد . الفضاء مليء بالحكمة ، والزمان مليء بالفوضى ، ومن الواضح مع ذلك أن الانسان خلق بحيث انه يهتم بالنظام وملاحظة بعض أجزاء الزمان حتى يبنى المستقبل على الماضى ، ولهذا الغرض زود بالذكريات والذاكرة» [٢] وهذا الايمان أكده هردر مرة أخرى فى الجزء الثالث اذ يقول : « ان الله الذى أبحث عنه فى التاريخ هو حتما الله الموجود فى الطبيعة ، لأن الانسان ليس الا جزءا صغيرا من الكل ، وتاريخه كتاريخ الدودة نسج من النسيج الذى يعيش فيه » [٣] .

وتنتهى المقدمة بتقديم الكتب الى الله بكل خضوع : « وانى لأضع تحت أقدامك أيها الكائن العظيم ، يا أسمى حفيظ للانسانية ، يامن لا تراه

(١) المصدر السابق ١٣ : ٩ .
(٢) المصدر السابق ص ٨ .
(٣) المصدر السابق ١٤ : ٢٤٤ .

العيون ، أضع تحت أقدامك كتابا هو أشد ما كتبه انسان فان تقصا وفيه تجرأ أن يفكر كما فكرت ، وأن يتبع خطاك »[١] .

وتتضح نغمة الخضوع هذه حين يرتفع ستار المسرحية الانسانية ليكشف عن مسرحها : الأرض « كنجم بين النجوم » فى لا نهاية الفضاء ، ولكن هردر ينصح الانسان بألا يتغلب شعوره بتفاهته ، لأن العقل الانسانى هو الذى وصل الى المعارف الفلكية وكل فرد هو « قوة فى مجموع القوى كلها [٢] والأرض ليست فقط مسكن الانسان ولكنها كذلك أمه التى وجدت قبل أى شكل من أشكال الحياة . وقد نشأت الحياة بفعل الهواء والماء والنار وتأثيرها على الصخور الأولية ، أما كيف حدث ذلك فاننا لا نعلم عنه شيئا ، لأن بوفون ليس الا ديكارت هذا العلم الحديث ولكن ظاهرة الكهرباء تشير الى أن المادة نفسها حية ولا نعلم روحا تعمل دون أية مادة أو خارجها»[٣] .

والانسان من آخر من جاء من الأحياء .

لا تزال الطبيعة فى كل مكان حتى اليوم تبدع الأشياء من أدق العناصر، ولا يسير حسابها تبعا لمقياسنا للزمن فلا بد أن الماء والهواء والضوء قد امتزجت امتزاجات عديدة قبل ظهور بذرة أول نبات عضوى ولعله الطحلب .. ولابد أن كثيرا من النباتات قد ظهرت وماتت قبل أن يوجد أى حيوان عضوى ، وفى مملكة الحيوان سبقت الحشرات والطيور والمخلوقات المائية والليلية الحيوانات البرية والنهارية ، الى أن ظهر أخيرا بعدها جميعها تاج الكائنات العضوية على أرضنا وهو الانسان ، الصورة المصغرة من العالم » [٤] .

(١) المصدر السابق ١٣ : ١١ .
(٢) المصدر السابق ص ١٦ .
(٣) المصدر السابق ص ١٧٢ .
(٤) المصدر السابق ص ٢٣ .

هذا وان نمو الجنين الانسـانى ومروره بمراحل مماثلة هو سـجل محفوظ بطريقة عجيبة عن علاقة الانسان بالحياة التى سبقته ، وكثيرا ما رجع اليه هردر ليتأمله باعجاب ، ودلائل هـذه العلاقة بين الانسـان والحياة السابقة لا تنتهى بعد ولادته : « من الواضح أن الحياة الانسانية من حيث هى نبات تشارك النبات فى مصيره ، ان أعمارنا هى أعمار النبات فنحن نطلع وننمو ونزهر ونذبل ونموت ، ويشبه جهازنا العضوى فى حياته حياة الأشجار طالما هى تسير فى طريق النمو ، ويعجز كثيرون عن تحمل ألم سقوطها أو التشوه فى شكلها الغض الأخضر ، واهتزاز قمتها يسبب لنـا الألم ، ونحن نحزن لزهرة محبوبة اذا ذبلت »[1] وسلوك الانسان الجنسى الذى يخلع عليه المهابة ويسميه بالحب « يخضع كالنبات لقوانين الطبيعة خضوعا يكاد يكون أعمى ، وان الشوك نفسه كما نقول يكون جميلا حين يزهر ، واذا ما ضمنت الطبيعة استمرار الجنس فانها تترك حياة الفرد تزول تدريجـا »[2] .

والحيوانات هى « اخوة الانسان الكبار ، وليس هناك فضيلة أو غريزة فى قلب الانسان الا ونجد لها مثيلا فى عالم الحيوان »[3] . ولاحظ بوفون أنه حيث يعيش أجمل الرجال يعيش كذلك أكبر الكلاب وأجملها ؛ فكلاهما يستجيب للبيئة . وقد بقى الانسان حيا بالكفاح . وشأنه فى ذلك شأن الحيوان والنبات ، « والخليقة كلها فى حرب ... والطبيعـة تحمل الأرض ما تستطيع حمله ، ونحن نرى أن الطبيعة دواما وفى كل مكان تفنى حتما وهى تبنى من جديد ، وأنها تفصل حتما وهى تجمع من جديد ، وهى تخطو الى الأمام من القوانين البسيطة والأشكال الفجة الى ما هو أكثر تماسكا وفنا ودقة »[4] .

---

(١) المصدر السابق ص ٥٢ ، ١٥٦ ــ ١٥٧ .
(٢) المصدر السابق ص ٥٣ ، ٥٤ .
(٣) المصدر السابق ص ٦٠ ، ١٠٨ .
(٤) المصدر السابق ص ٦٠ ، ٦١ ، ٤٨ ــ ٤٩ . انظر كذلك نشيد الطبيعة الذى ألفه جوته نثرا فيما يقرب من عام ١٧٨٢ ، ١٧٨٣ .

وتحتفظ الطبيعة بتوازن يهدد الانسان بالخطر اذا تدخل فيه . « ونادرا ما انقرض أحد أنواع النبات أو الحيوان فى اقليم ما دون أن يلحق انقراضه أكبر الأضرار بالاستيطان فى الاقليم كله » . والانسان خير نتاج الطبيعة ، وثمة سلم مدرج يشاهد فى نوعه ويبدأ من أقرب انسان للحيوان الى أصفى عبقرية فى صورة انسانية [١] ، ويدل التشريح المقارن على أنه قريب جدا من القردة ولكنه ليس من سلالتها ، ويبدو أن ميزته على الحيوان نشأت من قدرته على التشكل تبعا لكل جو دون حاجة الى تغيرات جسمية ومن قدرته الفريدة على التنقل وهو قائم وتهذيب غرائزه حتى تحولت الى ذكاء بطريق الكلام ، وقدرته على التعاون وتبادل العون مما حرره من أسوأ نتائج الصراع فى سبيل البقاء . وهو قد وصل من حيث هو حيوان اجتماعى له قدرة على التفكير العقلى والتعاطف والدين الى مركز متوسط بين الحيوان والله ، وهو مركز أهله لمجده وعذابه على السواء .

وبين الانسان كما كان فى حالة الطبيعة والانسان كما هو فى مرحلته الراهنة عصور طويلة كان فيها الانسان صنيعة خياله وعاداته التى لا تتفق مع العقل ، وتلكأ فى الاقرار بنشأته الطبيعية وتمييز أقسام نوعه وتصنيفها لأنه صعب عليه أن يواجه الحقائق القاسية الصريحة ، وأن يجعل من نفسه موضوع دراسة علمية . « على المؤرخ أن يلاحظ دون هوى ، وأن يحكم دون هوى ، كما يحكم خالق الجنس البشرى أو روح الطبيعة ، والورد والشوك عزيز كلاهما على الباحث فى الطبيعة الراغب فى معرفة مملكته وترتيب فصائلها ، وكذلك الحيوان الراقد كريه الرائحة والفيل ، وان بحثه يكون أكبر حيثما يتعلم أكثر » [٢] . هذا وان تكن خريطة العالم

(١) مجموعة مؤلفات هردر طبعة سوفان ١٣ : ١٤٧ .
(٢) المصدر السابق ١٤ : ٨٥ .

الانثروبولوجية لا تزال ناقصة الا أن الأدلة كلها تشير الى وحدة الجنس البشرى . والأجناس المختلفة ليست منفصلة بعضها عن بعض من الناحية السلالية ، وان تكن تختلف فيما بينها بسبب البيئة الجغرافية والجو وطرق المعيشة ، وعرفت الدراسات الانثروپولوجية التى قام بها هردر بسعة البحث فى المصادر وموادها بل انها عرفت آكثر بتفسيرها لها . وقد لاحظ السرعة والسهولة اللتين توضع بهما الثقافات فى أشكال سابقة على التفكير العقلى تنتشر بما يتلقاه الأطفال من التعليم المتوارث فى الجماعات .

ولا يرى أهل جرينلد وسيبريا اليوم الا ما سمعوه يروى فى طفولتهم فيعتقدون فى صحته . وكلما تحركت الطبيعة أو تحرك شىء ما وتغير دون أن تشعر العين بسبب التغير نجد أن الأذن تسمع أصواتا وحديثا تشرح لها فيه لغز المرئيات باللامرئيات ، وتثار قوة الخيال ثم تكتفى حسب طبيعتها أى بوساطة الأخيلة ، والأذن أشد الحواس قابلية للتعليم وأكثرها خوفا فهى تتعلم بقوة ولكن بغموض ، ولا تجمع الأشياء ولا تقارن بوضوح لأن التأثيرات السمعية تضيع فى نهر عجيب . والأحلام قوة عجيبة عند الشعوب خصبة الخيال ولعلها كانت فى الواقع أولى ربات الفنون وأم القصص والفن الشعرى ، فهى عرفت الناس بالأشكال والأشياء التى لم ترها العين ولكن الرغبة فيها استقرت فى أعماق النفس الانسانية [١] .

يظن الاسكيمو أن روحه تخرج من جسده وتتجول فى أثناء الليل ولكنها تبقى فى منزله اذا رحل ، والسحرة لا يخدعون دائما عن عمد ؛ فهم « أنفسهم من الناس وخدعتهم من قبل الأساطير القديمة » [٢] . واذا ما غمض أو فقد معنى الرمز الدينى نشأت الكهانة من التكرار الآلى لخرافة تخدم صالح

(١) المصدر السابق ج ١٣ ص ٣٠٤ ، ٣٠٨ .
(٢) المصدر السابق ص ٣٠٧ .

الكاهن . وظلت الأساطير الدينية والتاريخية والشعر أهم مصادر التاريخ حتى بدأ الاغريق يؤلفون فيه جديا « لم يوجد التاريخ الصحيح الا عند الاغريق ، فالشرقيون لديهم قوائم بالأنساب أو قصص خرافية ، ولدى أهل الشمال أشعار البطونة والشعوب الأخرى لديها الأغانى ، وقد بنى الاغريق على مر الزمن من التقاليد والأغانى والقصص التاريخى وقوائم الانسان هيكلا سليما لسرد تجرى الحياة فى كافة أطرافه » (١) وعلق هردر أهمية كبرى على ما قبل التاريخ حتى انه خصص له عددا من الصفحات يساوى تقريبا ما خصص للتاريخ نفسه حتى عصر الحروب الصليبية . ذلك لأن مكانة الانسان فى الطبيعة تفسر كثيرا من أمور الحضارة التى لابد أن تكون لغزا بدونها ، فهى تفسر بقاء الغرائز الحيوانية والصراع فى سبيل البقاء وما يقابله من غريزة القطيع ، والتأثيرات الجغرافية والجوية وما يقابلها من الصفات التكوينية ومراحل النمو والانحلال فى الأفراد والحضارات ، ونزعة الثقافات جميعها الى التوازن . أما الجماعات التى وجدت قبل سيادة العقل ، والتى شكل فيها الخيال والتعليم بالمحاولة والخطأ والعادات والمعتقدات التى انتقلت دون أن يتناولها النقد فانها قد هيأت عقل القارىء فى القرن الثامن عشر لقبول استمرار المعتقدات والعادات المماثلة حتى عصره استمرارا عنيدا وقد ظل هذا الماضى الضخم الذى لم ينفذ اليه الضوء يعمل فى عصور الوعى الانسانى وأى فرض عن مستقبل الانسان يجب أن يحسب لهذا الماضى حسابا .

وظهرت أقدم الشعوب التى لها تاريخ مدون فى الأراضى الواسعة فى آسيا وافريقيا حيث شجعت العوامل الجغرافية على توحيد شكل السلوك والمعتقدات ، وعجز هردر عن المزيد فيما قاله عنها لأن الكتابة المصرية لم تكن

(١) المصدر السابق ج ١٤ ص ١٣٢ .

قد حلت رموزها كما ان المعلومات عن الهند والصين وما بين النهرين كانت جزئية غير أكيدة . وأدرك أن نصيب هــذه الشعوب فى الحضارة الأوروبية انتقل بصفة خاصة بطريق اليهود الذين نقلوا مع أفكارهم الأخلاقية والدينية المتحمسة تأثيرا معطلا وهو طبقة رجال الدين الذين كرهوا الفنون التشكيلية ولم يبدوا رغبة فى الاستطلاع العلمى ، وبسطوا سلطان العادة العقلية التى جرت على التمسك الجامد بحرفية التعاليم الاجتماعية والسياسية الخاصــة ببعض المراحل الثقافية بعد زوالها .

أما القارة الأوروبية فانها على العكس شجعت بسواحلها كثيرة التعاريج وسلاسل جبالها غير المنتظمة على التنوع فى التفكير والعمل . وأول حضارة أوروبية الصفات ظهرت فى بلاد اليونان التى كانت لها هــذه الخصائص الجغرافية الى حد بعيد ؛ وتبين لنا الالياذة والأوديسة الاغريق فى فجــر تاريخهم ملاحين مغامرين ينظرون بعين الاســتطلاع الى العادات الغريبــة للشعوب الأخرى ؛ وفى أثينا وهى دولة بحرية ساعدت الحرية السياسية على ازدهار قصير الأجل فى الفنون والفلسفة والتأليف التاريخى مما رسم الهدف أمام الثقافة الأوروبية ، وحتى بعد أن زالت الحرية قام الاغريق القاطنون فى ميناء الاسكندرية باعطاء الشكل العلمى لكافة معارف العالم القــديم وتنظيمها .

وقد أدت أسباب طبيعية الى انحطاط اليونان ، « اذ لا يصح لأحــد أن يقول ان الها لا يعطف على البشر يتحكم فى مصير الانسان ويحاول أن يلقى به من عليائه حسدا له ، فالناس أنفسهم هم الأرواح المؤذية بالنسبة لأنفسهم [1] والتاريخ فى مجموعه « هو التــاريخ الطبيعى المجرد للقوى

(١) المصدر السابق ص ١٣٧ .

والأعمال والغرائز الانسانية حسب الزمان والمكان ... وأن سلامة الدولة وبقاءها لا يتوقفان على درجة ثقافتها العاليـة وانما على التوازن الموفق السديد فى قواها الحية العاملة » [1] .

وتعود الاغريق على الترف والزهو بثقافتهم الخاصة مما أخذوه عن الفرس المغلوبين فمهد ذلك للاغريق المنتصرين سبيل الانحـدار ، وآبدى هردر أسفه لأن معاصريه لم يخصوا التاريخ اليونانى بمثل الاهتمام الذى خصوا به التاريخ الرومانى وذلك لأن التاريخ اليونانى مفيد بصفة خاصـة وقال « كما أن العالم لا يستطيع أن يلاحظ النبات ملاحظة تامة الا اذا عرفه ابتداء من البذرة والانبات الى الازهار والذبول كذلك تاريخ اليونان يجب أن يكون بالنسبة لنا كهذا النبات » [2] .

أما روما التى ابتلعت اليونان ومعظم العالم القـديم فانها كانت دولة طفيلية ضعيفة الابتكار الا فى القانون والحكم ، وحتى فى هاتين الناحيتين عجزت عن توسيع دستور المدينة بحيث يشمل حاجات الامبراطورية ، وهى قد انهارت من الداخل كأثينا من الاجراءات غير الاقتصادية لدولة سارقة اعتادت العيش على النهب ، ومن صراع الطبقات ومن « حكم الطغيان على أنبل الناس » [3] وأهم من ذلك كله الروح الحربية وهى عيب قوتها لأنها حين توقفت الامبراطورية عن التوسع التهمت الفيالق العاطلة قواها الحيوية . وأتاح تاريخ رومة لهردر بحث مشكلة القوى المدمرة فى الطبيعة ، فظن أن العواطف القوية الجياشة لابد منها لأن « الجنس البشرى اذا كان خاملا لا يمكنه أن يقيم بناءه العقلى ويظل قابعا فى كهوف المتوحشين » [4] ويبين

(١) المصدر السابق ص ١٤٤ ، ١٤٩ .
(٢) المصدر السابق ص ١٤٤ .
(٣) المصدر السابق ص ١٨٤ .
(٤) المصدر السابق ص ٢٢١ .

علم الفلك أن انسجام المجموعة الشمسية يمثل توازنا فى القوى العنيفة ، وأن الانسان نفسه تعلم السيطرة على كثير من قوى الطبيعة واستخدامها لمصلحته . وأدت هذه الموازنة الى أن يعرب هردر عن أمله فى أنه اذا امتد الأفق الزمنى فانه يبين بجلاء ما بينه « تاريخنا القصير » ، بشىء من الغموض الا وهو أن العواطف القوية الجياشة أخذت تقل فيها الفوضى . واذا كانت الدولة الرومانية العالمية لم تقمها العناية الالهية قصدا كما اعتقد بعضهم لنشر المسيحية ، فان روما والغزوات البربرية ساعدت دون قصد على نشر روح الاخوة بين الناس وذلك بالجمع بين شعوب مختلفة واختلاط دمائهم وعاداتهم ، وكانت التقاليد الكثيرة التى تكدست فى العقلية الأوروبية والتى هى أشبه بكرة جليدية هائلة يزداد حجمها كلما قذفتها العصور الينا ضمانا واقيا من الهبوط المستمر فى الثقافة نتيجة للغزوات « ومجرى المياه لا يرجع أبدا الى منبعه كأن جريانه منه لم يبدأ » [١] .

وقد حافظت الكنيسةالمسيحية على العلم بينالبرابرة ،وهيأت له مستقرا فى الجامعات وهى معاهد لم يعرفها العالم من قبل ، ورققت حاشية الفرسان الذين ألّه أجدادهم الحرب الدائمة فى « الفالهالا » وحمت منهم النقابات النشطة فى المدن — الا أنه كان من أثر دخول انجيل المسيح الأخوى فى بوتقة الشعوب ان علته طبقة من « الأساطير المسيحية الحديثة » [٢] فرضها اتحاد السلطتين الزمنية والدينية فى روما والقسطنطينية على أوربا فى صورة مجموعة موحدة من العقائد ، ونجم عن ذلك خطر حقيقى وهو خطر الرق العقلى والروحى ، الا أن فرط التعصب نفسه أدى الى تجنب هذا الخطر ، ذلك أن الحروب الصليبية أدت الى تسرب العلم اليونانى والفلسفة اليونانية

(١) المصدر السابق ص ٢٣٧ ، ٢٣٨ .
(٢) المصدر السابق ص ٣٣٦ .

من الشرق فى صورة غريبة وهى الكيمياء القديمة وفلسفة المدارس . وقد بين هردر كيف مهدت الكيمياء القديمة لظهور العــلوم ، وكيف أيقظت الفلسفة المدرسية عقل المسيحية من سباته بالحض على البحث والمناقشة ، وتطوير لغة تستطيع التعبير عن أدق ألوان المعانى . وآتى فهمه المشبع بروح العطف للمراحل البدائية فى الثقافة ثماره مرة أخرى فوفق فى شرحه السبب فى أن هذه الفترة التى لم يكد يستيقظ فيها العقل قد شهدت أكبر احياء للفنون التشكيلية منذ عهد اليونان ، وهذبت قصص البطولة للهجــرات البربرية وأساطير أرثر الكلتية وحولتها الى قصص الفروسية ، وفن العمارة القوطية وهو أسمى ما أنتجه العصر كان من صنع المدن ونقابات الحرف فيها ، « ولم يكن فى الامكان أن يتخذ فن المعماريين القوطيين الذى امتاز بالابتكار والجرأة نماذجه من الأديرة وقلاع الفرسان اذ هو من الممتلكات الجماعية الرائعة ـ فالناس يشيدون وفقا لمناهج تفكيرهم وحياتهم» ، (وهذا من المبادىء التى أخذها هردر عن ڤنكلمان وزاد فيها وكان لهذا المبدأ فضل تنوير تاريخ الفن) ؛ والمدن والنقابات كانت بدورها نتيجة لانتعاش التجارة التى نشطتها الحروب الصليبية ولم تلبث أن اتسعت سريعا فشملت موانى حلف الهانسا بكافة ممكناتها : « وكل ما قامت به چنوه وبيزة وأمالفى قد ظل فى نطاق البحر المتوسط ، أما بحارة الشمال فملكوا المحيط وملكوا العالم معه »[١] وهيأت التجارة الأساس الاقتصادى للثقافة . ونشرت الطباعة والورق والزجاج والأرقام العربية والبارود والتصوير بالزيت والفنــون النافعة . وعــلى الرغم من أن الجامعات من مبتكرات الكنيسة فانهــا استجابت لهذا التطور العلمانى بتدريب الموظفين الحكوميين وبذلك أضيف الى الفرسان والكهنة « طبقة ثالثة ـ متعلمة نشطة عملية تتنافس فى الشئون الفنية على نطاق عالمى » .

(١) المصدر السابق ص ٤٥١ .

وقد توقف هردر عند أبواب العصر الحديث ، ولم يكن فى توقفه هذا غافلا عن خطر استخدام المخترعات التى أصبحت مفخرة هذا العصر . ولكن بحثه لتاريخ العصور علمه الثقة بالانسان ووصوله فى النهاية الى طريق الحكمة والسداد . « فالمدية الحادة فى يد الطفل تؤذى الطفل ، ومع ذلك فان الفن الذى كشف عن المدية من أهم الفنون التى لا غنى عنها ؛ وليس كل من يستخدم هذه الأدوات من الأطفال ، بل ان الطفل نفسه قد يتعلم من الألم أن يحسن استخدامها » [١] وهذه الفكرة تبعث الطمأنينة اذا ما فكرنا فى مشكلة الطاقة الذرية .

ان الغرض الذى رمى اليه هردر من وضع كتابه « أفكار عن التاريخ » هو شق الطريق فى بيداء الحقائق التاريخية المتشابكة لالقاء الضوء عليها ، وكان يدرك أن ضوء العلم كان لا يزال خافتا ، وأن كثيرا مما أمكن الوصول اليه من الحقائق قد لا يكون مما يعول عليه ، ولكنه فى مقدمته يحث الأجيال المستقبلة على القيام بما تبقى فقال : « ان الانسان الذى حسنت نواياه يسره ما نبه اليه أكثر مما يسره ما تفوه به » [٢] .

(١) المصدر السابق ص ٢٤١ .
(٢) المصدر السابق ج ١٣ ص ٦١ .

الفصل الثالث

جيبون وڤيكو والجماهير

وصف هردر فى فقرة من فقــرات الكتاب السابع عشر من مؤلفــه « أفكار عن التاريخ » الرق الروحى الذى وقع فيه الشعب الذى يحبه ، أى الاغريق ، تحت سلطان المسيحية البيزنطية ، وألحق بهــذه الفقرات هامشا سجل فيه امتنانه للحقائق التى دعم بها رأيه فقال : « نذكر هنا بسرور وتقدير المؤرخ الانجليزى ثالث المؤرخين « الكلاسيكيين » الذى ينافس المؤرخين هيوم وروبرتسون وقد يفوق ثانيهما ونقصد به جيبون مؤلف « تاريخ انحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها » وهو مؤلف يعد من الروائع الكاملة »[1] . وقد ظهرت المجلدات الستة لتاريخ جيبون (١٧٧٦—١٧٨٨) ، وهو أكمل مؤلف تاريخى ظهر فى عهد الاستنارة ، فى نفس الوقت الذى ظهرت فيه مؤلفات هردر . واتخذ جيبون موضوعا لكتابه أسوأ نكبة سجلها التاريخ الانسانى فى رأى الفلاسفة ، أما أسلوبه فهو يليق بأبهة عصر أغسطس ، وهو يتنوع بأسلوب پاسكال متهكما جادا وبأسلوب ڤولتير ساخرا . والمؤلف — جيبون — من أولئك الذين يعدون العالم كله وطنهم يجيد لغتين على حد سواء ، أدرك فى شبابه ڤولتير ، وفى نضجه رحبت به « صــالونات » باريس ، وأدت زيارته لروما الى اختياره الموضوع الذى أنفق فيه حياته . قال جيبون فى الترجمة التى كتبها لحياته :

---

(١) مجموعة مؤلفات هردر طبعة سوفان ج ١٤ ص ٣٣٠ الهامش .

« ان مزاجى لا يتأثر كثيرا بالتحمس وانى أزدرى أن أتصنع حماسة لا أشعر بها ، الا أنى لا أستطيع بعد مضى خمس وعشرين سنة أن أنسى أو أن أشرح العاطفة القوية التى اضطربت لها نفسى حين اقتربت لأول مرة ودخلت المدينة الخالدة ، وبعد ليلة مؤرقة سرت على أطلال ساحة المدينة (الفورم) فى كل بقعة شهيرة وقف عنـدها رومولوس ، أو خطب منها شيشرون ، أو سقط فيها قيصر ، فأبصرتها عيناى فى الحال ، وقضيت منتشيا عدة أيام ضاعت هبـاء ، أو سعدت بها قبل أن أهبط الى البحث الهادىء الدقيق »[١] وأهم العوامل فى سقوط روما عند جيبون هى نفس العوامل ذاتها التى بينها ڤولتير ، ولخص وصفه الطويل لمصير الامبراطورية الغربية بقوله : « لقد شرحت انتصار البربرية والدين » وكأن جيبون كان يشعر بالخجل من ذكر اعتناقه الكاثوليكية فى عهد شبابه السريع التأثر أثر قراءته لبوسويه فحاول أن يدمر العقيدة المسيحية الرسمية بالسخرية المتكلفة من النسك والغفلة ودرس عادات برابرة الشمال بروح علمية وحب للاطلاع دون استجابة عاطفية فقال : « لقد قرأت مقدمة تاريخ الدنمارك المالية وفيها ترجمة الادا — وهى الكتاب المقدس عند القبائل الكلتية » . وسجل فى يومياته : « لدينا الآن ستة من هذه الكتب المقدسة (بما فيها كتابنا المقدس) » . من الأعمال الجميلة وضع صورة فلسفية للأديان وروحها ومنطقها وتأثيرها فى الأخلاق والحكومة والفلسفة والشعر فى كل شعب[٢]، وذهب الى القول بأنه لم يكن من الصعب على الدين الأرقى السائد فى أوربا الجنوبية أن يفصل الغـزاة الشماليين عن « عبـادة مؤسسة على البربرية والجهل » .

(١) The Autobiographies of Edward Gibbon, 2nd ed. (London, 1897), P. 267.

(٢) Miscellaneous Works of Edward Gibbon (Dublin, 1796), III, 67, مدون بتاريخ ١٤ من يولية (١٧٦٤) والأصل بالفرنسية .

ولم يحتف جيبون بالحروب الصليبية فقال عنها : « سأوجز فى هذا السرد الممل لما حدث فى هذه الحروب من الأعمال العمياء التى قامت بها القوة ووصفها الجهل » فكان قوله هذا ملخصا واضحا لرفضه القوى لما أصبح فيما بعد موضوعا لقصة « الطلسم » .

« ان تاريخ ريشارد الأول ملك انجلترا وحربه الصليبية ضد المسلمين قد يعجب من ناحية غرائب الأعمال . كان ريشارد بطلا حقا فى نظر الرهبان . انه كان يمثل وحشية المصارع الرومانى القديم ، وقسوة الطاغية ، وقد استخدمها دون نجاح فى قضية أخرست فيها الخزعبلات صوت الدين والعدالة والسياسة وضد أمير من أرقى الأمراء (الحكام) فى التاريخ ! فما أقل ما يجب توجيهه من اهتمام الى ريشارد ! أضف الى ذلك أن هذه الحادثة قد وقعت منذ زمن بعيد ودفنت فى ظلمات العصور الوسطى فهى لا تثير اهتماما كبيرا اليوم [1] » .

وكان جيبون على معرفة تامة بعصره ، وكان يلذ له أن يسميه بالعصر الفلسفى ، وقام بغربلة ونقد الحقائق التى تجمعت بكثرة حول موضوع دراسته الكبير نتيجة الجهد الصابر الذى بذله العلماء وخاصة چان مابيون من طائفة البندكتيين الفرنسيين ، ولوى دى تيّمون الچانسنى ، والقيم على الكتب الايطالى لودوڤيكو موراتورى ، وسيطر على التفصيلات التى لا تدخل تحت حصر والتى مرت بهذا الاختبار وحولها الى تاريخ متماسك ، وجَسَّم ما تركه ڤولتير وهردر فى هيئة خطوط أولية تتخللها التعليقات ، وعلق ج.م. يونج آخر من ترجم لجيبون فقال : « اذا قلنا ان جيبون قد طبق آراء القرن الثامن عشر وأفكاره على علم القرن السابع عشر فاننا نكون قد

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٦٤ ، وكتب بالمعسكر الحربى بونشستر فى ٢٦ يوليو ١٧٦١ .

حددنا مركز جيبون فى الحركة الأدبية الأوروبية تحديدا دقيقا » ويعد كتابه فى انحطاط وسقوط الامبراطورية الرومانية — بما فى انشائه الضخم من تناسب يدعو الى الاعجاب — عملا فنيا رائعا على النمط الكلاسيكى الحديث ، وهو أشبه بكاتدرائية القديس بطرس اذا شبهنا كتاب بوسويه بالمعبد الاغريقى ، وكتب هردر بكاتدرائية قوطيه لم يتم بناؤها . وقد أبدى جيبون أسفه لأن فرنسا « لم تشكل اللغة وتضبطها حسب النغم المطلوب الصحيح وهو الطريقة الخاصة بأسلوب الكتابة فى التاريخ » (١) . وقام جيبون بتجارب كثيرة قبل أن يصل الى « عزف النغم المتوسط بين الحوليات وأسلوبها الممل من ناحية ، والخطابة البلاغية من ناحية أخرى » (٢). الا أنه كان يعتقد أن « التاريخ أحب أنواع الكتابة لأنه يستطيع التشكل حسب أرقى القدرات أو أدناها » ولم يدهش لوجود كتابه « على كل مائدة وكل نضد تتخذه السيدات للزينة تقريبا : فالمؤرخ يتوجه ذوق العصر وميله » (٣) .

وقد صمم جيبون تاريخه «ليربط تاريخ العالم القديم بتاريخه الحديث» فبدأ بالامبراطورية الرومانية فى عهد الانطونيين « وهى الفترة التى بلغت فيها أحوال الجنس البشرى غاية السعادة والازدهار » وتتبع انحلالها حتى انقراض آخر ما بقى منها فى القسطنطينية فى القرن الخامس عشر حين كانت ايطاليا متأهبة للسير بالعالم مرة أخرى فى طريق الاستنارة . وكان جيبون مقتنعا بأن « الحروب وتصريف الشئون العامة هما أهم موضوعات التاريخ » ولذلك كانت عنايته بالأحوال الاجتماعية والاقتصادية والآداب والفنون

(١) ترجمة جيبون لحياته بقلمه ص ٢٧٨ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٠٨ .

(٣) المصدر السابق ص ٣١١ .

أقل بكثير من عناية هردر وڤولتير بها ، وهو فى هذا يشبه مؤرخى العصر القديم الا أنه يجعل القــارىء يحس احساسا مستمرا بأهميتها وذلك بما يورده من الاستطرادات الموجزة ، كالاستطراد الخاص بالبارود الذى جاء فيه : « لو أنا قابلنا بين النجاح السريع لهذا الكشف الضار والبطء المضنى فى تقدم العقل والعلم والفنون السلمية فان الفيلسوف تبعا لمزاجه قد يضحك أو يبكى لحماقة الجنس البشرى » . وبينما هو يتفق مع ڤولتير فى اعتبار فترات الثقافة العالية حوادث عارضة قصيرة الأجل اذا به لا يشارك ڤولتير وازلان مخاوفهما بالنسبة لمستقبل الحضـــارة فى أوربا ، اذ بلغ التنظيم السياسى من الثبات والتفوق فى الفنون وآلات الحرب من الضخامة مبلغا يستحيل معه حدوث غزو من البرابرة « لأنه يتحتم عليهم قبل أن يتمكنوا من الغلبة والفتح أن يتخلوا عن الهمجية » .

هذه الكلمات المليئة بالثقة والمنشورة فى عام ١٧٨١ فى المجلد الثالث من مؤلف جيبون لم يجد عليها جديد فى تاريخ جيبون الكامل فى ١٧٨٨ ، ثم اندلعت الثورة الفرنسية فى العام التالى [١] كأنها ترد ساخرة على الساخر الكبير ، وفى عام ١٧٩٢ كتب جيبون الى بعض أصدقائه الانجليز من سويسرا حيث اعتكف يقول :

ما أغرب العالم الذى نعيش فيه ، لعلكم توافقون على أنى مؤرخ جدير لحدما بهذا الاسم الا أنى بعد النظر بنزاهة الى الأزمنة القديمة والحديثة ، لا أجد فيها زمنا يشبه الزمان الحالى . أين يقف هذا الفيضان الجارف وهذه المؤامرة من الجمـــاهير على ذوى المكانة والملكية ؟ يبدو أن أوربا كلها قد

(١) « ان الحضارات القديمة قضى عليها برابرة مجلوبون من الخـــارج أما نحن فاننا ننتج برابرتنا » انظر W.R. Inge فى كتابه The Idea of Progress (Oxford 1920)P. 13.

مسها الداء وحيثما يستطيع الفرنسيون أن يشعلوا قبسا فانهم قد يفجرون لغما [1] .

وقد طوحت الثورة الفرنسية بالتأليف التاريخى فخرج عن فلك الاستنارة ، واضطر المؤرخون بعدها أن يدخلوا فى حسابهم الحركات الشعبية ، وأن يظهروا على الأقل الشك فى ثبات أى نظام اجتماعى ، وآن الأوان بذلك لانتشار نفوذ هردر وكان الجزء الرابع من كتابه « أفكار فى التاريخ » قد وضع بعد نشوب الثورة بثلاث سنوات وهو يواجه عند ذاك المستقبل بهدوء .كذلك كان الأوان قد آن لاحياء مؤلف ايطالى كاد ينسى وهو « العلم الحديث » لجانباتستاڤيكو الذى كان قد ظهر فى شكله النهائى فى ١٧٤٤ أى فى السنة التى ولد فيها هردر .

كان ڤيكو أكثر المفكرين التاريخيين فى القرن الثامن عشر استقلالا وأشدهم انعزالا وكان يتحتم علينا ، اذا اتبعنا الترتيب الزمنى ، أن نبدأ به دراستنا هذه للتاريخ ، الا أن انعزاله جعل من الأيسر معالجة الموضوع عن طريق البدء بهردر . هذا وقد سبق ڤيكو فى كشوفه الى كثير من كشوف هردر [2] الا أنه وصل اليها معتمدا على مادة أقل حجما وأصعب انقيادا اذ كان

(١) Gibbon, Miscellaneous Works, II, 225, 229.

(٢) تحدث همان عن (العلم الحديث) الى هردر فى خطاب مؤرخ فى ٢٢ ديسمبر ١٧٧٧ ولكنه لم يذكر شيئا عن مميزاته أو أهميته ، أما جيته فانه سمع عنه حين كان بايطاليا ويحتمل أنه تحدث عنه بعد رجوعه الى ڤيمار فى ١٧٨٧ وقد كانت ظهرت اذ ذاك ثلاثة أجزاء من الأجزاء الأربعة لأفكار فى التاريخ . وقد ذكر هردر ڤيكو لأول مرة ١٧٩٧ أى بعد ستة أعوام من نشره الجزء الأخير على أمل تخليد ذكرى خدماته للدراسات الانسانية
Briefe zur Beförderung der Humanität, Brief 114).
ولما كان من عادة هردر أن يذكر مصادره فلذلك لا يحتمل أنه أخفى ما هو مدين به الى ڤيكو . انظر بنديتو كروتشه فى فلسفة جامباتستا ڤيكو وترجمة R.G. Collingwood ، (نيويورك ، ١٩١٣) ملحق رقم ٢ ؛ ومقدمة ترجمة حياة جامباتستا ڤيكو لنفسه وترجمة M.H. Fisch, T.G. Bergin (ايثاكا ، نيويورك ١٩٤٤) .

وصوله اليها عن طريق هوميروس لا عن طريق الشعر الشعبي لأوربا الشمالية، وعن طريق النظم الرومانية لا عن طريق النظم فى العصور الوسطى ، وعن طريق الرمزية الدينية عند اليونان والرومان دون مقارنتها بمثيلاتها عند الشعوب المتأخرة فى العالم الحديث ، وقد طمع ڤيكو فى أن يجعل من التاريخ « علما جديدا » Seienza Nuova أن المنهج التخريجي للعلوم غير الرياضية لم يكن حين نشر مؤلفه فى ١٧٢٥—١٧٤٤ قد تهيأ ، بل ان هذا المنهج لم يكن قد صلح بعد تماما لاستعمال هردر بعد ذلك بجيل من الزمان .

كان ڤيكو يؤلف وهو تحت رقابة محاكم التفتيش ، فلم يستخرج أمثلته للأفكار والطقوس الدينية البدائية من الكتب المقدسة العبرية ، واضطر أن يترك التاريخ العبرى خارج نطاق دراسته التاريخية ، وعلى الرغم من أن لغة الفلاحين الايطاليين وعقليتهم قد هيأتا له لمحات فيما قبل التاريخ، الا أنه لم يبحث عنها أيضا فى روايات الرحالة الذين زاروا المتوحشين والهمج. ونفذ ڤيكو بالحدس المجرد الى ما دوّن عن الأحوال الاجتماعية التى طواها النسيان فى الآداب الكلاسيكية اليونانية والرومانية ، ونافس بملاحظاته هردر فى قوة الحاسة الانثروبولوجية كما يظهر فى ملاحظته الآتية :

كانت سنابل الحب تسمى تفاح الذهب ؛ فهى كانت حتما أول ذهب فى العالم فى وقت كان فيه الذهب المعدنى لا يزال خاما ، وفن تصفيته وتحويله الى سبائك أو صقله وتجميله غير معروف ، ولابد أن الأصواف الرفيعة سميت فيما بعد بالذهبية للتعبير عن فكرة كبر الثمن والندرة ، لأنه جاء فى أشعار هوميروس أن اتريوس حزن عندما سرق ثيستس فراءه الذهبية . وأن الأرجونوت سرقوا الفراء الذهبية لبلاد البحر الأسود ، وكلمة mélon معناها عند اليونان التفاح والأغنام ؛ والتفاحة الذهبية التى

أحضرها هرقل أو جناها من اسبيريا ، لابد أنها كانت من القمح ؛ وهرقل بلاد الغالة الذى يخرج من فمه حلقات من هذا الذهب ويقيد الناس من آذانهم قد يكشف فيما بعد أنه أسطورة خاصة بالحقول . ولذلك ظل هرقل الآله الخاص بالكشف عن الكنوز التى كان الهها « ديس » (وهو نفس الآله پلوتو) الذى يختطف پروزرپين (وهذا اسم آخر للالهة سيريس أو القمح) الى العالم السفلى الذى وصفه الشعراء وقالوا ان أول بلاده نهر الستيكس وثانيها أرض الموتى ، وثالثها الأغوار السحيقة . ومن هذه التفاحة الذهبية جعل ڤرجيل وهو أعلم الشعراء بأخبار الأبطال الأولين الغصن الذهبى الذى حمله انياس الى الجحيم أو العالم السفلى[1].

ان التاريخ الرومانى الذى لم ير فيه جيبون شيئا يماثل الثورة الفرنسية هيأ لڤيكو أن يكشف عن الدور الكبير الذى قام به جمهور الشعب المجهول . ولما كان جيبون قد قصر اهتمامه على الامبراطورية وحدها فانه عجز عن ادراك المعنى التام لتاريخ روما الذى وصل اليه ڤيكو عن طريق الرجوع الى دراسة الجمهورية وآثار الأحوال الاجتماعية التى لم يدونها التاريخ . وكان أول عهده بهذه الآثار حين كان يبحث وهو أستاذ للقانون فى جامعة نابولى ، أجزاء من قانون الألواح الاثنى عشر الذى كان يفترض أنه من عمل الحكام العشرة فى مطلع القرن الرابع بعد تأسيس روما . وبالرغم من أن جيبون لم يكن على علم بمؤلفات ڤيكو فانه حين بحث تلك الأجزاء عند دراسته لأسس المدونة القانونية لجستنيان أظهر الشك فى الرواية المأثورة التى تقول بأن الحكام العشرة مدينون بمادة هذه القوانين لهرمو دوروس ، وهو يونانى حكيم قام بأسفار كثيرة ،

(١) انظر مبادىء العلم الحديث Principi di Scienza nuova وفقا للطبعة الثالثة الصادرة فى عام ١٧٤٤ (ميلانو ١٨٣٦) ص ٢٨٨ ــ ٢٨٩ .

ولكن جيبون لم يستمر فى شكه الى حد ملاحظة أن بعض هذه القوانين كان يتصل بأحوال اجتماعيـة ترجع الى ما بعـد عصر الحكام العشرة . أما ڤيكو فانه وصل الى هذه الملاحظة وأدت به الى الفحص عن أشـياء أخرى فى العصور الأولى للرومان حتى وصل به الأمر الى الشك فى جميع التواريخ السابقة للحروب الفينيقية . فتلك الحوادث السابقة كانت على حد قوله تتحلل الى « ذكريات غامضة وخيالات مضطربة » . ومع ذلك فانه لم يكن راغبا فى التخلى عن بحث أصول الشعب الرومانى باعتبارها شيئا مفقودا . فاذا انعدمت السجلات فان الشىء الكثير تبطنه اللغة والأساطير والشعر « واذا كانت لغة الأمم القديمـة قد ظلت مستخدمة حتى بلغت النضج فانها يجب أن تكون شاهدا له أهميته على عادات العصور الأولى للعالم »[1] وفكر ڤيكو فوجد فى اللغة اللاتينية أدلة على النشأة الهمجية والريفية عند الرومان ، فكلمة (Lex) ومعناهـا القانون كان معناها فى الأصل مجموعة من ثمار البلوط ثم أصبحت تعنى مجموعة من أى نوع من الخضر ، وامتد معنـاها فأصبح يقصد بهـا جمـاعة من المواطنين ، ثم أطلقت على القانون الذى تصدره مثل هذه الجماعة . واستطاع ڤيكو بمثل هذه الاشتقاقات أن يفترض الفروض فيمـا يتعلق بالنظم الأولى ، وأن يستنتج أن اللاتين واليونان يرجعون الى أصل واحد .

أما الخيال المضطرب الذى يتخذ صورة الأساطير والقصص والشعر فانه مكنه من معرفة طريقة تفكير الشعب بأسره وهو لا يزال بعد عاجزا عن التفكير المجرد ، وقد وردت عبارة فيما كتبه الفيلسوف اليونانى المتأخر يامبليكوس وهى أن المصريين ينسبون الى الاله هزيس المثلث العظمة كل المخترعات النافعة فى حياة الانسان ، فوضحت هذه العبارة لڤيكو الكتب

(١) المصدر السابق ص ٩٩ .

المقدسة للشعوب القديمة ، ونسبة القوانين والنظم الأولى لبعض المشرعين ممن عرفوا ببعد النظر كهرمودوروس أو الحكام العشرة ، وأدرك لمحات عن العقلية البدائية فى شعر هوميروس ومن الواضح أن هوميروس لم يكن فردا ولكنه كان « الشخصية المثلى أو البطولية للشعب اليونانى » [١] وان اوديسيوس وهو يبحث عن الأعشاب ليسمم سهامه أثر من آثار عصر التوحش ، والمحاكمات الهوميروسية بطريق المبارزة ومزاج اخيلاوس العنيف المضطرب كان لها ما يماثلها فى العصور الوسطى الاقطاعية « فالعهود البربرية ترجع مرة أخرى » [٢] .

ووصل ڤيكو عن هذا الطريق الى القول بأن النظم الأولى تتضمن حكمة الجنس البشرى« وتمثل الأحكام التى لا مجال للتفكير فيها ويشترك فى الاحساس بها طائفة بأسرها ، أو شعب بأسره ، أو أمة بأسرها ، أو الجنس البشرى كله » [٣] واذا ما رتبت هذه النظم ترتيبا زمنيا على وجه التقريب فأنه قد يخرج منها ما يفيد التاريخ : وهو تاريخ مجهول صاحبه تماما ليس فيه آلهة ، أو أبطال ، أو مشرعون . وتبرز فيه العناية الآلهية وهى تهدى الانسان بغرائزه حتى يصل الى مرتبة ادراكه لذاته ، وقد مر الانسان فى وصوله اليها — وهى المعرفة الحقة لماضيه — بثلاث مراحل :

فالمرحلة الأولى وهى عصر الآلهة ، الذى كانوا ينسبون فيه تقدم الحضارة الى هبة أو مشورة الهية مباشرة وانتقلت هذه المرحلة تدريجيا الى عصر الأبطال وفيه نسب التقدم الى أفراد عظام من المشرعين والحكام والفلاسفة ، وبدأت هذه المرحلة أخيرا تنتقل الآن الى عصر بنى الانسان

(١) المصدر السابق ص ٤٨٦ « كانت الشعوب اليونانية هى هوميروس هذا
Essi popoli Greci furono quest'Omero ».

(٢) المصدر السابق ص ٣٨٩ .

(٣) المصدر السابق ص ٩٧ .

فيرون أن هذا التقدم هو فى الواقع من عمل تعـاونى مجهول صاحبه فى الغالب وقامت به شعوب بأسرها . ولكل مرحلة من هذه المراحل ما يناسبها من أشكال الحكم وهى (بهذا الترتيب) الحكومة الثيوقراطية أو حكم الكهنة ، والارستقراطية أو حكم المتـازين من الأفراد ، والجمهورية أو الملكية المقيدة وفيها يحكم الشعب نفسه . وكل مرحلة ثقافية ، وكل نوع من أنواع الحكومات يعتمد على مرحـلة فى نمو الطبيعة الانسانيـة ، فطبيعة الشعوب فى مبدأ الأمر تكون خاما ثم تصبح قاسية فرحيمة فمحبة للاستطلاع العقلى وأخيرا تصبح منحلة » [١] .

وصفة الانحـلال ، هذه تمثل مرحـلة أخرى فى الجماعة تزيد على المراحل التى ذكرها وهى مرحلة يتردى فيها الشعب الذى يحكم نفسـه فى هاوية الفردية الأنانية فلا يتعاون فى سبيل الصالح العام . ويبين التاريخ مرحلتين محتملتين للحضارة التى تنحل على هذا النحو ، فهى قد تقع فريسة للبرابرة ، وهم أقوام يعيشون فى مرحلة الآلهة والأبطال فيجددون قواها ويردونها الى عصر بنى الانسان الذى يسميه فيكو كذلك بعصر العقل ، ولكن اذا استعصى وجود مثل هؤلاء البرابرة فانها تدمر نفسها بالفوضى ووصف فيكو هذه الفوضى وكأنه يتنبـأ اذ ينطبق وصفه على أوربا بين الحربين العالميتين فى القرن العشرين :

« واذا فسد أمر الشعوب بهذا المرض الأخير الذى ينتاب ضمير المواطنين فأن العناية الآلهية تلجأ فى شدة المرض الى هذا العلاج الحاسم ، وهو آنه لما كانت مثل هذه الشعوب قد اعتادت كالحيوانات أن تفكر فى فائدتهـا الفردية فحسب ، وأصبحت تعيش فى انعزال روحى ، وانعزلت أمانيها حتى

(١) المصدر السابق ص ٦١٧ ــ ٦١٨ .

انه لا يمكن أن يتفق فيها اثنان مما ينتج عنه قيام الشيع العنيدة والحروب الأهلية اليائسة فتتحول المدن الى غابات والغابات الى جحور يختبىء فيها النـــاس وتتمخض العقول الخبيثة عن آراء مشئومة هى أشـــد هولا من الوحوش الهمجية بتفكيرها الذى هو أسوأ من همجية الحس الأولى — لما كان الأمر كذلك فان هذه الشعوب تبدأ فى تثبيط أعمالها نفسها [1] » .

ذلك أنها تجعل كل فرد فى حاجة الى مجرد ضرورات الحياة ، وهذه الضرورة القصوى تضطر بعض الناس الى الاتحاد لانتاج السلع المادية ، واذا ما شاهد غيرهم ما كسبوه من ميزات اندفعوا لتقليدهم والرجوع الى الفضائل البسيطة التى كان عليها العـــالم فى أول أمره — الى الاخلاص والصدق والدين وهكذا فان العناية الالهية تعمل عن طريق الناس وضد ارادتهم وقصدهم فتحفظ الجنس البشرى وتجدد الحضارة الى الأبد .

ثم ان تغلغل ڤيكو فيما قبل التاريخ أتاح له زاوية يطل منها على سير الانسانية ، فآمن بحكمتها اللاشعورية التى يمكن أن نثق بقدرتها على انقاذ الشعوب اذا عجز حكامها عن الحكم ومفكروها عن الهداية .

على أن اعتراف الناس بقيمة ڤيكو قد تأخر ، ولم يكن ذلك بسبب المكان والزمان غير المناسبين وحدهما وانما كان ذلك بسبب استرضائه لهما أيضا . فالجهد الذى بذله لوضع تفكيره فى الاطار الهندسى الذى مال اليه مطلع القرن الثامن عشر قد أقام عقبة بينه وبين قرائه ؛ لأنه حجب أفكاره بدلا من توضيحها وظل خياله الجامح يخرج عن الاطار ويضطر للرجوع اليه بقوة الارادة مما أدى الى الاستطراد والتكرار اللذين زادا فى صعوبة الأسلوب الجامد بما فيه من مصطلحات لاتينية والذى يغلب عليه الغموض

(١) المصدر السابق ص ٦١٧ ـ ٦١٨ .

ولا سيما فى المواضع التى احتاج فيها الى اخفاء نزعاته الفكرية عن محاكم التفتيش أو الحكام المستبدين الأجانب ملوك ناپولى سواء آكانوا من النمسويين أم من الأسبانيين . أما هردر فانه وان كان أكثر وضوحا وترتيبا الا أنه كان ينقصه ، باستثناء بعض الفقرات ، سحر الأسلوب الذى جعل لبوسويه وڤولتير وجيبون مثل هذا الانتشار الواسع وكان دائبا لا يهدأ فى البحث عن الأفكار ، فلم يصقل كتبه وترك تواريخه ناقصة ، ومع ذلك فان أفكار هردر وڤيكو حثت على كتابة التاريخ كتابة يطلق فيها المجال كاملا للحواس والخيال المثير والاستجابة العاطفية وتجعل الماضى زاهيا ملونا ينبض بالحياة كالحاضر ، بل تحيله أجمل منه بسبب الغرابة والاهتمام لبعده عنـــا .

وهكذا ظهر قبل الثورة الفرنسية نثر يصلح للروح الشعرية فى كتابة التاريخ وذلك فى القصص وترجمة حياة چان چاك روسو بقلمه ، ووصلت قصة جوته (جوتزفون برليشنجن) بهذا النثر الىمنتصف الطريق المؤدى الى المسرحية التاريخية وجمعت الثورة الفرنسية بقوة بين الخطوط المتلاقية للأدب الرومانسى والمؤلفات التاريخية المـــائلة له ، وانتشرت الحقيقـــة التى تقول بأن أى مجتمع لا يخلو من التغير فاضطرت الناس الى تأمل الماضى سواء آكان هذا التأمل مصحوبا بالأسف على شىء مضى لا يدرك سحره الا بفقده ، أم أنه كان يرمى الى البحث عن عون ومثل لبناء مستقبل أفضل . وقد ذكر نيبور بعبارة جلية واضحة أنه : « قد مر زمن كنا نشاهد فيه حوادث كثيرة لم نسمع بها ويصعب تصديقها حتى انتبهنا الى نظـــم كثيرة نسيت وتداعت على صوت سقوطها »[1] . وأن الجيل الحالى يستطيع

(١) Niebuhr, History of Rome, tr. Julius Hare ond Connap Thir wall (London, 1855), I, ix.

وهو يواجه مصيرا مماثلا أن يقدر أثر التقلبات الثورية التى هزت الحضارة الغربية مدة خمس وعشرين سنة ، وقد نشأ من جيشان العاطفة ، وانتشار الشعور بأهمية الحوادث الجارية ، وأنها من حيث ضخامتها وتحديدها للمصير لا تقل خطرا عن أعظم الحوادث التى مر بها العالم ، وما كشف عنه حديثا واستثار الخيال وهو أن مسرحها عالم غير محدود ، وأن وراءها زمنا ضخما سحيقا ، وأن تأثيرها قد يمتد الى مستقبل غير محدود — نشأ من كل أولئك نوع من التأليف التاريخى لا يضارع فى شاعريته وقوته .

الفصل الرابع

جاذبيـــة الأصـــول

نيبور واتفريد موللر

دفعت الثورة الفرنسية بجماهير بنى الانسان الى المقام الأول فى نظر المؤرخين ، وها هو ذا جوته وقد شهد المتطوعين غير المدربين من أبنـاء الجمهورية الفرنسية يصدون فى موقعة ڤالمى خيرة جنود أوربا المدربين يتنبأ وكان يراقب المعركة من الخطوط البروسية قائلا : « هنا يبدأ اليوم عصر جديد فى تاريخ العالم » حقا ان ارتقاء طاقة الانسان العادى هدد الحضارة فقام عصر الارهاب وحول نابليون نشاط الشعب الفرنسى الى حروب الفتح، ولكن القومية الفرنسية لم تلبث أن أوجدت عدلا يوازنها حينما أيقظت الشعور القومى فى الشعوب الأخرى ، فأظهر الاسبانيون عبقريتهم فى حرب العصابات ، ونهض البروسيون سريعا بعد هزيمة يينا ، وحولت مقاومـة الروس العنيدة التيار ضد نابليون ، ودفعت هذه الحوادث المؤرخين الى دراسة الثورات الشعبية فيما مضى ولا سيما فى الجمهوريتين الكبيرتين : روما وأثينا بحثا عن أوجه الشبه التى تفسر الحاضر ، كما أنها دفعتهم كذلك الى قراءة الأدب الشعبى للوصـول الى تبين روح الجمـاهير فى مختلف العصور والبلاد . وتاريخ روما لمؤلفه بارتهولد نيبور يقع فى ملتقى الاهتمام بالشئون السياسية والاهتمام بالأدب فى العصر القديم .

كان نيبور مرهف الحس واسع الخيال كثيرا ، وقد اعترف لبعـض أصدقائه حين ألفاه صديقه شديد الاضطراب بأنه : « لا يستطيع أن يتحمل

قراءة المآسى المسرحية القديمة أكثر من صفحات معدودات ؛ فهو يتمثل أمام عينيه بوضوح أشخاص الرواية وهى تعيش وتتحدث وتعمل وتتألم ، فيرى انتجون وهى تقود أباها الضرير ، ويرى الكهف وأوديب الشيخ وهو يدخل فيه ويسمع لحسن حديثهما وهو واثق أنه النغم الأصيل للغة الاغريقية على أنه يعجز عن نقله ومحاكاته بلغته البربرية »[١] وكان قد أشرف على قراءته اليونانية واللاتينية منذ صباه يوهان فوس الذى ترجم هوميروس الى الألمانية وعلّم نيبور أن يستخلص من الكتاب القدماء (الكلاسيكيين) ما كانوا يسلمون به فلا يذكرونه الا عرضا كتصورهم للعالم والآلهة وعاداتهم المنزلية وطريقة معيشتهم ، وهكذا أمكنه أن يعرف هوميروس وفرجيل كما لو كانا معاصرين له ولا يفصلهما عنه الا فاصل مكانى ، أما ذاكرته الخارقة فانها بالاضافة الى أنها هيأت له أن يعرف قبل سن الثلاثين تسع عشرة لغة منها اللغات السلافية والشرقية ، فانها جعلته يطمح فى اتقان معرفة اللغات الميتة اتقانه للغات الحية . وكان مولده فى عام ١٧٧٦ ، وقرأ فور ظهورها روائع جوته وهردر وشللر ومؤلف فردريك أغسطس ولف الذى بدأ عصرا جديدا وهو « مقدمة لدراسة هوميروس » كما ألم بالمؤلفات الأجنبية التى بعثت نهضة الأدب الألمانى كمؤلفات شكسبير وأوسيان والادا والأغانى الشعبية الانجليزية والاسكتلندية ، ومنعه ضعف صحته من الانتظام الدراسى ومكنه انعزاله فى قرية دنماركية من اشباع ميله الى العيشة فى حلم عن العالم الماضى ولكن خطط والده — وكان الشخص الوحيد الذى بقى على قيد الحياة من أعضاء البعثة الدنماركية الشهيرة [٢] الى داخل آسيا

(١) Friedrich Perthes, Lebensnachrichten über Barthold Georg Niebuhr (Hamburg. 1838), 1, 35.

(٢) شملت رحلة نيبور أكثر الأقطار العربية والتركية ولم تكن قاصرة على مصر وحدها انظر Hogarth : The Penetration of Arabia.

الصغرى — دفعت نيبور الى الحياة العملية ، وقضى ضعف جسمه بألا يكون مستكشفا كأبيه ، ووقفت ثرثرته البريئة وحماسته الساذجة دون العمل فى الدبلوماسية ولكن بقى أمامه احتمال تقلد وظائف الدولة فأعد لها بدراسة متعمقة للقانون الرومانى والتاريخ الدستورى والاقتصاديات والرياضيات والعلوم . وفى التاسعة عشرة من سنه أصبح كاتب السر لوزير المالية الدنماركى وأتم تعليمه بعد ذلك بثلاث سنين ١٧٩٨ — ١٧٩٩ بالسفر الى انجلترا التى كان والده معجبا بدستورها ؛ لأنها قاومت تسرب الأفكار الديمقراطية الفرنسية ، وبالدراسة فى أدنبرة حيث شرح له پلايفير نظريات هتون فى الوحدة والتشابه ، وهى أساس علم طبقات الأرض الحديث .

وترك العمل فى خدمة الحكومة الدنماركية وانتقل الى العمل فى خدمة الحكومة البروسية فى وقت مشئوم عند نشوب معركة يينا واضطر نيبور الى الهرب من برلين الى ممل وفيها أشرف على تموين الجيش البروسى الى أن مرض بالتيفوس وبعد شفائه عاون البارون فون شتين على اصلاحاته ، ومنها الغاء رق الأرض الذى كان له أثره فى توحيد الشعب البروسى وجمع صفوفه ضد نابليون ؛ وفى عام ١٨١٠ بعد اثنتى عشرة سنة فى خدمة الحكومة تقلد عملا أقرب الى ميوله وهو تدريس التاريخ الرومانى فى جامعة برلين . وفى هذا المستقر الهادىء تطلع الى ماضيه القريب وهو يحس بالنصر لمروره بأقسى الاختبارات التى يمر بها رجل الأعمال قال : « كان دخولنا هذه المدينة لأول مرة فى وقت تفكك الدولة التى انتقلت اليها ، والآن بين الضيق والحزن مررت بمشاهد أخطر بكثير مما مر فى حياتى السابقة . كان مركزى قلقا دائما فاضطررت أن أكون متبصرا فيما أعمل هادئا حازما ، فكانت ظروف ذلك الوقت شبيهة بمأساة مسرحية كبرى أعقبت حياة الطبقة الوسطى المملة التى عشتها فيما سبق ، وتعلمت أن أخاطر بكل شىء كما لو كنت

فى كل خطوة أخطو على رأس دبوس دقيق وكان الحظ فى جانبى ، ورسا أخيرا حطام سفينتى الذى تعلقت به طويلا على البر ، وعلى هـذا البر ، وجدت ملاذ الأمانى النافعة ؛ أى الفراغ الذى يمكننى تخصيصه للبحث والأدب تحيط به الظروف الصالحة الموافقة للغاية » (١) .

وكان من بين زملائه بالجامعة ساڤينى الذى كان مهتما بتأويل القانون الرومانى تأويلا جديدا ، وبوتمان وهينـدروف من تلامذة ف . ا . ولف الشهير الذى وسع دائرة الدراسة الكلاسيكية فلم يقصرها على اعتبارات نقد النص وجمال الأسلوب وجعلهـا تشمل دراسة كل مظاهر الطبيعـة الانسانية فى العالم القديم ، واعترف نيبور فى مقدمة المجلد الأول من كتابه « تاريخ روما » بالعـون الذى قدموه له ، فقال : « من أنواع الالهـام ما يستمد من وجود الأحبة واجتماعهم وله تأثير مباشر فتتبدى لنا فيه ربات الفنون ويوقظ فينا الرغبة والقـوة ، ويجلى بصيرتنا وانى مدين له مقر بجميله فى كل خير فى حياتى » وأدرك نيبور أنه كان يضيف الى علم صحبه وعلمه تلك النظرات النافذة التى كسبها من مزاولة الشئون العملية فقال : « ان رجوعى الى الدراسات التى حرمت منها طويلا بعد أن ملأت وفاضى بخبرات أخرى نعمة لا ينعم بها الانسان الا مرة فى الحياة (١) .

ووضع نيبور نصب عينيه عملا شاقا وهو تجديد المعارف الخاصـة بالحياة السياسية والنظم عند الشعب الرومانى مما أساء الرومان أنفسهم

---

(١) Chevalier (Christian) Bunsen, The Life and Letrers of Nibuhr (New York 1852) p. 247.
الخطاب الى چاكوبى المؤرخ فى ٢١ نوفمبر ١٨١١

(٢) Dietrich Gerhard & Wilhelm Norvin. ds., Die Briefe Barthold Georg Niebubrs (Berlin, 1926), 1, li;
مجموعة خطابات نيبور : الخطاب الى Dore Hensler. فى ١٨ سبتمبر ١٨١٢ .

فهمه الى حد كبير بعد زوال جمهوريتهم . ومن أمثلة ذلك أن ليڤوس — وكان يكتب تاريخه فى ظل رعاية أغسطس — لم تكن لديه فكرة واضحة عن أسباب الصراع بين العامة والاشراف (البطارقة) ولم يميز فى تاريخ روما فى عهدها الأول ، بين الرواية التى نسجت خيوطها فى روما وبين محاكاة أساطير البطولة الاغريقية .

ولد نيبور فى السنة التى نشبت فيها الثورة الأمريكية والتى ظهر فيها أول نص « لفاوست » ولذلك نراه قد تحرر بما جدّ فى عصره من أحداث سياسية وأدبية من توقير جيبون لعصر أغسطس وأهله ، واتجه اهتمامه الى القرون الأولى التى لم يتناولها جيبون وهى القرون التى طوّر فيها الشعب الرومانى بحرية النظم التى لا تزال موضع اعجاب العالم . وعجز المؤرخون الرومان لعصر الامبراطورية عن الاجابة عن الأسئلة المتعلقة بهذه القرون والتى كان جيل نيبور شديد الرغبة فى توجيهها ، ويشبه عجزهم هذا عجز العقليين والكلاسيكيين المحدثين فى القرنين السابع عشر والثامن عشر عن فهم العصور الوسطى ، والسابقون على نيبور ، باستثناء فيكو الذى لم يطلع نيبور أو من سبقه على مؤلفاته ، أخضعوا تاريخ نشأة روما للنقد السلبى المحض على وجه التقريب ، فسخر ڤولتير من المغامرات الاسطورية التى قام بها رومولوس وريموس والتى دونها ليڤوس ورفض « تأييدها أو دحضها ». وبيّن لوى دى بوفور فى مؤلفه الذى كان عنوانه رسالة فى عدم الوثوق بصحة أخبار القرون الخمسة الأولى فى تاريخ روما (١٧٣٨) أنه لم يبق بعد نهب الغاليين لروما ٣٩٠ ق . م الا مدونات قليلة ، وأن أول رومانى دوّن التاريخ — وهو فابيوس پيكتور الذى تأخر مجيئه الى عهد الحرب الفينيقية الثانية — اعتمد الى حد كبير على المراثى ومذكرات الأسر من الأشراف الذين نزعوا الى تعظيم أنفسهم كما يتضح من ادعاء عشيرة قيصر اليوليانية

أنها تنحدر من ڤينوس عن طريق انياس ، وأقر نيبور : « أنه ليس هناك تاريخ كالتاريخ الرومانى نصل فيه الى مثل هذا العصر المتأخر قبل الوصول الى ما هو مؤكد على وجه الاطلاق »[١] .

ومع ذلك فان أحداث أوربا فى نصف القرن الماضى قد أمدت نيبور بالوسائل التى يستطيع بها ، بالرغم من نقص المدونات والشك فى تفصيلات الحوادث ، أن يستعيد المعالم البارزة فى تطور النظم الرومانية ، أما الأدوات التى اعتمد عليها نيبور فهى وجه الشبه بين روما القديمة والعصر البطولى فى أوربا الوسطى ، وتفهم المؤلفات المأثورة عن جماعات لا عن أفراد ، وابتكار النظم السياسية وتقرير الاشتقاقات اللغوية الصحيحة ، واستخدام النقوش والأجزاء المبعثرة من الكتّاب الرومان لاكمال التواريخ المتصلة التى دوّنها المؤرخون ، والرغبة دون تحيز فى قبول ما هو غريب أو أجنبى فى الحضارة الماضية .

وقد عرف من اشعار Nibelungenlied[٢] التى كشف عنها فى قلعة بالتيرول ١٧٥٥ كيف يمكن أن تدخل الشخصيات والحوادث التاريخية فى القصص والأساطير ، وأهدى فون درهاجن أحدث ناشريها الى نيبور نسخة فى عام ١٨١٠ ، وتعكس هذه القصيدة حقيقة تاريخية وهى أن البرجنديين برياسة ملكهم جوندهار (جوتتر) قتلهم الهون فى القرن الخامس للميلاد ، وأن اتزل (آتيلا) وديتريش (تيودوريك) من أشخاص القصيدة

(١) Niebuhr, History of Rome, tr. Julius Hare & Connop Thirlwall (London, 1855), 1, IX.

(٢) ملحمة جرمانية كتبت سنة ١٢٠٠ تقريبا فى ألمانيا الجنوبية وبطلها سيجفريد ومعه البرجنديون والنيبلوبجن فى الأساطير الألمانية : أقزام يحكمهم الملك نبلونج ولهم كنوز كثيرة تحت الأرض والاستيلاء على هذه الكنوز هو موضوع الملحمة .

(المترجم)

هما شخصيتان تاريخيتان على الرغم من أنهما لم يشهدا القتال كما تقول القصيدة ولكن هذه النواة التاريخية قد اكتنفها ضباب البطولة فى أسطورة سيجفريد ونبوءة حوريات الدانوب ؛ وبعد الحوادث التاريخية بسبعة قرون تقريبا ، طلى ظاهر هذه القصيدة التى لا يعرف مؤلفها والتى نمت تدريجيا بالرواية الشفوية بطلاء من المسيحية وغرام الحاشيات الملكية فى صورتها الأخيرة التى رآها نيبور . وظن نيبور أن المؤرخ يستطيع أن يستعيد الشكل الأول للحوادث التى تغيرت على هذا الوجه لكثرة ما مرت به من عقول وذلك اذا عكس السير مسترشدا بما عرفه من الميــل الى انشاء القصص الأسطورى .

وتظهر مقدمة ولف لدراسة هوميروس (١٧٩٥) أن صدور الأثر الأدبى عن جماعة جرى أيضا فى العصر الكلاسيكى القديم ، فالروايات المختلفة الكثيرة فى نص الالياذة والأوديسة التى جاءت فى الشروح الهامشية القديمة على مخطــوط بالبنــدقية نشره العـــالم الفــرنسى فلوزان ١٧٨٨ ، واقتباسات قدامى المؤلفين من شعر هوميروس ومنهم أفلاطون وأرســطو وڤرجيل وهى اقتباسات لم ترد فى مخطوطاتنا ، أقنعت ولف أن روبرت وود كان على حق فيما ذهب اليه من أن فن الكتابة لم يكن معروفا عند الاغريق فى عصر هوميروس ، واعتقد ولف أن هوميروس ألف معظم الملحمتين شفويا معتمدا على القصص الأسطورى القومى ، الا أن المنشدين قد أضافوا الى تأليفه وغيروا فيه طيلة أربعة قرون تقريبا ونقلوه بطريق الحفظ حتى دوّن كتابة فى أثينا فى منتصف القرن السادس ق . م . بل ان النص قد تناوله بعد ذلك النحويون والناشرون بالتعــديل . وهكذا وصل ولف الى خلاصــة النتائج التى وصل اليها ڤيكو ولم يكن ولف قد اطلع على ما كتب وهى أن الشعب الاغريقى كان حقيقة لا مجازا هو هوميروس ، وما كان عند ڤيكو

تخمينات ملهمة الى حد كبير أيده ولف بعلمه الكلاسيكى الغزير وتصنيفه ونقده لمصادر معرفتنا بهوميروس . ولم يقتصر الأمر فقط على كتاب العصر القديم ومن بينهم المؤرخ يوسيفوس الذين أكدوا أن الملاحم الهوميروسية ألفت وانتقلت بطريق الرواية الشفوية ، بل ان قوة الذاكرة الخارقة عند الشعوب الأمية الحديثة أثبتت امكان هذا النقل الشفوى واحتماله حتى ليقال ان الشيوخ فى جزر هبريديس يحفظون من الشعر الغالى ما يفوق الالياذة طولا . وبالرغم من أن العلماء قد عجزوا حتى الآن عن الاتفاق على ما اذا كان لها مؤلف واحد أو أكثر فانه أصبح من الواضح بعد ولف أن القصائد المنسوبة الى هوميروس أشبه بالملاحم الشعبية الى حد كبير منها بالانشاء المقصود الذى يقوم به شاعر واحد ، كما هو الشأن فى النيـاذة فرجيـل .

وكتب نيبور عن حروب انياس يقول : « اننا لا نشعر باطمئنان الى نجاح الشاعر بعض الشىء فى رفع تلك الأشباح والدمى عديمة الشخصية للبرابرة العاديين الى مصاف المخلوقات الحية كأبطال هومـيروس ، ومن المشاكل التى قد تستعصى على الحل انشاء ملحمة شعرية لا تعتمـد على موضوع عاش قرونا فى الأغانى والقصص الشـعبية باعتباره ملكا شائعا للأمة »[١] . واتخذ نظرية هردر ووسعها (فى الجزء الثانى من مؤلفه الأغانى الشعبية ١٧٧٩) وهى النظرية التى تقول بأنه كان لدى الرومان شعر وطنى بطولى شبيه بشعر هوميروس ، ثم فقد حين طغت ثقافة الاغريق المتكلفة على الشعراء الرومان ، وقال نيبور ان بعض محتويات هذا الشعر قد بقى لحسن الحظ وخاصة فى ليڤوس فيما قيل انه حوليات تاريخية . « فما بدأ

(١) تاريخ روما لنيبور ص ١٤٧ .

شعرا أصبح عقيدة شعبية » (١) ، وعاش فى هيئة تاريخ . فما أشبه تاريخ روما القديم بالقصائد البطولية الجرمانية القديمة كأغنية هلدبراند التى نشرها مؤخرا جاكوب جريم بعنوان هلدبراند وهاتبراند . وكتب نيبور عن هذه القصائد عام ١٨١٢ ، يقول : « انى أجد فيها الطرف الآخر للممر المطمور الذى كشفت عن طرفه المقابل فى العالم القديم وسأبدأ بازالة التراب عنه » (٢) .

وأروع ما أنتجه العقل الشعبى الرومانى هو تاريخ الملوك .

ان أغنية آل تاركوينيوس حتى فى صورتها النثرية هى مع ذلك شعرية عن غير قصد ، ولا تبعد كثيرا عن التاريخ الحقيقى . فالقصة الكاملة لفقد تاركوينيوس ، والنذر بسقوطه ، ولوكريشيا ، وجنون بروتوس المسلم به وموته ، والحرب مع پورسينا ، ثم المعركة الهوميروسية الحقة فى بحيرة رجيلوس — كل أولئك تكوّن قصيدة ملحمية ، وهى من حيث قوتها وبراعتها تتقدم على كل ما أنتجه الرومان فيما بعد » (٣) .

وشبه نيبور دفاع هوراشيوس عن الجسر (٤) بالأغانى الشعبية اليونانية والتركية الحديثة ، وبالرغم من أنه لا توجد حادثة تاريخية صحيحة فيما بين تأسيس روما وطرد آل تاركوينيوس ، الا أن اللون الغالب على التراث كله يمدنا بمعلومات تاريخية .

---

(١) المصدر السابق ص ٢٠٩ .

(٢) حياة نيبور ورسائله ص ٢٥٠ ، الخطاب الى Perthes فى ديسمبر ١٨١٢ .

(٣) تاريخ روما لنيبور الجزء الاول ص ٢٥٩ .

(٤) فى عام ١٨٤٢ أحيا المؤرخ الانجليزى ماكولى هذه الواقعة وغيرها من الاساطير التاريخية الرومانية فى شكل منظوم وذلك فى كتابه المعروف ، أغانى من رومة القديمة ، مع مقدمة أذاع فيها نظرية نيبور .

« لقد تغلغلت فى هذا الشعر الروح الشعبية العامية وكراهية الظالمين ، وبه أدلة واضحة على أنه فى الوقت الذى كان ينشد فيه كانت بعض البيوتات الشعبية الأصل قد وصلت الى العظمة والقـوة ، وكل الملوك المحبوبين أصدقاء للحرية وخيرهم بعد الملك الصالح نوما هو سرفيوس الملك الشعبى. ويبدو الأشراف فى مظهر يبعث على الاحتقار باعتبارهم شركاء فى قتله ، وأنبل الشخصيات من الأشراف هم آل فاليريوس وآل هوراشيوس وهم من أصدقاء العامة (١) .

وكان لدى المؤرخ فابيوس پكتور منذ أول التهديدات التى وجهها العامة بالانسحاب من روما « تاريخ حقيقى اختلط بالقصص فى كثير من أجزائه » ، ووصل الينا لسوء الحظ فى حالة سيئة جدا ، ويمكن استعادة معناه الأصلى اذا حسبنا حسابا لما جرى عليه الناس قديما من اقامة الحق القانونى فى صـورة حادثة واقعية » (٢) . فالقصص تنبئنا الصـدق بشأن الدستور الرومانى ولا تنبئنا الصدق بشأن الأفـراد ، فلم يكن مجلس الشيوخ من ابتكارات رومولوس ولكنه كان نظاما منتشرا انتشارا واسعا فى العالم القديم ؛ ولم يستطع افلوطارخوس أن يدرك أن عـدد الثلاثين الرمزى يرد فى الأساطير وكذلك فى نظم رومة ، وكذلك الحروب الفولسكية يجب أن ينظر اليها على أنهـا مدى الزمن فى مجموعها . وبالرغم من أن « أكبر الاغريق والرومان رجاحة عقل اذا ما عالج الاشتقاق (٣) كان ينأى عن المعقول » فان علوم اللغويات الحديثة أظهرت أن كلمة (قنصل) كان معناها أصلا « زميل » وأن موقيوس سكيفولا كان يمثل وهو واضـع يسراه فوق اللهب لأن معنى مادة اسمه هو « يسار » .

(١) تاريخ روما ج ١ ص ٢٦٠ .
(٢) تاريخ روما ص ١٦٤ .
(٣) المصدر السابق ص ١٣ .

والخطأ الأساسى الذى وقع فيه الباحثون المحدثون فى الدستور الرومانى — ومنهم القانونيون المجربون مثل مونتسكيو — هو أنهم ظنوا أن الرومان يشبهونهم الى حد كبير [١] ، ولكن المؤرخ يجب أن يقر باختلافهم ويحاول فهمه.

« لقد اختلفت حالة القانون الخاص بالملكية الأرضية وأملاك الدولة فى روما القديمة اختلافا كبيرا فى خصائصها عن الحقوق والنظم التى تعودنا عليها حتى ان الخلط بين أفكارنا العادية عن الملكية وأفكار القدماء يؤدى الى أكبر الأخطاء فى الآراء المتعلقة بأهم مسائل التشريع الرومانى والتى يتحتم فى ظلها على صوت العدالة الحكم بادانة بعض الأعمال والاجراءات التى هى بريئة تماما ، أو احساسنا المبهم بالتحمس للشخصيات الكبيرة النبيلة يضطرنا الى الدفاع عن أخطر المشروعات والأعمال » [٢] .

واتفق أن موطن نيبور فى صباه دتمارش الجنوبية شذ عن النظام الأوروبى العام لملكية الأرض بوساطة الأمراء الاقطاعيين ، واحتفظ فى ظل الحكم الدنماركى بنظامه الحر فى ملكية الفلاحين للأرض ، فساعد ذلك نيبور على معرفة مغزى الصراع الاقتصادى فى الجمهورية الرومانية ، ولاحظ — كما لاحظ معاصره وردسورث فى شمال انجلترا — أثر ملكية الأرض فى تنمية الشخصية والروح الوطنية ، وحين قرأ فى أيام الثورة

(١) فى عام ١٧٤٨ الذى ظهر فيه كتاب مونتسكيو « روح الشرائع » كتب دافيدهيوم فى كتابه « بحث فى العقل الانسانى » يقول : « هل تريد معرفة عواطف الاغريق والرومان وميولهم ومجرى حياتهم ؟ اذن ادرس مزاج وأعمال الفرنسيين والانجليز ، فانك لن تخطىء كثيرا اذا طبقت على الاغريق والرومان معظم ملاحظاتك عن الفرنسيين والانجليز فالجنس البشرى لم يتغير فى كافة الأزمنة والأمكنة ولا ينبئنا التاريخ بجديد أو غريب فى هذا الشأن . »

(٢) تاريخ روما ١ : ٢٤ .

الفرنسية شرح هاينه العالم بالدراسات اللاتينية لقوانين الاصلاح الزراعى التى أصدرها طبريوس وجايوس جراكوس على أنها كانت ترمى الى توزيع الأراضى التى تملكها الدولة والتى فتحتها جيوش الجمهورية توزيعا أشمل على الشعب الرومانى — حين قرأ ذلك أصبح الاخوان جراكوس فى نظره من الأبطال. ولما ظهر كتاب سافينى « حق الملكية » (١٨٠٣) وهو من أوائل المؤلفات التى فسرت قانون الملكية الرومانى بدأ نيبور بوضع مقال فى تاريخ القوانين الاصلاحية الزراعية. وكتب الى صديقه فون مولتكه سنة ١٨٠٤ يقول: « لن يرضى عن ذلك أى شريف أو مالك أرض ، ولكنى سأكتب حسبما أفكر وأتحدث بقوة ايمانى الذى لا يتزعزع مما يوافق عليه الرومان القدماء ويثنون عليه لو أنهم كانوا لا يزالون يعيشون بيننا »[١]. وفى المجلد الثانى من كتابه: « تاريخ روما » شبه أراضى الدولة فى عهد الرومان بالملكية الحرة (الجماعية) فى الهند وايرلنده قبل الفتح البريطانى فقال: « من كوارث الأخطاء التى جلبت الدمار على البلاد بالرغم من النوايا الطيبة من ناحية الحكومة أن طبقة الزمانداريين فى البنغال نجحت فى عهد اللورد كورنواليس فى الحصول على الاعتراف بهم أمراء مستقلين وملاكا مطلقين للأرض[١] ، وكذلك فى ايرلندا بعد ثورة تيرون سبب الجهل بالقانون الوطنى مصادرة جميع الأراضى الخاصة برعايا الزعماء الثائرين»[٢].

ودل اغتيال آل جراكوس على يد أعضاء من طبقتهم الاجتماعية على تدهور العبقرية السياسية فى الجمهورية الرومانية والتى ازدهرت نتيجة لرغبة الأشراف فى منح الحقوق تحت الضغط ، ورغبة العامة والجماعات

---

(١) تاريخ روما ٢ : ١٣٥ .

(٢) تاريخ روما ص ١٥٤ .

المحرومة الأخرى فى قبول المنح الجزئية بدلا من المخاطرة بشن الثورة فى سبيل الحصول على المساواة المطلقة . وفيما يتعلق بتحريف المعاصرين للمعنى المقصود من المصطلح « قوانين ملكية الأرض » ، فانه كتب بمرارة يقول :
« ان تنظيمات كليومنيس وتوزيع الأرض بالتساوى الذى طالب به الثوريون المجانين فى الثورة الفرنسية تسمى بقوانين ملكية الأرض ، فى حين أنه فى بعض الحالات التى يحسن أن تطلق فيها هذه التسمية ، وفى حالة تطبيق قانون صارم للملكية تطبيقا مجردا من الشعور ضد المستأجرين الذين يمكن طردهم والذين يزرعون قطعة من الأرض انتقلت اليهم من أجدادهم.. فى هذه الحالات لا يفكر أحد فى استخدام هذه التسمية ، والمالك الجشع الذى يحول القرى الى قفر ، ويعد حقولها ملكا له يتصرف فيه كيفما يشاء ليستغلها الى أقصى حد لو أنه سمع باسم آل جراكوس فانه يحكم على قوانينهم الخاصة بملكية الأرض بأنها جريمة نكراء » (١) .

وقام نيبور بعمل شاق وهو أنه استخلص من المصادر المتعددة الجزئية الجافة المضللة غالبا فكرة واضحة عن وظائف القناصل والقضاة والمديرين والمراقبين والحكام المطلقين ، وعن الهيئات العامة كمجلس الشيوخ (السناتو) ومجلس الشعب (الكوريا) لعرض دستور الجمهورية باعتباره كائنا عضويا يؤدى وظيفته . وقد شبه عمله الشاق هذا بما كان يقوم به كرونوس اله الزمن فى أسطورته من هضم الحجارة ولكنه شعر أنه فى انتصاراته أقرب الى الفنان والعالم : « ان عملنا أشبه بعمل الباحث الطبيعى الذى يعنى بتخليص هيكل من عظم متحجر مما علق به ، وان حالفه الحظ ابتدع ما كان ناقصا ورسم معالم الكائن الحى الذى كان يعيش فيما مضى معتمدا فى رسمه له على الفكرة التى كونها عن تكوينه » . وان استرجاعى

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ١٣٠ .

لنقش انمحت بعض أجـزائه ويكشف عن تنـاحر الشيع بين الأشراف أشبه بترميم تمثال على يد نحات استطاع ادراك الفكرة التى انطوى عليهـا التمثال ، ومثل هذا العمل يتحقق بالالهام أكثر مما يتحقق بالجدل ودليل صدقه مستمد من كماله [١] وفى بعض الأحيان تتم عباراته عن النشوة اذ قال:

« اذا رأى باحث ، بعـد سنين من التأمل الدائب المتجـدد أن تاريخ الحوادث التى فهمت خطـأ وشوهت ونسيت قد ظهـر وبان من الضباب والظلمة ، وأخذ يتكون ويتشكل كما تتشكل حورية القصة السكندنافية ذات الشكل الهوائى الذى لا يرى وتتجسد عذراء من أهل الأرض تحت أعين الحب ولهفته » ..

كتب نيبور النص الأول للمجلدين الأولين (١٨١١ ، ١٨١٢) فى « وقت ملىء بالأمل حين افتتحت جامعة برلين ، ومرت الشهور فى حماسة وسرور بينما كانت محتويات المجلدات الأولى فى هذا التاريخ تلخص للمحاضرات وتعد للنشر . ومثل هذه المتعة ومعيشة الانسان فى ١٨١٣ تكفيان وحدهما لاسعادحياة الانسان بالرغم من التجارب المحزنة الكثيرة» . واستمر فى كتابة تاريخه فى العقد الواقع بين عامى ١٨١٠ و ١٨٢٠ فوضع مجلدا ثالثـا له ولم يكن الباعث له على كتابته الا الصرف لعقله عما ساوره من قلق وحزن فيما يتعلق بالشئون العامة ، ذلك أنه بالرغم من أن سقوط نابليون الذى كان متوقعا منذ ١٨١٣ قد أصبح حقيقة واقعة ، وأن المنصب الذى شغله نيبور ممثلا لبروسيا لدى الفاتيكان من ١٨١٦ — ١٨٢٣ هيأ له الفرصة لتزويد مؤلفه بنتائج بحثه الآثار الرومانية القديمة بحثا مباشرا بالرغم من ذلك فانه كلمـا اقترب فى تاريخـه من دراسـة الاضطـراب فى توازن

(١) تاريخ رومة ص ١١٨ .

القوى بين الطبقات الاجتماعية الذى بنيت عليه قوة الجمهورية الرومانيـة رأى مصيرا مماثلا معـدا لمعاصريه : « ان أوربا بأسرها تتحول تحت تأثير الخوف من الثورة العاتية الى قبضة الاسـتبداد الحديدية » (١) حتى ان انجلترا التى كانت تبدو وكأنهـا ورثت بعض عبقرية روما السياسـية فى التوفيق ، وجدت بها هوة مخيفة تتسـع باستمرار بين الطبقات الغنيـة والطبقات الفقيرة ، فهما أمتان متعاديتان (٢) . والدرس المستخلص من المجلد الثالث فى تاريخه هو أن « الدولة تمتاز على الفرد بأنها اذا داومت على رفع عدد أكبر من الأشخاص تزداد دائرتهم اتساعا الى أقصى درجات الحرية ، فانها تستطيع الرجوع بحياتها أكثر من مرة الى عهد الشباب وأن تعيش فيه بنشاط جديد » (٣) . وأن هذا الدرس يبدو أنه قد فقد فى أوربا الحديثـة حين استثارت المراسيم الملكية الرجعية الشعب الفرنسى للقيام بثورة ثانية فى ١٨٣٠ فسجل بها تبدد آماله . « انا نقول بأنه لابد من وجود طبقة أرستقراطية بل وأرستقراطية على درجات كثيرة ، الا أننا نضيف الى ذلك أنه لا توجد فى هـذا الزمان أرستقراطية يمكن تحمـلها ، وأن من يسمون أنفسهم أرستقراطيين هم شبح قد هرب منه كل نشـاط حيوى » (٤) وكان موت نيبور بعد ذلك ببضعة أشهر فترك تاريخه الذى كان مقدرا له أن يصل الى النقطة التى بدأ منها جيبون عند الحرب الفينيقية الأولى .

---

(١) حياة نيبور ورسائله ص ٣٨٩ .

(٢) المصدر السابق ص ٥٠٣ . هذه الملاحظة التى أوردها نيبور فى رسالته الى دور هنسلر المؤرخة فى أول يولية ١٨٢٧ سبقت عبارة دزرائيلى الشهيرة فى قصته Sybil (١٨٤٥) .

(٣) تاريخ روما ج ٣ ص ٣٥٦ .

(٤) حياة نيبور ورسائله ص ٥٢٦ .

الا أن هذا المجلد الثالث قد هيأ لنيبور لحظات رجع فيها الى حماسته السابقــة ، فأقر حين بين أن كوينتوس فابيوس سمى بالعظيم لسياســته الداخلية الحكيمة لا لانتصاراته الحربية : « أن هناك شيئا واحــدا يمنح السعادة وهو اعادة العظمة المنسية المهملة الى موضع يمكن منه تعرفها ، وأن من يهيىء له الحظ القيام بمثل هذا العمل يدخل فى علاقة قلبية مع الأرواح التى فارقتنا منذ أبد بعيد ، ويشعر بسعادته اذا تشابهت الأعمال والعواطف واتحدت بما يكنه لها من احساس ، وهو احساس يحب به الانسان العظيم كأنه صديق له » [1] . وبعد أن أتم نيبور مراجعة المجلدين الأولين قال لبعض أفراد أسرته : « ان أهم النقاط نتيجة لومضات ضياء خاطفة ونتيجة للحدس والتخمين ، وقد خطر ببالى فعلا فيما يتعلق بها أن أرواح القدماء قد أوحت الى جزاء وفاقا على جهودى الصادقة فى سبيل تخليد ذكراهم .. وقد فصلت الأساطير الرئيسية عن سجلات الحوادث التاريخية التى أصبح يشك فيها لاختلاطها بها ، وأعدتها الى شكلها الخاص ، واستعدت الشكل الخالص لسجلات الحوادث ذاتها ، وأن مبلغ غناها وصحتها أمر لا يصدق » [2] .

وقد وصف المؤرخ الفرنسى ميشيليه الذى اقتفى أثر نيبور لاتمــام ما قصد اليه من الوصول الى النقطة التى بدأ منهاجيبون خصائص عمله فقال : « ان كتابه أشبه بميدان الأبقار فى روما Forum Boarium فهو يبعث على الاجلال سواء بآثاره الجيدة أو السيئة الترميم ، ان نصيب الفن القوطى فيه واضح فى الغالب ولكن مما يثير العجب دائما أن ترى قوة البرابرة فى رفع الأنقاض الهائلة . كان نيبور يعرف العصر القديم كما لم يعرف العصر

(١) تاريخ روما ج ٣ ص ٣٤٩ .

(٢) حياة نيبور ورسائله ص ٥١٧ ،الرسالة الى دور هنسلر فى ٢٠ ديسمبر ١٨٢٩ .

القديم نفسه دائما ؛ فمن يكون افلوطارخوس وغيره من الاغريق اذا قيس به فى فهم العبقرية الجافية للعصور الأولى ، انه يفهم روما البربرية القديمة لأنه يحمل فى ذاته شيئا منها ؛ فهو أحد أولئك المرجلة شعورهم الذين وضعوا القانون السالى ، وبزوجاست أو وندرجاست ، وكان فى امكانه أن يكسب حقوق المواطن ويجلس مع كورنكا نيوس الحكيم ، وسكافولا الداهية وكاتو الأكبر ، فلا تهاجم هذا الزميل للحكام العشرة ولا تستخف به » (١).

لقد أنشأ الرومان الذين تغلب عليهم الاتجاه العملى والعقلية السياسية ، أساطير بطولية رائعة كأسطورة كوريولانوس ولكنهم لم ينشئوا من الأساطير الدينية الا القليل . أما الاغريق ذوو الخيال وأعظم من أنشأ الأساطير الدينية فى العالم فانهم قد غمروا تاريخهم الأول بضوء من خوارق الطبيعة وهذا هو وجه الصعوبة الخاصة التى لقيها اتفريد ميللر فى محاولته القيام بالنسبة لتاريخ اليونان بمثل ما قام به نيبور لتاريخ روما ، ولكن كانت لديه مؤلفات نيبور ، وبدأ يؤلف فى وقت تقدمت فيه علوم اللغويات تقدما كبيرا .

ولد ميللر فى ١٧٩٨ ؛ فهو يكاد يعاصر كيتس تماما ، وشارك كيتس فى حماسته للفنون والآداب وأساطير الطبيعة الاغريقية ؛ واذا استثنينا جانب الشئون السياسية — وقد درّس فى جوتنجن من سن الثانية والعشرين الى وفاته المبكرة فى الثانية والأربعين — فانه كان فى تعدد جوانبه يقرب من نيبور ؛ اذ كان عالما بالجغرافيا والانتربولوجية والآثار واللغات والفلسفة وناقدا للآداب والفنون . درس فى جامعة برلين بعد أن تركها نيبور بزمن قصير ، وشجعه بوتمان صديق نيبور وأوجست بوكخ — وكلاهما من تلاميذ

(١) Jules Michelet, Histoire de la République Romaine (Paris بدون تاريخ), (Avant Propos, P. 18.

« ولف » — على أن يجعل من الالمام بكل أنواع المعارف الكلاسيكية من مصادرها أساسا ليكون مؤرخا . وقال فى أول مؤلف ناجح له : « من الواضح أنه لو وضعت مائة دراسة خاصة بين يدى أحد الجامعين فانها لن تصبح أبدا تاريخا لليونان »[1] .

وكانت الأساطير الدينية من الموضوعات الحية التى تناولتها المناقشات فى ألمانيا فى أثناء سنوات دراسة موللر ، فوجد الفيلسوف شلنج فى الشعائر السرية بساموتراس أثرا لديانة يونانية أقدم من الديانة الأوليمبية فى شعر هوميروس . وارجع جورس وكرويزر ، كما فعل الدكتور كاساوبون فى قصة چورچ اليوت جميع الأساطير الدينية الى مصدر واحد فقط فقالا : « انها صور مشوهة مما أوحى الله به أصلا الى شعوب الأرض» وأيد «كان» هذه النظرية فى وحدة الوحى الالهى للأساطير الدينية ببيانه أن الاشتقاق فى كل اللغات يكشف عن أسماء ورموز واحدة للأفكار الدينية الرئيسية ، ولكن بوتمان أستاذ موللر أعلن على العكس أن الأساطير الدينية ليست لها دلالة دينية أصيلة ، ولكنها مجرد عمل من أعمال الخيال ومن مبتكرات الشعراء . أما موللر فانه اختط طريقا وسطا باتباعه المنهج المقارن فى دراسة الأساطير الدينية . ويرجع الفضل فى نجاح هذا المنهج الى ما تم حديثا من انشاء علم اللغات المقارن .

ومنذ عهد ليبنز كان المفكرون على حق فى ظنهم أن الاشتقاقات اللغوية تكشف عن المراحل الأولى للعقل الانسانى ، ولكن مع ذلك لم يكن فى الامكان استخدام الاشتقاقات بدقة ما دامت اليونانية واللاتينية بله العبرية تقارن مباشرة بلغات أوربا الشمالية ، وكان تشابه الهجاء مدعاة الى الخطأ

(١) Otfried Müller, Geschichten hellenischer Stämme und Städte (Bresau 1841, 1, 18.

الى حد كبير . وعلى الرغم من أن چاكوب جريم كان أكثر حيطة من كان ، فانه قد نسب بناء على التشابه فى الهجاء أعلاما كثيرة الى مادة واحدة منها أعلام Uta, Berther, Berta, Berka, Erka, Hildeberta, Hildur, Hulda, Holle, Hutle, Hodur, Hother, Hutchen, Hodeken, Robin Hood, Otnit, Rother, Ruther, Rucker, Rucker, Rucher, Holger, Olger, Ogier ; Ulysses, Odysseus وغيرها . وكان الأمر فى حاجة الى مفتاح ما لقرابة اللغات بعضها من بعض ، والى طريقة ما لتحديد ما اذا كان للعبرية واليونانية واللاتينية أصل مشترك ، وما هى العلاقات بين اللغات الحديثة بعضها وبعض . ومنذ ١٧٨٦ كان سير وليم چونس قد افترض أن اللغة السنسكريتية ، وهى اللغة الهندية القديمة ، هى الحلقة التى تصل بين اليونانية واللاتينية والقوطية والكلتية ، وقد عرضت هذه الفكرة لآخرين منهم فردريك فون شليجل ولكنها ظلت فرضا حتى جاء فرانز بوب واختبرها بمقارنة التركيب النحوى مبتدئا بالفعل فى كتابه « نظام تصريف الأفعال فى اللغة السنسكريتية ومقارنته باليونانية واللاتينية والفارسية والجرمانية » (١٨١٦) وقال بوجود أسرة أوربية من اللغات لا صلة بينها وبين العبرية وغيرها من اللغات السامية .

وقد أدرك جاكوب جريم على الفور تفوق منهج بوب ، فطبقه على اللغات الجرمانية فى كتابه « النحو الألمانى » (١٨١٩) ، وقام فى الطبعة الثانية فى كتابه هذا (١٨٢٢) بسلوك طريق ندر السير فيه وهو علم أصوات اللغة ، ووضع نصب عينيه عملا شاقا وهو دراسة دور كل حرف من حروف الهجاء فى نصوص ووثائق اللغات الجرمانية بعد ترتيبها ترتيبا زمنيا ، ونتج من ذلك انتصار المنهج التاريخى فى القاعدة المعروفة بقانون جريم ، ذلك أن كان وراسك الدنماركى وغيرهما سبق أن لاحظوا تغيرا منتظما فى الحروف الساكنة فى بعض حروف الشفتين والحروف السنية والحلقية بين اليونانية

واللاتينية من ناحية وبين اللغات الجرمانية من ناحية أخرى . ثم جاء جريم وأضاف الى ذلك تغيرا آخر بين الجرمانية العامة والجرمانية الجنوبية القديمة ، وقال ان « العلاقة بين القوطية واللاتينية هى نفس العلاقة بين الجرمانية الجنوبية القديمة والقوطية » (١) . وتوقع جريم نتائج كبيرة « لدقة الاشتقاق » (٢) . لأنه أثبت مبدأ ثوريا غريبا وهو أنه اذا اتفق الهجاء فانه ليس هناك بالضرورة علاقة ما لم تكن الألفاظ مستعارة . واذا جرى التغير المنتظم بين اللغات على حرفين ساكنين أو أكثر فى اللفظ فالعلاقة مؤكدة . وأوجز جريم ذلك بقوله : « وهكذا يقوم التشابه دائما على الاختلاف الخارجى » (٣) .

وهيأ العلم اللغوى الجديد لموللر أن يستبعد الأدلة التى سميت بالأدلة اللغوية الاشتقاقية على اشتقاق الأساطير الدينية اليونانية من المصريين والعبرانيين ، وأن يبين أن أساطير الشعوب اليونانية والجرمانية قد تطورت مستقلة بعضها عن بعض بعد انفصالها عن قريبتها الآرية فى الهند .

واذا لم يكن فى الامكان اخضاع الأساطير ونسبتها الى مصدر واحد ، فانها لا يمكن أن تفسر بأنها خيال طليق ، أو بأنها من صنع الكهنة تبعا لرأى استمر منذ القرن الثامن عشر ، وتصور موللر للأساطير الدينية هو فى جوهره تصور هردر لها ؛ فالأساطير هى الصورة التى تتخذها أقدم ملاحظات الشعوب وتأملاتها ، وهى بذلك تكشف عن خصائص طرق الحياة والتفكير عند الشعوب ، والأساطير تخلط المثالى بالواقع ولا تميز بينهما ، وتجعل

(١) اقتباساً من Ernest Tonnelat, Les Frères Grimm (Paris, 1912) p. 406. Jakob Grimm, Deutsche Grammatik, 1²₁: 584.

(٢) Tonnelat المصدر السابق ص ٤٠٦ .

(٣) المصدر السابق ص ٤٠٧ اقتباسا من النحو الألمانى ، ليعقوب جريم ٢١ ، ٥٨٨ .

الكائنات جميعا من النـاس والعلاقات كلها أعمـالا [١] كما بين موللر فى « مقدمة الميثولوجيا العلمية » (١٨٢٥) ، والاحليل لا يبـدو رمزا الا اذا كانت « العقائد تجعل الاخصاب والانتاج المستمرين يحدثان بفعل الآلهة » ، كما هو الشأن فى عبادات ديمتروهرمس وديونيزوس فى الأساطير البطولية .

ومع ذلك فان البلاد والجبال والأنهار تلد الناس والأبطال ، واذا سمى هوميروس هكتور بابن زفس وسماه ستزيخوروس بابن ابولون ، فما ذلك الا نتيجة لاهتمام هذه الآلهة به ، والظروف السابقة تتولد عنها فى الغالب الظروف اللاحقة ، فالشعوب المتميزة بعضها عن بعض تميزا تاما اذا عاشت معا فى نفس الأرض أقيمت بينها علاقة نسب ، واذا كانت الهة الأمة أو الشعب تلد آباءه وأجداده فما ذلك الا مجرد تعبير عن التقوى الساذجة »[١] .

بل ان الاخوة المتعادين قد يظهر أنهم كانوا مدنا متجاورة مختلفة الأصل لا رابطة بينها الا هذه العداوة .

واستخلص موللر من هذه الأمثلة « أن التعبير الأسطورى يجب أن ينظر اليه باعتباره نوعا خاصا من حديث الأطفال الساذج الذى يجب البحث عن معجمه ونحوه »[٢] وجماله بالنسبة الينا فى غرابته .

« وتساءل عما تتطلبه عادة من التاريخ ؟ هل هو أن نشاهد النـاس وهم يعملون ويفكرون كما نعمل ونفكر ، وأن نشاهد بعين الرضا المرحـلة التى وصلنا اليها من الثقافة ؟ اذا كان الأمر كذلك وجب أن نتجه الى الحياة المعاصرة وأن نرقب نواحى النشاط التى تدور فى المكاتب وقاعات الاستقبال ولكن التاريخ هو الذى يجب أن يرفعنا عن هذا المستوى الضيق ويجعلنا

(١) Otfried Müller, Prolegomena zu einer wissenschaftlichen Mythologie (Göttingen, 1825). p. 78.

(٢) المصدر السابق ص ٢٧٠ .

تقدر تفوق الانسان فى حقبة من الزمان على أفراد الناس الممثلة لتلك الحقبة. ويجب أن تتعلم فهم طرق الحياة المختلفة وانى أعتقد أن معرفة العصر القديم تبعث فينا الحماسة والروح الانسانية بوضعها أمام أعيننا انسانية غريبة عنا بحياتها الكاملة القوية المكتفية بذاتها . أوليست الأساطير دون غيرها من نواحى معرفتنا تخرج بنا الى أقصى حد من دائرة الحاضر الى مصانع الأفكار والأشكال التى لا يزال بناؤها ونظامها مشكلة بالنسبة لعقولنا ؟ [١] .

فما أبعد الشقة بين عصر الاستنارة وهـذا الموقف الذى وقفه موللر عام ١٨٢٥ ! .

وان أقرب شبيه الى الأساطير ظل حياً فى أوربا هو القصص الخرافى mârchen الذى نشر منه الأخوان جريم مجموعات ثلاثا بين عامى ١٨١٢ و ١٨٢٢ . قال موللر : « ان صلة القصص الخرافى بالأساطير الدينية تشبه الى حد ما صلة الاعتقاد فى الأرواح بالديانة الوثنية ، فهو ينقل الأفكار الغامضة لعصر سابق الى عصر غريب عنه فى ثقافته الروحية ؛ لأن الخبراء فى قصصنا الألمانى يرون فيه آثارا ترجع الى ما قبل المسيحية » [٢] . ولكن هذه القصص المأخوذة من أفواه الفلاحين الألمان غثة شاحبة اذا هى قيست بالتعدد والخصب فى الأساطير الدينية القديمة التى لا تعرف هذه الحدود الفاصلة التى أقامها العقل الحديث ، وأن من يقوم بتفسير الأساطير الاغريقية يجب أن يتخلص من أفكاره العلمية والخلقية ، ويرضى بانعدام التحشم ، بل والعبث فيما يتعلق بالمقدسات ، وذلك حتى يتكون لديه الاحساس بكيفية وضع الأساطير من المامه بآلاف الفقرات المنعزلة فى الأدب اليونانى . وقد حذر موللر بقوله ان استعادة حالة عقلية ضاعت على هذا النحو لا تتاح لكل

(١) المصدر السابق ص ٢٠٧ .
(٢) المصدر السابق ص ١٧٢ .

انسان ؛ فهي تتطلب « ملكة خاصة واطارا عقليا خاصا ، بل والهاما خاصا »[١].
أما عن مدى نجاحه فى مؤلفه « ارخومينوس والمنياسيون » وهو أول أجزاء
مؤلفه « تاريخ الأجناس والمدن اليونانية » (١٨٢٠—١٨٢٤) فانه قال انه
راض بحكم من توافرت فيهم « فضلا عن عمق العلم وغزارته ، دقة الحس
وحرارة الشعور مما تبعثه وتغذيه الحياة الأدبية » [٢] . وقد وضع موللر
مأساة شعرية عن الأخذ بالثأر الدموى أسماها Monoch ذلك ليخلق فى ذاته
الحالة النفسية الملائمة لفهم مأساة الأومينيد لاسخيلوس .

وان جغرافية بلاد اليونان التى فصلت المدن والشعوب بالجبال ووحدتهم
بالبحر جعلت للأساطير أساسا تاريخيا جذب اليـه الذوق الأدبى وحب
الاطلاع فى عصر موللر اذ كان عصر الحماسة للطبيعة ، وكانت فيه القومية
هى يقظة النزعة المحلية ، وألف فيه وردسورث سلسلة من القصائد فى أسماء
الأماكن ، ونشر فيه والتر سكوت أسماء أماكن وطنه وجعلها مألوفة للعالم
حتى ليتحير المؤرخون فى القرون المقبلة فى الحكم على سكوت أهو الذى
سمى باسم اسكتلندا أم أن اسكتلندا هى التى سميت باسم سكوت . وكان
موللر — وهو لا يزال يطلب العلم — قد سمى مجموعة الأساطير المحلية
لبلاد اليونان بالفردوس المغلق ، وكان حريصـا على أن يكون أول من
يدخله ، وزعم أن تأثير البراكين فى الصخور والجبال ومجارى المياه المتعرجة ،
وتأثير الضوء الخاص ، لابد أنها تركت آثارا جغرافية يمكن ادراكها على
وجه التحديد فى أساطير القبائل اليونانية المختلفة وليس من قبيل المصادفة
أن تكون بيوشيا « موطن جمـاعة الآلهة اليونانية » ، ذلك لأنهـا كانت
« كفلسـطين أرض كهوف ومغـارات تشقها الأخاديد المقفـرة وتملؤها

(١) المصدر السابق ص ٢٩٣ .

(٢) Otfried Müller, Geschichten hellenischer Stâmme und städte, I, (3.

المستنقعات المنعزلة ومجارى المياه الجوفية .. أرضا كرست لبعث واخراج التنبؤات من الأعماق المجهولة فى باطنها »(١) . واختلفت ثمار الأرض من اقليم الى آخر اختلافا كبيرا ، وسهل الاتصال بطريق البحر فشجع ذلك على الهجرة والاستعمار والتجارة مما أحدث اضطرابا وخلطا فى الأساطير التى كانت أصلا أساطير محلية . كذلك كشفت اللغة الاغريقية فى تطورها من اختلاف اللهجات الى الوحدة عما يشبه ذلك ؛ وحـاول موللر أن يعكس العملية التى امتزجت فيها الأساطير بعضها ببعض ليحللها الى عناصرها الأولى ، وبذلك يستعيد تاريخ الهجرات والعلاقات التجارية والآراء الدينية لفروع الجنس اليونانى بل وتاريخ الدين والعادات عند الأجنـاس التى خضعت للغزو اليونانى وقدمت الهجرات الأوروبية الشمالية والفتوح فى العصور الوسطى الأولى أمثلة صالحة .

وتميز مؤلفـه « ارخومينوس والمنياسـيون » (١٨٢٠) بالروح الرومانسية ، وذلك فى كشفه عن فجر العصور التاريخية ، وعن الشعائر والشعوب الغريبة التى كادت أن تنسى ؛ وعن طريق المينياسيين ومدينتهم ارخومينوس التى ترجع الالياذة مجدها الى العصر البطولى البعيد لحرب طروادة شرع موللر فى استرجاع بلاد اليونان قبل هوميروس ودينها قبل الأوليمبى . وقد شبه هوميروس ارخومينوس بمدينة طيبة المصرية فى غناها وفخامتها ، وكان موقعها معروفا عن طريق أطلال بيت المال فيها الذى شبه بوزانياس فى العصر الرومانى تصميمه القديم بالأسوار الضخمة لمدينـة تيرنس فى البلوپونيز ، وربط لورد الچن حديثا بينه وبين أطلال بيت مال آخر — وهو المسمى بيت ارتيوس فى ميسين ، وشيد المنياسيون كذلك

(١) المصدر السابق ج ١ ص ١٣٩ .

عجيبة أخرى من عجائب العصر اليونانى القديم وهى قنوات تجرى تحت الأرض لخفض مستوى بحيرة كوبياس حتى يمكن لمدينة ارخومينوس وغيرها من المدن أن تتسع على شواطئها . وهكذا عثر موللر على بقايا حضارة العصر البطولى التى يسميها العلماء المحدثون بالحضارة المسينية ، ودرس خصائصها عن طريق الأساطير المنياسية المحلية .

أما منياس الشخصية الخرافية التى سمى الشعب باسمها فانه كان يسمى بابن ارخومينوس لأن ارخومينوس كانت أهم بلدانه ، وبابن خروسيس لأنه ورث عن أجداده ذهبا كثيرا ، وبابن آرس لأن المنياسيين كانوا من رجال الحرب ، وبابن پوزيدون لأنهم كانوا من رجال البحر؛ وبجانب منياس وجد الهان قبليان هما تروفونيوس واجاميدس اللذان اشتهرا ببناء بيوت المال ، وجد قبلى هو اتماس الذى تكشف أسطورته عن تقدم الوعى الدينى للقبيلة ؛ اذ قدم اتماس نفسه ذبيحة بشرية تكفيرا عن الاثم ، ولكن تدخلت الآلهة وأحلت محله كبشا ذهبى الفراء ، الا أن ذريته من المنياسيين حكمت عليهم لعنة الأجداد بالهجرة المستمرة الى أن استطاع چازون أحد المنياسيين فى اقليم تساليا أن يصلح بين قومه والآلهة باستعادته الفراء الذهبى للكبش الضحية . وان وضع الفراء فى اقليم البحر الأسود دليل عند موللر على أن تجارة المنياسيين قد سارت فى هذا الاتجاه وفسرت عودة الأرجونوت الأسطورية وطوافهم بطريق شمال افريقية بوجود مستعمرة منياسية فى قورينة .

وفى الوقت الذى كانت توضح فيه مثل هذه التفسيرات نمو الاستعمار والتجارة والدين ذهبت أسطورة تروفونيوس واجاميدس وأسطورة كادموس فى مدينة طيبة البيوشية المجاورة أبعد من ذلك — الى مرحلة

بدائية فى الزراعة والديانة الطبيعية . تقول القصة ان الأخوين تروفونيوس وأجاميدس اللذين شيدا بيت المال فى مدينة ارخومينوس آخذا يسرقان منه بالدخول فيه عن طريق الخديعة اذ تركا به كتلة حجرية قابلة للنزع من مكانها الى أن وجد ترفونيوس أخاه قد وقع فى فخ فحز رأسه وحمله بعيدا حتى يخفى هويته ويحفظ سرهما ، وقد ربط موللر هذه الخرافة بالقصة المعروفة عن كادموس ، وذلك لاشتراكهما فى الرمزية الزراعية الخاصة بحالة قديمة من الوعى الانسانى . وهذه الرمزية تبين . « الفكرة التى تصور الزراعة على أنها معيشة مع الطبيعة وثيقة الصلة بها ، وتصورها على أنها اتصال بالعالم السفلى خاصة ، وپلوتر (اله الغنى) على أنه پلوتوس (اله العالم السفلى)، والذهب والمحصولات على أنها سرقة من سكان العالم السفلى ، وأخذ البذور من حجرات الأرض وأقبيتها سرقة من كنوز العالم السفلى ، ونزع رأس الحب شبيه كما هو واضح بمقتل كادميلوس وتمزيق ديونيزوس اربا ، فالاله الذى يظهر فى العالم يقتل ماديا أو معنويا أيضا » [1] .

وبالرغم من أن قصص الشعوب المقاتلة المتأخرة تمثل الملوك الكهنة الذين حكموا هذه الشعوب الزراعية أشرارا سحرة يميلون الى التخريب ، فان أفكارها الدينية لم تمت تماما فظلت حتى فى العصر القديم (الكلاسيكى) قائمة فى عبادة ديونيزوس وباخوس ، وهما أصلا الهان محليان مختلفان توحدت عبادتهما فى طيبة ، وفى الطقوس الطيبية التى ظهرت بعد الهجرة الى ساموتراس فى أثينا واتخذت شكل العبادات الخفية لساموتراس ، وفى العبادات الخفية للآلهتين ديمتر وبروسربين فى الوزيس ، فالجانب المظلم

---

(١) المصدرالسابق ص١٥١ ١٠انظر تفسيرا مماثلا لڤيكو فىالفصل الثالث.

الدموى فى الدين الاغريقى الذى حير علماء الدراسات القديمة هو بقية من العبادات التى ترجع الى ما قبل التاريخ .

أما الجانب المنير من الديانة الاغريقية وهو الجانب الأخلاقى والفلسفى فهو من انشاء الدوريين الذين خصص موللر لهم مجلدين نشرهما فى ١٨٢٤. ودوريس جدهم الخرافى كان ابنا لأبولون ، ولم يكن ابولون الها للخصب ولم يكن الها للشمس أصلا بل الاله الذى بسط حمايته فحسب والاله الأعزب لقبيلة مقاتلة نزحت من الشمال ؛ وكانت تماثيله فى شكلها القديم عابسة بدينة ، ثم اكتسبت جمالا وتعبيرا متحمسا لما سار الشعب الدورى فى سبيل النضج ، وارتبطت به برباط وثيق أخته العذراء المقاتلة أرطميس ، ونصف الاله هرقل مزيل اللعنات عن الجنس البشرى وهادمها . وقد أبرز هيرودوت هجرات الدوريين بالنسبة الى استقرار الايونيين ووجد موللر تأييدا لذلك فى سعة انتشار عبادة ابولون فى العصور الأولى من دلفى الى كريت وديلوس والپلوپونيز ، وتدل أسطورة عودة ذرية هرقل للمطالبة بارثه فى مسينا وتيرنس — وهى أسطورة شبيهة بعودة بنى اسرائيل الى كنعان — على احتمال حدوث هجرة مزدوجة قام بها الدوربون قبل أن يوطدوا اقامتهم بالقضاء على الحضارة المسينية . ويقابل موللر بين غنى الفن المسينى وافراطه فى الزخرف وبين بساطة الفن الدورى وشدته ويفترض أن العمارة الدورية قد احتفظت بأشكال العمارة الخشبية القديمة .

هذا ويحتمل أن تكون القصة الخيالية لأقوام الشمال التى وصلت الى أسمى آيات الجمال على يد الشاعر الدورى پندار ، ذكريات مبهمة عن مجىء الدوريين بطريق تساليا التى تركزت فيها أسطورة هرقل ، ويعلل اعتدال المناخ الشمالى بعلة بدائية وهى أن ريح الشمال الباردة تهرب من

ذلك المكان ولا تهب عليه . أما عن قصص هرقل فمن الواضح أنها تتف من قصة ملحمية قومية ، وفتح هرقل للعالم السفلى (هادس) رمز لا يكاد يدرك لصراع الدوريين الذين اتجهت عقولهم الى تحسين هذا العالم والى محاربة عبادات العالم السفلى ، وتعكس خلال هرقل ثقة الشعب الدورى فى كفاية الانسانية نفسها بنفسها ، ويتمثل فيها : « ادراك يزهى بالقوة الكامنة فى البشر والتى بها يسعون الى المساواة مع الآلهة أنفسهم ، لا بناء على سماح القدر المترفق الرحيم ، وانما اعتمادا على العمل والمصاعب والكفاح ... فكما أن الآلهة ممثلة فى ابولون تخطو الى دائرة الحياة الانسانية كذلك تحاول القوة الانسانية المجردة ممثلة فى هرقل السمو الى الآلهة »[1] وتبين العادات الدورية ، والفن والشعر الدوريان قيام شعب أرستقراطى يمتلك الأرض ويتصف بالقوة والاكتفاء الذاتى لا يتوق الى اللانهائيات ولا يميل الى الاختلاط بالطبيعة ، فهو شعب « صوب بصره لا الى ما هو صائر ولكن الى ما هو كائن » [2] .

واتنقل موللر من الدوريين الى منافسيهم الايونيين ، وقام بدراسة خاصة لفدياس واسخيلوس وللتاريخ العام للأدب اليونانى ، وكان فى عام ١٨٣٩ على وشك اتمام تحضيره لتاريخ الشعب اليونانى بأسره ، فقام بزيارة الى بلاد اليونان وثمل موللر لرؤيته رأى العين ما كان مضطرا الى تخيله من قراءة كتب الأسفار والخرائط ، وارتكن أكثر مما ينبغى على قوة بنيته فأمضى يوما عارى الرأس تحت الشمس فى مدينة دلف بعد أن أمضى ليلة فى مستنقعات بحيرة كوبياس ، فدفع حياته ثمنا لهذا التهاون ! .

---

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٤٥٧ .

(٢) المصدر السابق ج ٣ ص ٣٩٦ .

ولكنه كان قد قام فعلا ببنـــاء أساس ثابت لتاريخ اليونان القـــديمة بالكشف عن العصر البدائى قبل عصريها البطولى والتـــاريخى ، وتمييز خصائص شعوبها وهجراتها . لقد كان هردر من رواد البحث فى الأساطير ومزج الحدس الملهم بكثير مما خرج بعيدا عن الهدف ، أما نفاذ بصيرة موللر فانه قد نشأ من شدة انتباهه الى تفصيلات الحقائق وشدة العناية باستخدام الأدلة الجغرافية واللغوية ، وخلع توازنه الدقيق بين العلم والفن على الدراسات الاغريقية انسجاما عقليا اغريقيا حقا .

الفصل الخامس

الطابع الرومانسى : شاتوبريان ، سكوت ، تييرى ، كارليل

أخضع موللر ونيبور التاريخ اليونانى الرومانى القديم لروح الأدب الرومانسى الجديد ، ولكنهما لم يخضعاه لأسلوبه ؛ فلم يكتب نيبور رواية متصلة الا قليلا ، ويرجع ذلك الى أنه كان مشغولا دائما ببيان أن الرواية المتصلة غير ممكنة لانعدام القدر الكافى من التفصيلات الموثوق بها ، ولذا فان متنه يزدحم بأشياء كان يجب أن تكون هوامش أو ملاحق . كذلك كان جهد موللر تحليليا يرمى الى التخلص مما لصق بالحقائق والى تصحيح المحرفات فتظهر بذلك روح الأساطير وشكلها الأصيل ولذلك لا ينتظم وصفه الا لماما . وقد دخل الفن الرومانسى فى التأليف التاريخى على يد أديبين ، هما : رينيه دى شاتوبريان وولتر سكوت .

قام شاتوبريان برحلات فى اليونان وفلسطين وشمال افريقية واسبانيا استعدادا لكتابة ملحمته النثرية « الشهداء » (١٨٠٩) وكان موضوعها : الصراع الذى قام فى آخر سنوات الامبراطورية الرومانية بين أهل البحر المتوسط وشعوب أوربا الشمالية ، بين الوثنية والمسيحية ، وأمدته هـذه الرحلات بالأساس الطبيعى الذى يرتكن اليه التاريخ ، تقع الحوادث تحت سماء اليونان المضيئة أو « أمام آفاق ألمانيا المظلمة الشتوية وتلك السماء التى لا نور فيها والتى تبدو وكأنها تسحق الانسان تحت سقفها الكئيب ،

وتلك الشمس العاجزة التى لا تلون الأشياء بأى لون »[١] ، وتقع الحوادث فى الملعب الرومانى المزدحم أو فى ذلك الخلاء القفر الكبير : وادى البحر الميت . البريتانيون يعدون ذبيحة بشرية تحت شجرة (المسلتو) المقدسة ونصب الكهان (الدرويد) فى حين يقوم ناسك مسيحى بتعذيب جسده فى صحراء صعيد مصر احتجاجا على فجور مصر الوثنية ، ووصف العادات وآداب السلوك يقدم للكاتب لونا محليا يضيفه الى آلوان الطبيعة ، ويصور لنا الشعوب المتعادية من رومان وغالة وفرنجة ، فى ثيابها وعاداتها كما كانت فى أثناء حياتها ، وكل تفصيل له دلالته ، فهذا الاغريقى المثقف ينأى ويأنف من الشحم والدخان والروائح الكريهة التى تنبعث من كوخ آسريه من الفرنجة ، وهذا الضوء الذى يخطف الأبصار لألف من السيوف الرومانية المدربة استلت من أغمادها فى وقت واحد تجيب عليها صرخة وحشية من جموع الفرنجة الذين يرتدون جلود الحيوانات ويرددون أغنية الحرب نداء موجها للملك الفرنجى الأسطورى والتى جاء فيها : « فارامون ، فارامون ، لقد حاربنا بالسيف » واكتسبت طابعها الشمالى الأصيل من الأغنية الشمالية القديمة لراجنار لودبروج وهيأ اقليم الغالة الرومانية زادا للذوق الرومانسى وميله الى الغرائب ، « فلم يحدث أبدا أن ظهر فى بلاد ما مثل هذا الخليط من العادات والأديان ، أو من الحضارة والبربرية »[٢] وهذا اللون المحلى قواه ما أضفاه عليه عامل القدم والطابع المميز للعصر والتفصيلات المميزة التى تحفظ حياة الماضى وروحه . وقد قال شاتوبريان

(١) René de Chateaubriand, Les Martyrs (Paris, 1834), I, 146.
وقد ظهرت الشهداء بعد كتابه ، عبقرية المسيحية (١٨٠٢) الذى دافع فيه شاتوبريان عن عظمة التقاليد المسيحية وجمالها ضد المثالب التى وجهها اليها كتاب عصر الاستنارة .

(٢) المصدر السابق ج ١ ، ٢٢٠ .

فى مقدمته : « يحدث أحيانا حين أقوم بتصوير شخصية فى العصر الذى تخيرته أنى أدخل فى الصورة كلمة أو فكرة مأخوذة من كتاباته ، لا لأن هذه الكلمة وهذه الفكرة جديرتان بالاقتباس كنموذج للجمال والذوق ، وانما لأنهما يثبتان الزمان والشخصيات » . وقد وجد المؤرخون أن لهذه الطريقة أثرها الناجع الباعث على الدهشة فى استرجاع روح الماضى ولبعث الحياة فى مختلف صوره .وصهر شاتوبريان هذه التفصيلات المتعـددة الكثيرة فى وصف سريع جميل سلس صبغته روح الأسى على الأشياء البعيدة القديمة الحزينة وروح العطف على العقائد والشعوب المغلوبة .

أما سكوت فانه لم يكن كشاتوبريان فى أسلوبه الأخاذ وفنه فى الوصف ، ولكنه كان حكيما حينما اختار القصة المحببة الى الناس بارثها الغنى من المسرحيات التاريخية لشكسبير وجوته بدلا من المآزق العتيقة والوسائل الخارقة فى الملاحم الهوميروسية والمتلونية ، ولم يقف فى وجه قرائه أى حائل دون ربطهم أنفسهم بالشخصيات التاريخية بنفس القدر الذى ربطوا به أنفسهم بشخصيات قصص الحياة المعاصرة ، واذا كان نسيج القصص عند سكوت أقل روعة مما هو عند شاتوبريان فانه مع ذلك أعم ؛ اذ أنه اتسع بانتقاله من مسرح الحوادث الاسكتلندى فى القصص التى تلت مباشرة قصة وفرلى (١٨١٤) الى انجلترا فى قصة ايفانهو (١٨١٩) والى القارة الأوروبية فى قصة كونتين دروارد (١٨٢٣) وقد رجع بقرائه رويدا رويدا من بقايا الاقطاع فى القرن الثامن عشر الى صميم العصر الوسيط فى القرن الثـانى عشر ، هـذا الى أن سكوت بتبينـه الاضمحلال التدريجى فى الاقطاع والفروسية خاطب مشاعر القلق المقرون بالولاء للوطن التى كان يشعر بهـا جمهور كبير من القراء الذين رأوا مثله تهديد الثورة الفرنسية بالقضاء عليهم وأوجد فى الكتابة التاريخية الروح الوطنية والمسحة الشعبية ، وما سمعه عن

جمهور الثوار فى باريس أكسب تصويره الرائع لهياج العامة فى أدنبرة فى قصة قلب مدلوثيان قوة وحيوية ، والصورة هذه لم تخل من تأثير فى أساليب كارليل وميشيليه واهتمام سكوت يشمل على حد سواء الفلاحين والملوك ، والقضايا الخاسرة والرابحة ، الحاكمين والرعايا ، والسكسون تحت حكم النورمان ، والكلتيين الجبليين الذين ثبتوا على ولائهم لأسرة ستيوارت ، أما الصور المشهورة التى رسمها لشخصيتى جيمس الأول ولويس الحادى عشر بابرازه التناقض بين الرجلين وبين مركزهما الملكى ، فانها أتاحت لقرائه الماما وثيقا بأصحاب القوة والنفوذ ، وعارض سكوت ومثله شاتوبريان أسلوب عهد الاستنارة الثابت التحليلى المجرد بأسلوب الحركة والجـو القصصى والاحساس بالطبيعة .

وكان اجستين تييرى أول مؤرخ اقتبس الأسلوب الرومانسى الفخم وهو فى هذا مدين لسكوت وشاتوبريان معا ـ كان أول الأمر لا يعرف تاريخ وطنه فرنسا الا عن طريق كتاب مدرسى عسكرى جاف يروى أخبار الأسرات الملكية وكان هذا الكتاب مما تقرر تعليمـه أيام الامبراطور نابليون ، ثم حدث أن وقعت فى يده نسخة من ملحمة الشهداء فور ظهورها وكان اذ ذاك فى الخامسة عشرة .

قال : « لقد شعرت فى مبدأ الأمر باعجـاب غامض مبهم واضطراب فى الخيال ، فلم يكن ثمة شىء قد أعدنى لهؤلاء الفرنجة الذين — وصفهم شاتوبريان — يبعثون الرعب ويرتدون جلود الدببة وعجول البحر والثيران والخنازير البرية أو لمعسكراتهم وخنادقهم بقواربها الجلدية وعجلاتها التى تجرها الثيران الضخمة ، أو لجيشهم فى تشكيله الثلاثى يبدو كما لو لم يكن الا رماحا وجلود حيوانات برية وأجساما شبه عارية ، وكلما بان أمـام ناظرى تدريجيا التباين المثير بين المحارب المتوحش والجندى المتحضر زاد

التأثير السحرى فى نفسى ، وكان تأثير أغنية الحرب الفرنجية قويا . وقفزت من مقعدى وسرت فى الحجرة أقطعها من طرف الى آخر مرددا بصوت مرتفع تهتز له أرضها تحت قدمى : « فاراموند ، فاراموند ، لقد حاربنا بالسيف » . ولعل لحظة الحماسة هذه كانت لحظة حاسمة بالنسبة لعملى فى المستقبل[١].

واختار تييرى أول موضوعاته للدراسة التاريخية فى معرض الاحتجاج على اعجاب قومه بنظم الانجليز الذين هزموا نابليون ظانين أنها تنتج توازنا تامـا بين الارستقراطية والحرية ، على أنه كان يرى أن ذلك التوازن كان وهميا ، وأن سيادة الارستقراطية أمر جلى ، ولا عجب فأصله ، متواضع ، هذا من جهة ومن جهة أخرى فهو صحفى حر ؛ ولما حاول أن يفهم لماذا سادت الارستقراطية عند الانجليز وجد شرح ذلك عندما قرأ التاريخ الذى كتبه هيوم . وجد أن السر فى كون الانجليز شعبا خاضعا يختلف خضوعه ضعفا وقوة منذ الفتح النورماندى والضعة الطبقية أثر من آثار ضعة الجنس ، وقد شعر تييرى نفسه حين كان يعمل معلما فى اقليم شمبانيا بصرامة الجيوش القاهرة لما أرغم نابليون على الارتداد ، ثم رأى فى ١٨١٧ حوله فى شوارع باريس جنود الاحتلال من الانجليز والألمان والروس الذين فرضوا على الشعب الفرنسى ملكا غير مرغوب فيه من آل بوربون ، وهكذا حاول بمرارة فهمه لشعور الأجناس الخاضعة أن يثبت نظريته بحقائق استمدها من مؤلف شارون تيرنو « تاريخ الانجلوسكسونيين » وغيره من المصادر الثانوية ، ولم يلبث أن أدرك أن من واجبه أن يكون أكثر واقعية اذا أراد أن يثير حفيظة قرائه على المظالم ، ولكنه لم يدر كيفية الوصول الى ذلك الى أن قرأ قصة ايفانهو (١٨٢٠) .

---

(١) Augustin Thierry, Récits des temps mérovingiens (Paris 1856) I, 11-12.

« ان ولتر سكوت ألقى نظرة النسر المحلق على الفترة التاريخية التى وجهت اليها تفكيرى جهد طاقتى مدى ثلاث سنين ، واستطاع سكوت بما امتاز به من جسارة أن يضع على أرض انجلترة الانجليز والنورمان والسكسون ، المنتصرين والمغلوبين الذين بقوا حتى بعد الفتح بمائة وعشرين عاما ينتفضون بغضا كلما التقوا ، وقد لون سكوت بروحه الشعرية أحد مناظر المسرحية الطويلة التى كنت أعمل جاهدا على انشائها بصبر المؤرخ »[١] .

وعقد تييرى العزم على اصلاح التأليف التاريخى ، وأن ينتج كما قال « فنا وعلما فى نفس الوقت » وأن يعلن « الحرب على المؤلفين الذين ينقصهم العلم ولم يعرفوا كيف يلاحظون ، وعلى المؤلفين الذين ينقصهم الخيال ولم يعرفوا كيف يصورون »[٢] واختار التفصيلات المحسوسة التى لها دلالتها من مادة المصادر الأولية ، وكان هذا يضطره الى « التهام صفحات كثيرة من المطولات ليستخرج جملة واحدة ، بل كلمة واحدة ، من آلاف الكلمات »[٣] وقد قضى هذا العمل المضنى على بصره فى مدى خمس سنوات ولكن كانت نتيجته كتبا مثيرة للخيال حقا ؛ ونجد فى صفحة من الصفحات الأولى من كتابه « تاريخ الفتح النورماندى لانجلترا » (١٨٢٥) وصف أثر بوق الحرب ينفخه رجل من سفينة نورماندية من سفن الفيكنج وهى تسير فى نهر السين فقال : « منذ اللحظة التى كانوا يسمعون فيها من بعيد هذه الأصوات المرعبة يترك رقيق الأرض الغالى أرض الحقل المرتبط به ليختبىء وما يملك من متاع قليل فى الغابات المجاورة ، والشريف الفرنجى

(١) Thierry, Dix ans d'études historiques (Paris, 1883); Préface p. 9.

(٢) المصدر السابق ص ١٣ ، ١٠ .

(٣) المصدر السابق ص ١٣ .

يستولى عليه الخوف نفسه فيرفع المعابر المؤدية الى قلعته ويهرب الى حصنها لينظم أتباعه المسلحين ويخبىء فى باطن الأرض ما جمع من اتاوات فرضـها على البلاد المجـاورة » [١] وهكذا انتقل أسلوب القصص الخيـالى الى التاريخ الجاد.

وكان تاريخ انجلترا يكتب حتى ذلك الوقت من وجهة نظر النورمان ؛ أى من وجهة نظر الطبقات الحاكمة. أما قصة الجماهير السكسونية الخاضعة فانها يجب أن تجمع من المصادر التى طال ازدراؤها واهمالها كالشعر الشعبى والأساطير والروايات. وليس فى المؤرخين من كان أكثر اعتمادا على الأدب من تييرى ، فوصفه ليس مجرد اقتباسات جمع بعضـها الى جانب بعض ، ولكن تييرى ينشر أيضا فى الملاحق عادة النص الكامل لقصائد طويلة جـدا توضح الروح السكسونية من وصف معركة بروتنبرة الى أغانى روبن هود. ولما اتسع اهتمامه وامتد من السكسون الى الشعوب الكلتية التى كان السكسون قد تغلبوا عليها أو ساقوها الى الجبال الوعرة ، دله سكوت على « العداوة الدائمة بين الشعوب الجبلية وشعوب السهول » [٢] واتخـذ المنشدون من أهل ويلز والمغنون من أهل جبال اسكتلندا مكانهم جنبا الى جنب مع الشعراء الانجلو نورمانديين مثل الشاعر ويس. ونشر أحـد أصدقاء تييرى وهو فورييل كتابه الأغانى الشعبية فى بلاد اليونان الحديثة فى نفس العام الذى شهد موت الشاعر بيرون فى سـبيل الحـرية اليونانية واستخدمها تييرى لتوضيح الآمال التى تصر عليها الشعوب المغلوبة على أمرها كالايرلنديين وأهل ويلز والاسكتلنديين من سكان المرتفعات — وهى

(١) Thierry, Histoire de la conquête d'Angleterre par les Normands (Paris 1846) I, 10. وظهرت الطبعة الأولى فى ١٨٢٥ .

(٢) Thierry, Dix ans d'études historiques, p. 9.

شعوب يجرى مصيرها على نحو ما يجرى عليه الموضوع الأصلى فى كتابه وهو التحول التدريجى فى تاريخ الشعب الانجليزى من حرب الشعوب الى حرب الطبقات ، وظل تييرى يستخدم الحاضر لتوضيح الماضى لأنه كان واثقا أنه : « لا يستطيع أحد مهما بلغت مقدرته العقلية أن يتخطى آفاق عصره ، وكل عصر جديد يهيىء للتاريخ وجهات نظر جديدة وطابعا مميزا » [١] . وحاول بتمسكه الدائم بالوصف أن « يعطى نوعا من الحيـاة التاريخية لجماهير الناس وللأفراد فى الوقت ذاته » ، حتى « يمكن أن يلقى المصـير السياسى للأمم شيئا من الاهتمام الانسانى الذى يلقاه بطبيعته الوصف المفصل الساذج لتقلبات صروف الدهر والأحداث الفردية » [٢] ، واتسعت هذه الخطة فى المجلد الأخير وأصبحت اعلانا بليغا لايمانه بدور الجماهير .

« ان الغاية الجوهرية التى يرمى اليها هذا التاريخ هى النظر فى مصير الشعوب لا فى مصير بعض المشاهير ، وتقديم أحداث الحياة الاجتماعية لا أحداث حياة الأفراد ، والاهتمام الانسـانى يمكن أن يرتبط بشعوب بأسرها باعتبارها كائنات لها احساس بحياة أطول من حياتنا ومليئة بتعاقب الألم والسرور والأمل واليأس ، واذا اعتبرنا تاريخ الماضى من وجهة النظر هذه ، فانه يكسب شيئا من أهمية الحاضر ؛ فالكائنات الجماعية التى ينبئنا عنها لم تقف عن الحياة والاحساس ، بل هى نفس الكائنات التى لا تزال تتألم وتأمل أمام أعيننا » [٣] .

وعلى الرغم من أن تييرى فقد بصره تماما فى ١٨٢٨ فى سن الثالثة والثلاثين ، فانه استطاع باستخدامه الكتّاب أن يتم فى ١٨٤٠ كتابه « قصص

(١) Thierry, Histoire de la conquête d'Angleterre, I, 10.

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ١١ .

(٣) المصدر السابق ج ٦ ص ٩٥ .

من عصر الميروفنچيين » تكملة للصورة التى رسمها شاتوبريان لبلاد الغالة آيام الرومان ، وكان سر اهتمامه بهذا العصر اختلاط الأجناس والثقافات فيه .

« هناك فرنجة ظلوا على جرمانيتهم البحتة فى بلاد الغالة ، وكان هناك أيضا الغاليون الذين تحولوا الى الحضارة الرومانية تمام التحول وهؤلاء أفقدهم حكم البرابرة كل أمل وكانوا له ماقتين ، وكان هناك فرنجة انحازوا الى الأخلاق وآداب السلوك المتحضرة واختلف انحيازهم اليها شدة وضعفا، وكان هناك رومان كالبرابرة فى عقليتهم وسلوكهم »[١] واتخذ تييرى أسلوب شاتوبريان فى استخدام اللون المحلى الشعرى وترك العصر يصور شخصيته بما فيه ، مستعينا بأقل عون ممكن من خارجه ، وكان أهم مصادره ؛ المؤرخ المعاصر جريجوريوس التورى ومنه اقتطف « القصص والنوادر والحقائق المحلية وصور الأخلاق التى جاءت به ولا توجد الا به »[٢] .

ويذكر ارنست رينان ، وكان من الشبان المعجبين به وكانوا يقرأون له شيئا عن طريقته فى العمل فى أخريات أيامه : « قليل من المؤرخين فاقه فى براعته فى استخلاصه من النص كل ما يحويه بشأن العلاقات الاجتماعية والعادات فى حقبة من الحقب ، وكنت أرقب بدهشة العملية النشطة السريعة التى يستولى بها على مضمون الوثيقة الأصلية ، وقد يذهب أحيانا الى أبعد من ذلك المضمون ثم يدمجها فى انشائه . وقد يكفى القليل الباقى من نص مندثر لاعادة بناء النص كله كما لو كان كائنا عضويا تدب فيه الحياة بفعل باعث حيوى فيشب مكتملا أمام عين خياله »[٣] .

وفى سنة ١٨٣٧ نشر توماس كارليل مؤلفه فى تاريخ الثورة الفرنسية ،

(١) Thierry, Récits des temps mérovingiens, I, 4.

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ٥ ·

(٣) Renan,Essais de morale et de critique, 2d ed. (Paris, 1860); p. 115.

وفى السنة التالية أثنى على مواطنه سكوت ثناء بليغا ، فقال : « ان هــذه القصص التاريخية علمت الناس هذه الحقيقة التى تبدو بديهية ولكن جهلها مع ذلك كتاب التاريخ وغيرهم حتى علمتهم اياها ، وهى أن عصور العــالم الخالية كانت حافلة فى الواقع بالناس الأحياء ، لا بالبروتوكولات والأوراق الحكومية ، ومجادلات الناس وتجريداتهم لم تكن تجريدات ورســوما وأشكالا ونظريات ، وانما كانت أناسا يرتدون السراويل والحلل ، ولهم لغة الناس الحقيقيين وسماتهم وقواهم الحيوية »[١] .

وفى هذه العبارة نجد أصل تأكيد كارليل أهمية التراجم واعتماده على كتاب المذكرات ، وتصويره الشخصيات تصويرا يبعث على الاعجاب ، وفيه تكشف المظاهر الخارجية الجسمية للناس عن صميم نوايا نفوسهم . وبعد صدور قصص ويفرلى فى سنى تكوينه لم يرض عن الصــورة المعروفة المتداولة لتاريخه القومى كما قرأها فى تاريخ اسكتلندة لروبرتسون وتاريخ انجلترا لهيوم ، فاتجه مؤخرا الى التاريخ بعــد أن مارس كتابة القصــة والشعر والتراجم والنقــد الأدبى ، وان ما زاوله من هــذه الفنون علّمه ما ينبغى أن يكون عليه التأليف التاريخى .

« ان للتاريخ — فضلا عن التعليم بضرب الأمثال — أهدافا عديدة يجب أن يتوافر على خدمتها ، فهو رسالة صادرة عن السماء ، أفليس الله هو المنظم لكل شىء ؟ وموجهه الى الذات الداخلية بأكملها ، والى كل الملكات العقلية أو القلبية من أعمقها الى أبسطها ، وليس لمثل هذه الأهداف نهاية ، كما أن دهشة الانسان وتأمله لا حد لهما . وأول شرط من الشروط الضرورية لكل هذه الأهداف — سامية كانت أم منحطة ، وقتية كانت أم خالدة —

---

(١) Carlyle, "Sir Walter Scott" (in Critical & Miscellaneous Essays)

هو أن نرى الأشياء التى جرت ، وأن نصورها كاملة كما لو كانت أمـــام أعيننـــا » [١] .

وكان الأدب الألمانى الذى كشف له من قبل عن « سماء جديدة وأرض جديدة » — وذلك بعد شروعه فى قراءة سكوت بوقت قليل — قد أدخل هذا الأسلوب فى التاريخ . وقد دوّن كارليل فى بعض مذكراته فى أيام شبابه قوله ان مجرد وصف هردر للحيوانات والكائنات الحية يجعلها ممتلئة بالحياة والعطف والمودة ، ومن باب أولى يكون وصف الناس فى مختلف أعمالهم ونزعاتهم على هـــذا النحو . وفى رأيه أن كتابى شللر عن ثورة الأراضى المنخفضة وعن حرب الثلاثين عاما يدلان على ما يمكن أن يقوم به المؤلف المسرحى الموهوب فى احياء حوادث الماضى ، كما أن هذه الكتابات ألهمت كارليل ببعض طرائقه فى معالجته لصراع الشخصيات بين كبار زعماء الثورة الفرنسية وفى الكيفية الساخرة التى قابل بها ذكريات الحوادث الهامة بعضها بالبعض الآخر .

وأعلن كارليل فى عبارة له موافقته على قبول شـــللر لكرسى التاريخ فى جامعة يينا وجاء فى هذه العبارة قوله : « ان حب تأمل الأشياء كما ينبغى أن تكون بدأ يخضع لحب معرفة الأشياء كما هى » ، « وهى عبارة تنبأ فيها عن غير قصد أو شعور بتحوله هو عن التأليف الانشائى ، وبيان ذلك أن كارليل لم يستطع أبدا أن يتخلص من الكره الكلفينى الموروث للقصص باعتباره أمرا ينافى الصدق فعلا ، ولم يجد بناء على ذلك الحـــرية الا فى التأليف التاريخى وكتابة الرسائل فى الموضوعات الجـــارية . وفى رأيه أن التاريخ حق وواقع ولكنه يشمل ما هو مثالى أيضا ، وهو كالحاضر واقع حى يخلع عليه تقادم الزمن غرابة رومانسية . وقد وقع له هـــذا الاعجاب

(١) Alexander Carlyle, ed., Letters of Thomas Carlyle to John Stuart Mill (London, 1923).pp. 82-83.

بالتاريخ فى أثناء صباه حين تطلع ببصره وهو على تل برنزويك المشرف على مسقط رأسه الى حفائر حديثة لآثار محلة رومانية من محلات الحدود المحصنة فى بلاتوم ، وكان هذا لقاء غريبا وجها لوجه مع آثار القرون البائدة »(١) .

ولما نضج تأمله أصبح الزمن لديه موضع عجب أكثر مما كان الفضاء اللانهائى بالنسبة لخيال الناس فى عصر جاليليو ، ولو أن كارليل خيّر بين أداة سحرية تلاشى الفضاء وأداة مثلها تلاشى الزمان لاختار الأخيرة .

« ما عليك الا أن تتمنى أن تكون موجودا فى لحظة زمنية غير محددة لتنتقل منها رأسا الى لحظة زمنية محددة ، حقا ان ذلك لأعظم : أن تقذف بنفسك مختارا من خلق العالم من شواظ من نار الى فنائه فى لهيب من نار أيضا ، أن تكون حاضرا تاريخيا فى القرن الأول تتحدث الى بول وسنيكا وهناك — متخيلا وجودك فى القرن الواحد والثلاثين — تتحدث أيضا وجها لوجه مع بول وسنيكا وآخرين لا يزالون حتى الآن مستكنين فى أعماق المستقبل » (٢) .

وفى عام ١٨٢٤ كان له حديث مع القصاب ليجندر الذى تجرأ على أن يدعو روبسبير ليسمع دفاع دانتون عن نفسه ، وهذا يشبه المعجزة التى أعادت الى عالم كارليل اليومى بطولات عهد الارهاب ومآسيه التى بعد بها العهد على قصره ، وحاول بدوره أن ينقلها الى وطنه لقراء تاريخه مذكرا اياهم أن أخت مارا لا تزال حية فى باريس . وذكر چوسلان البريكلندى فى تاريخه عرضا أن الملك چون كافأ دير القديس ادموند على ضيافته له بمبلغ ضئيل من المال ، وعلق كارليل على ذلك بقوله : « كم من أشياء فى تاريخ

(١) Thomas Carlyle, Reminiscences, ed., J.A. Froude (New York, 1881), p. 132:
(٢) Carlyle, Sartor Resartus, Bk. II, Chap. VIII.

چوسلان كما هو الشأن فى كل التاريخ لا يمكن الفحص عنها ولكنها فى الوقت ذاته موثوق بها ، وأشياء غامضة جد الغموض ولكنه لا يمكن الشك فيها مما يبعثنا على تأويلات لا حصر لها ، ذلك أن الملك چون وهو الذى كانوا يعرفونه بچون الذى لا أرض له ، كان يحيا اذ ذاك وقد ترك فعلا تلك الليرات الثلاث عشرة ، ان لم يترك ما هو أكثر ، وهو قد عاش وبدا على نحو أو آخر ، وعاشت معه وبدت واياه دنيا بأسرها . وهنا نجد الخاصة الكبرى التى لا يمكن قياسها وهى التمييز الى درجة دقيقة حقا بين أبسط الحقائق التاريخية وكل التصنيف المتخيل أيا كان » (١) .

ومما قوى الشعور بقرب الماضى ، تجـديده وابتكاره فى الأسلوب ، واستخدام الفعل المضارع دائما ، والنفس الطويل والتعجب والتقـديم والتأخير وتقسيم للجملة ابتدعه خصيصا لينقل للقارىء نغم ونبرات صوت المؤرخ المتحدث وأشخاص أحداث التاريخ الذين يسهب فى نقل كلامهم . وقال دفاعا عن ذلك : « ان الأسلوب الانجليزى العادى فى التحرير يتعلق بما أسميه ما يقال وما يسمع عن الأشياء ، وأن أهم عمل عندى لا أشعر بارتياح الا اليه هو تسجيل وجـود الأشياء ووجـودها الحسى المادى بألوانه » (٢) ومن هنا كان تفضيله للمصادر التى تشبه تاريخ چوسلان فى سذاجة وصفها وكثرة حديثها ، ولكتاب التراجم مثل بوزويل الذين تكثر لديهم التفصيلات الحية .

ويذكرنا كارليل دواما بأنه فى وسط أكبر الحوادث وأعنفها تسير حياة معظم الناس سيرها الرتيب . أعدم لويس السادس عشر بالمقصلة ، لقد تم

(١) Past and Present, Bk. II chap. I.

(٢) Letters of Thomas Carlyle to John Stuart. Mill, P. 134.
الخطاب الى مل بتاريخ ٢٢ يوليو ١٨٣٦ .

ذلك فى مدى نصف ساعة أو نحو ذلك وتفرقت الجموع ، أما باعة الحلوى والقهوة والألبان فانهم ظلوا يطلقون نداءاتهم اليومية التافهة ويسير العالم بتقلباته كما لو كان هذا اليوم يوما عاديا (١) ، وفى ذروة الارهاب ازدهرت فى باريس ثلاث وعشرون دارا للتمثيل وما يقرب من ستين قاعة عامة للرقص، والمنظر الذى يرجع الى القرن الثانى عشر والوارد فى الكتاب الثانى من مؤلفه الماضى والحاضر (١٨٤٣) أصبح حقيقة مجسمة بدقة وصفه للوسط الاجتماعى والحياة المنزلية — فعجائز سانت ادموندزبرى يلوحن بعصى المغازل فى وجه جباة الضرائب الذين استولوا على سلعهن المنزلية لعجزهن عن دفع ضريبة « بنس الحصاد » ، فى حين « استولى الصليبيون على بيت المقدس ثم فقدوه ثانية وغطى ريتشار عينيه بيديه حتى لا يراه وقد عجز عن دخوله (٢) . وقد هجر كارليل ليحدث مثل هذا الأثر السبيل السهل أى سبيل الاطلاع على المذكرات الجافة من قراءاته ، أو على مواد المؤرخ المعنى بالآثار الذى أطلق عليه سكوت فى قصة ايفانهو اسما منحوتا معناه جاف كالتراب (Dryasdust). ويخبرنا كارليل كيف كافح « ليحافظ على المادة كلها قائمة متحركة فى العقل الحى والذاكرة ، بدلا من وضعها فى حزم الورق ، أو وضعها بطريقة ميتة أخرى ، فما يعيش فى ذاكرتك وقلبك هو وحده ما يجدر تدوينه ليطبع ، وهو وحده يزداد حظه من الوصول الى القلوب الحية وذاكرة الآخرين » (٣) ووصف ما قام به من بحث لنشر رسائل وخطب كرومويل (١٨٤٥) ، فقال انه : « عمل أشبه بعمل النمل الحفار فى الظلام تحت الأرض ، وذاتى الداخليـــة مشغولة جدا أحيانا ، وفيما عـــدا ذلك

(١) History of the French Revolution, Vol. III Bk. II, Chap. VIII:

(٢) Past & Present, Bk. II, Chap. V.

(٣) Alexander Caryle, ed., New Letters of Thomas carlyle (London and New York, 1904), II, 50.

فالسكون شامل » [١] وهكذا عرف كارليل كأستاذه جوته الدور الابداعى للعقل اللاشعورى .

وأخذ عن هردر شجرة أهل الشمال المسماة Igdrasil ليرمز بها الى العلاقة الحيوية بين ماضى الانسانية وحاضرها ، وأعاد ما قال فى أسلوب أبعد عن الخيال : « ان كل القرون بعضها أبناء بعض مباشرة ، وغالبا ما نجد أن السمات المختلفة المحيرة لأحدث الأجيال تكشف فى صورة الأجداد الأول عن نفسها ، فيوضح كل منهما الآخر » [٢] ولم يكن الماضى يهمه الا بقدر ما ينصب على الحاضر ، فقال فى أولى صفحات كتابه (كرومويل) : « ان فن التاريخ — والبون الشاسع بين المؤرخ المعنى بالآثار والشاعر — هو هذا التمييز الواضح بين ما لا يزال يصل الى السطح وقد يثمر لنا ، وبين ما بطل صعوده الى السطح ، ولكنه يفنى ويستحيل ترابا وهو آمن تحت الأرض ، ولن يرسل بعد ذلك بالأوراق أو الأثمار الى بنى الانسان [٣] أما أن بعض الماضى يموت فان ذلك لا يكذب بحال استمرار التاريخ لأن وجه الشبه المأخوذ من علم الحيوان لا يزال ثابتا ، فالانحلال كما لاحظ هردر ضرورى للنمو ، واستعار كارليل من هردر مصطلحه « جدة الميلاد » لوصف التجدد المستمر فى مولد النظم والمثل العليا من التربة التى زاد خصبها بموت الكائنات التى عجزت عن التشكل للبيئة المتغيرة ؛ وأخذ عن جوته فكرة تعاقب عصور الايمان والشك ، وعصور البناء والتحليل الهدام باعتبارها وسيلة أخرى تمثل ظاهرة الانحلال فى داخل المجتمع الحى .

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٢٤٤ .

(٢) Past and Present, Bk. II, Chap I:

(٣) Thomas Carlyle, Oliver Cromwell's Letters and Speeches (Centenary ed., London 1897), I, 7.

ووجد كارليل أن مكانه فى سير التاريخ يقع عند لحظة انتقال من عصر هدم — وهو عصر الاستنارة — الى عصر بناء فى بداية ظهوره ، فدرس أحوال الثورة فى فرنسا وفى انجلترا فى عهد كرومويل لما يمكن أن يلقى من ضوء على المستقبل ، واستولت عليه الأحاسيس العميقة فوصف مؤلفه تاريخ الثورة الفرنسية بأنه « خرج دافئا من روحه » — وهو يشير دائما فى كتابه « كرومويل أو فى الماضى والحاضر » — الى حوادث شبيهة معاصرة . ولم يكن كتابه « الماضى والحاضر » دعوة للعودة الى الاقطاع ، ولكنه اثبات للخاصة الوظيفية ، وكذلك للصفة الوقتية للنظم ، وهى الصفة التى أبرز أهميتها فى فرنسا جماعة المفكرين السانسيمونيين الذين ارتبط بهم أوجستان تييرى منذ وقت مبكر ، ويؤكد كارليل الدليل القائم فى تاريخ جوسلان البركلندى على أن الروابط الاقطاعية كانت قد بدأت تنحل فى القرن الثانى عشر . « وكل أنواع المثل العليا لها حدودها المقدرة لها ، ولها حظها وفتراتها المعينة للشباب والنضج والكمال والانحلال والانحطاط والموت النهائى والزوال » [1] . وأن احياء كارليل لشخصيتين جليلتين فى التاريخ الانجليزى — وهما كرومويل والآب شمشون — قد نقل الى لغة الحاضر القرارات الحيوية لرجلين من رجال الأفعال ، وهذا النقل أمر شديد الصعوبة بالنسبة لتاريخ كرومويل بسبب صمته أو عجزه عن الكلام كخطيب أو مؤلف ، وجوهر التاريخ عند كارليل هو الحركة ، والعالم أشبه بأبى الهول يثير دواما مسائل التوافق ، ويعاقب بالموت المجتمعات التى يغلب الجمود على نظمها .

---

(١) Past and Present, Bk. II, Chap. IV.

الفصل السادس

بعث الماضى

ميشيليه

لجول ميشيليه -- اذا شاء — أن يدافع عن متناقضاته بمثل ما دافع ويتمان فيقول : « انى كبير وأحوى أشياء كثيرة » ؛ هذه الأشياء الكثيرة هيأت له أن يتعلم من أكثر من معلم ، وأن يندمج فى كثير من الحوادث فى تاريخ الانسانية ، وعلى الرغم من أنه شب « كما يشب عود العشب بعيدا عن الشمس بين حجرين من حجارة الرصف فى باريس »[1] ، فان احساسه بالطبيعة بلغ حدا جعله يحسن وصف العلاقة الوثيقة بين الشعوب وأوطانها ، كما أن الكفاح فى سبيل التخلص من قيود المهنة اليدوية صهره وجعل منه رجل أفعال دون أن ينزع عنه ميله الى الوحدة والأحلام والتأمل ، وزال عنه خجله الناشىء من ضعة أصله الاجتماعية برغبته الصادقة فى أن يشرك غيره معه فى العلم الذى عانى الصعاب فى سبيل كسبه . وهذه الرغبة جعلت منه معلما ملهما ؛ « ان تلك الأجيال الشابة العزيزة المليئة بالثقة قد جعلتنى على وفاق مع الانسانية ، واذا كان ثمة فضل شخصى أعاننى على أن أكون مؤرخا فانى مدين به — فضلا عما أدين به لأسلافى الأعلام — الى التعليم الذى كان بالنسبة الى نوعا من الصداقة . أولئك الأعــلام من المؤرخين امتازوا بالذكاء واتزان الأحكام والعمق ، ولكننى أحببت أكثر مما أحبوا ،

(١) المقدمة ص ١٧ (بدون تاريخ) Jules Michelet, le Peuple Paris

وتألمت أكثر مما تألموا » [1] ان الميول العقلية القوية التى التهمت شبابه ، وطموحه الى حياة الطهر والمنزع التصوفى لم تتغلب على نزعات الجسد التى تخلع على كثير من صفاته طابعا قويا من الانسانية . وكان تناقض صفاته نفسه أمرا واضحا للعيان فى المظهر والأسلوب فشفتاه الرقيقتان بلا ترهل تتوسطان بين حاجبى رجل الأحلام المتحمس وعينيه وبين ذقن رجل العامة الكبيرة المربعة ؛ ان ظاهر كتابته تبدو فيه الحركة والانفعال ولكن يستقر تحته بناء متين ، وأخيلته الغزيرة ليست غامضة أبدا ، واللون والدفء لا يطمسان أبدا الدقة الفرنسية والوضوح الفرنسى ، ويجمع فنه — كما جمع فن الفنان الذى أحبه — ميخائيل انجلو — بين القوة والرقة ؛ واهتمامه بالرياضيات والعلوم الطبيعية والطب ، يكاد يعدل اهتمامه بالأدب والفلسفة والفنون ، واتقانه للوصف وتحليل الشخصيات اتقان كان يصح أن يجعل منه قصصيا كبيرا موهوبا ، وخيال الشاعر والهامه ، وميل الفيلسوف الى التعميم — كل هذا لم ينتقص صبره على دقة بحث التفصيلات وعلى نقد المصادر النقد التحليلى الذى فرضته العلوم على ذمة المؤرخين .

ثار حب الاطلاع على الماضى فى نفس ميشيليه لأول مرة حين اصطحبته والدته الى متحف الآثار الفرنسية ، وهو مجموعة من قطع النحت التى ترجع للعصور الوسطى أنقذت من سورة غضب الثورة الفرنسية وتحطيمها للصور والتماثيل ، وبعد رجوعه من تلك الزيارات للعمل المرهق فى المطبعة التى كان يملكها والده ، والذى كان اذ ذاك محبوسا لعدم وفائه بديونه ، احتفظ فى ذهنه بأثر الانفعال الذى لم يتغير ولم يضعف — قال : — « وكان قلبى يدق حين دخلت تلك الردهات المظلمة ، وتأملت الوجوه

(١) المصدر السابق ص ٢٢ .

الشاحبة ، وحين تجولت باحثا متحمسا منقبا خائفا من قاعة الى أخرى ، ومن عصر الى آخر . فعمّ كنت أبحث ؟ لست أدرى ! لعلى كنت أبحث عن الحياة فى تلك الأيام وعن روح تلك العصور . ولم أكن موقنا أن أولئك الراقدين من الرخام فوق قبورهم ليسوا على قيد الحياة ، وحين انتقلت من آثار القرن السادس عشر الفاخرة المرمرية البراقة الى قاعة الميروفنجيين وصليب داجوبرت لم أكن على يقين من أن شلبريك وفرديجوند لن ينهضا قائمين أمام عينى »[١] .

وتلقى ميشيليه من أسرة أمه الريفية — وهى من ريف اقليم الأردن — الأساطير المروية والتواريخ القديمة لأراضى الحدود الشمالية ، فهيأه ذلك لدراسة فرواسار وسكوت .

وأتى تدربه على التاريخ عن طريق دراسة اللغات والأدب فى بداية العصر الذى غزا فيه الذوق الرومانسى فرنسا ، حصن الكلاسيكية الحديثة . وجاء هذا متأخرا عن انتشاره فى غيرها ، وكان أستاذه ڤلمان قد علمه فى جامعة باريس أن ينظر الى الأدب على أنه تعبير عن روح المجتمع ، كما أنه شجعه على قراءة الآثار الأدبية الأجنبية ليطلع على ما ينعكس فيها من صفات الأمم ، وهذا الميل الجديد الى التاريخ جاء متخلفا عن الميل للأدب . وفى عام ١٨٢٠ وبعد عام من حصوله على درجة الدكتوراه فى الآداب برسالة لاتينية عن پلوتارخوس كان يقرأ فى وقت واحد تاريخ العالم لبوسويه ، وآداب روسو وبيرون ، والتأملات الشعرية للامارتين فور ظهورها ، وقرأ عام ١٨٢١ تاريخ انجلترا لهيوم ، ومقال ڤولتير عن عادات الأمم وأخلاقها ، وقصة اتالا لشاتوبريان ، وأربعا من قصص سكوت .

(١) Michelet, Ma jeunesse (Paris 1884), p. 45.

وأدى الجمع بين الفلسفة واللغات والتاريخ — وهى المواد التى عين ميشيليه لتدريسها فى مدرسة سانت بارب — الى كشف وفق بين جوانب تفكيره ، فقد قرأ فى يناير ١٨٢٤ حين كان فى السادسة والعشرين من سنه وفى أثناء محاولته الربط بين الفلسفة والتاريخ ، مؤلف دوجالد ستيوارت فى تاريخ علوم ما بعد الطبيعة والأخلاق والسياسة ، ولاحظ فى المجلد الثالث هامشا للمترجم الفرنسى انتقد فيه — استنادا الى سالفى الايطالى — اغفال ستيوارت ذكر ڤيكو ، وكان كتابه « العلم الحديث » قليل الانتشار آنذاك فى فرنسا وغير معروف مطلقا فى انجلترا ، ولم يقرأ كولريدج مؤلفات ڤيكو الا فى ١٨٢٥ وعن طريقه أثر كتاب ڤيكو « العلم الحديث » فى المؤرخ الانجليزى توماس أرنولد [1] . أما « ولف » فانه لم يكن قرأه الا بعد نشر « المقدمة » بخمس سنوات ولم يعرف نيبور شيئا عن وجوده ، وهذا بالرغم من ظهور ترجمة ألمانية له فى ١٨٢٢ . وتلقى ميشيليه وهو من أبناء الشعب فكرة ڤيكو الرئيسية بحماسة ، ومفادها أن الحضارة هى نتاج جماعى للانسانية ، بمضموناتها الثورية بالنسبة للأدب والدين والقانون والسياسة والاقتصاد . وبدأ فى يونيو ١٨٢٤ بترجمة « العلم الحديث » وفى ١٧ من أغسطس فاضت حماسته فى خطاب وجهه الى التلاميذ الذين نالوا الجوائز المدرسية فى مدرسة سانت بارب جاء فيه : « فلينكب كل من حاول عزل أى فرع من فروع المعرفة ، ان من يفعل ذلك قد يلاحظ الحقائق ولكنه لن يستطيع ادراك الروح التى تهبها الحياة .. المعرفة واحدة فاللغات والأدب والتاريخ ، أو الطبيعة والرياضيات والفلسفة ، كلها أنواع من العلم تبدو

---

(١) انظر المقدمة فى ترجمة چامباتستا ڤيكو لنفسه وترجمة Bergin و Fisch وفيها مبحث عن شهرة ڤيكو .

أنها متباعدة جدا ، ولكنها تلتقى فى الواقع ، أو على الأصح تكون نظاما فلسفيا واحدا »[١] .

وتاريخ الفكر وتاريخ العمل سلسلة متصلة الحلقات لا تنفصم عراها . « يظهر الفرد برهة ويندمج فى تفكير الجماعة وقد يعدل فيه بعض الشىء ثم يموت ، أما النوع وهو الذى لا يموت فانه يجنى ثمرة حيـاة الفرد الفانية »[٢] .

وبعد شهر من عثور ميشيليه على الاشارة الى ڤيكو سمع عن هردر من صديق اسكتلندى . وفى أثناء قراءته لكتب هردر ببطء لحداثة عهده بدراسة اللغة الألمانية التقى فى مايو ١٨٢٥ بادجار كينيه الذى كان قد بدأ يترجم « آراء فى التاريخ » ، وتقاسم الشابان ما كانا يتحمسان له وأصبحا صديقين مدى الحياة ؛ وأضاف ميشيليه الى ما تعلم من نظرات ڤيكو النافذة آراء هردر فى العلاقة الوثيقة بين الانسان ووسطه الجغرافى ، وقد أوحت هذه العلاقة الى ميشيليه بعضا من ألمع كتاباته ، وعرف الفرنسيون ڤيكو وهردر فى وقت واحد فى عام ١٨٢٧ من الترجمة التى قام بها ميشيليه لڤيكو وكينيه لهردر ، وكوفىء ميشيليه على احيائه دراسة ڤيكو بدعوته لتدريس التاريخ فى مدرسة المعلمين العليا ، وكانت أرقى معهد تدريب للمعلمين فى فرنسا .

وعن طريق هردر توصل ميشيليه الى معرفة ما قامت به ألمانيا فى ميادين الأدب واللغويات والتاريخ ، ومجموعات الأغانى الشعبية والآثار الشمالية. كما عرف فنكلمان وجوته وتفسير كرويتزر للأساطير وقصائد نبلونجن ومؤلف ليبور عن روما . وفى أثناء زيارة له لألمانيا دامت شهرا فى ١٨٢٨

---

(١) G. Monod, La Vie et la pensée de Jules Michelet (Paris, 1923), I; 23.

(٢) المصدر السابق ٠

سمع عن يعقوب جريم ، وأدى هذا الى سماعه عن ساڤينى واللغويات الهند أوربية واتفريد موللر . وفى عام ١٨٣٠ وصل الى درجة من العمق فى هذه الشئون هيأت له أن يتناول نيبور بالنقد لقصوره عن ادراك المعنى الدقيق العميق للعصور الأسطورية والدينية [١] ولاهماله ڤيكو ؛ وكان ميشيليه اذ ذاك قد قطع شوطا كبيرا فى مؤلف عن تاريخ الجمهورية الرومانية يتمم به خطة نيبور فى الوصول الى حيث بدأ جيبون .

جذبت روما ميشيليه باعتبارها أساس تاريخ فرنسا وطنه ، وأساس الأحكام العامة التى قال بها ڤيكو . وقد قرر أن من الممكن أن تصبح كشوف نيبور بعد تعديلها بآراء ڤيكو وتفسير موللر للأساطير والمعارف الأترورية فى مؤلفه « الاتروريون » عام (١٨٢٨) شيئا جذابا للقارىء الفرنسى ، وذلك بتنسيق ترتيبها والباسها ثوب القصص الذى اقتبسه تييرى عن سكوت وشاتوبريان . وأما بالنسبة للقرون الأخيرة من عصر الجمهورية بما فيها هانيبال وقيصر فان المجال فيها خلا تماما لميشيليه ولم يكن نيبور فيها منافسا له .

وقام ميشيليه برحلة شاقة فى ايطاليا دامت ستة أسابيع والتقى فيها بالسندرو مانزونى ، وكان مانزونى قد مزج فى قصته التاريخية الكبيرة « الخطيبان » (١٨٢٥) أسلوب سكوت بفلسفة ڤيكو . وهيأت هذه الرحلة لميشيليه مادة لفصل افتتاحى وصف فيه جيولوجية شبه الجزيرة الايطالية وجغرافيتها لبيان الأهمية الاستراتيجية الحربية لموقع روما . ودرس ميشيليه سكانها الأول من حيث هم شعوب — لا كأفراد ، وأخذ عن موللر من التفصيلات الدقيقة الحية ما قدم به شعوب البلاجين الزراعيين بعد أن كاد يطويهم النسيان هم ودياناتهم السرية الرهيبة ، كما قدم لنا شعبا

(١) المصدر السابق ص ٢٢٩ .

تاريخيا وان يكن لا يقل غرابة ، وهو شعب الاتروريين الذين أدخلوا فى ديانة الرومان الواقعيين عنصر الاستخارة وعبادة الأسلاف والآلهة المنزلية . وقد تبين من المفردات اللغوية أن اللاتين الذين قاموا بتأسيس الجمهورية بعد طرد ملوكهم الأتروريين هم شعب هندى جرمانى كانوا فى أول أمرهم يشتغلون بالرعى وقطع الطريق ، وشبّه ميشيليه السابينين المتحالفين بسكان الجبال الاسكتلندنيين الذين يعيشون على ابتزاز الأمــوال قسرا . ونهج ميشيليه منهج ڤيكو وساڤينى ونيبور فارتأى أن قوانين الألواح الاثنى عشر تجمعت من مراحل حضارية مختلفة وهى مرحلة البدائى الهمجى ، ومرحلة الشريف الذى لا يخالط أحدا ، ومرحلة العامى الحسن العشرة الذى يعد العالم كله وطنا له . وقد تمسك الرومان بتأويل القانون تأويلا عتيقا زمنا طويلا وكان همهم التمسك بالحرف لا بالروح ، يوضح هذا تهربهم من تنفيذ شروط التسليم التى قبلوها عقب موقعة الشــعاب الكودية ، كما يوضحه أيضا تدميرهم قرطاجنة . واذا كان هذا هو رأى ميشيليه فى الخلق الرومانى فلا عجب أن كانت له تحفظات على نظرية نيبور فى تقاليد الرومان الشعرية . قال :

« يبدو لى أنه لم تكن هناك أمم كانت ظروفها أقل ملاءمة للشعر من الرومان ، كانوا أخلاطا من الأقوام ضمتهم أسوار واحدة ، واستعاروا من جيرانهم عاداتهم وفنونهم وآلهتهم ، فهم مجتمع مصطنع حديث لا ماضى له ، وفى حرب مستمرة الا أنها حرب يسودها الجشع لا الحماسة . فى أخلاقه الطمع والبخل على عكس رجل العصابات اليونانية (الكلفت)[1] الذى كان بعد الانتهاء من المعركة يغنى على جبله المنعزل . أما الرومانى فكان يرجع

(١) الاشارة هنــا الى مؤلف Fauriel فى « الأغانى الشعبية فى اليونان الحديثة » وقد تأثر به تييرى .

بأسلابه الى المدينة ويزاحم مجلس الشيوخ فى الاقراض بالربا والمشاكسات القضائية ، وتصرفاته هذه هى تصرفات المحامى يحلل لفظ القانون على طريقة النحويين ، أو يعصره عصرا بالمجادلة ليستخرج منه حجة أو منفعة ، ولا يتفق هذا مع الشعر فى شىء » (١) .

وفى الحوليات الرومانية الأولى أمر جدير بالالتفات وهو الصراع مع الحضارات الأخرى . وقد قص علينا ميشيليه بروح القصصى سكوت « الملحمة الرهيبة فى الحرب السامنية وهى معركة المدينة ضد القبيلة أو معركة السهل ضد الجبل » وهى قصة المعركة بين السكسون وأهل الجبال فى اسكتلندة « الأولون منتظمون فى كتائب كبيرة والآخرون جموع غير منتظمة . ولكن الطبيعة تحالف فريقا على آخر ؛ فالجبال تخفى أطفالهم وتحميهم ، والممرات المظلمة والقمم المرتفعة والسيول الصاخبة وثلوج جبال الاپنين وصقيعها كلها عناصر طبيعية تقف فى صف أبناء الأرض ضد أبناء المدينة .. وقد ملأت هذه الحرب الضروس كهوف الاپنين بالهاربين ، على أن هؤلاء اللاجئين كانوا أقل حظا من أولئك الانجليز الذين فروا الى حيث لا تمتد اليهم يد القانون ، فلم يخلفوا وراءهم أثرا أو صيحة حرب أو أسى » (٢) .

أما المستعمرات اليونانية التى غلبها الرومان فى ايطاليا فكانت عظيمة حتى فى اندثارها : « ان ساحل تارنتم (وهذا الأثر الضعيف أبلغ من غيره) قد احمر لونه من بقايا الأوانى الخزفية التى تراكمت عليه أكواما من تلك المدينة الكبيرة » . وحسمت الحروب الفينيقية أمر سيادة العالم : « أتكون

(١) (بدون تاريخ Michelet, Historie de la république romaine (Paris pp. 311-312

(٢) المصدر السابق ص ١٨٣ .

من نصيب الأجناس الهندية الجرمانية أم السامية ـ أى للعبقرية البطولية فى الفن والتشريع من ناحية ، أم لروح الصناعة والملاحة والتجارة من ناحية أخرى ؟ [١] . ان قرطاجنة فى هزيمتها تثير الخيال . « لقد قضت عليها روما فحدث اذ ذاك شىء لا مثيل له فى أى وقت آخر من التاريخ : زالت حضارة بأسرها فجاءة زوالا تاما كأنها الشهاب الساقط ، وكل ما بقى من آثار العالم القرطاجنى هو رحلة هانو وطوافه ، وبعض الأنواط ، وما يقرب من عشرين بيتا من الشعر فى قصائد پلاوتوس [٢] . وقد وجد ميشيليه ، كما وجد نيبور من قبل ، أن السبب فى سقوط الجمهورية الرومانية هو القسوة والظلم فى قوانينها الخاصة بالملكية ، ولذلك أثنى ميشيليه على قيصر باعتباره « رجل الانسانية » الذى أتاح اغتياله لأغسطس « أن يقوم بالمهمة العظمى للامبراطورية ألا وهى تسوية الفوارق فى العالم » .

وبعد ثلاثين سنة من نشر تاريخ الجمهورية الرومانية ، (١٨٣١—١٨٣٢) أعاد ميشيليه قراءته ووصفه صادقا فى قوله « ان المؤرخ يتكون تدريجا ولكننى كنت اذ ذاك قد أصبحت كاتبا » [٣] والأشياء التى اهتم بها شخصيا أظهر فى معالجته القرون الأخيرة وهى القرون التى انتهى فيها اعتماده على نيبور ؛ فنجده يبذل براعته فى وصف حرب قرطاجنة مع جندها المرتزقة الثائرين عليها ، والموضوع لا صلة كبيرة له بتاريخ العالم الا أنه احتوى على ما يغرى الكاتب الفنان . قال : « وفى دنيا خلفاء الاسكندر ، وفى ذلك العصر الحديدى كانت حروب المرتزقة الدموية تفزع الشعوب جميعا ،

(١) المصدر السابق ص ٢٠٩ .

(٢) المصدر السابق ص ٢١٠ .

(٣) المصدر السابق ص ٥ ، مقدمة ١٨٦٩ .

وسميت بالحرب التى لا يخمد لها أوار » [١] . وبدأ نضج المؤرخ حين شرع فى المؤلف الذى شغل حياته وهو تاريخ فرنسا (١٨٣٣—١٨٦٧) .

وقد عين ميشيليه فى عام ١٨٣١ رئيسا للقسم التاريخى فى دار الوثائق القومية فمهد له هذا التعيين سبيل الاطلاع على عدد ضخم من الوثائق لم يمسسها المؤرخون حتى ذلك الحين ، وهذا فى الوقت الذى اتجه فيه ميشيليه الى ايمانه بمصير الشعب الفرنسى وقيادته للانسانية فى تطلعها للعدالة الاجتماعية . وبدا كما لو أن ثورة ١٨٣٠ تصديق لما ذهب اليه ڤيكو، اذ أنها قدمت لنا « أول نموذج لثورة لم يكن لها أبطال وليس لها أسماء أعلام . لقد قامت الجماعة بكل شيء . لم يقم فيها أحد بالتنظيم أو القيادة ، ولم يبرز فيها أحد على غيره » [٢] ففى الأيام الثلاثة من شهر يولية لم يرتكب شعب باريس — التى حرمت من رجال الأمن — سرقة أو اغتيالا فى أثناء قيامه بالتخلص من ملوكه الرجعيين من آل بوربون ، وكيل الضربة القاضية للطبقة الارستقراطية من ملاك الأرض . ان الشعب الفرنسى يجب أن يتعلم أن تنظيمه نفسه بنفسه على هذا النحو انما هو نهاية تاريخ طويل ، وأن يرى أن فرنسا « روح وانسان » وأنها تنمو فى سبيل العدالة والثقافة . وقد لاحظ مؤرخون آخرون بعض نواحى هذا النمو ؛ فلاحظ تييرى الصدام بين الشعوب واختلاطها ، كما لاحظ جيزو (وهو الذى عيّن ميشيليه فى دار الوثائق) أسس النظم ، وكان ميشيليه يطمح فى اظهار هذا النمو فى مجموعه ، وفى النظر الى فرنسا كائنا عضويا معقدا دقيقا يؤثر كل عضو فيه على غيره .

---

(١) المصدر السابق ص ٢٤٣ .

(٢) 'Introduction à l'histoire universelle' وقد نشرت فى مؤلف **Albert Sorel** وهو : **Michelet, histoire et philosophie (Paris, 1900), p. 91.**

وكان فى رأيه أن فرنسا يجب ألا تبدو منعزلة ، اذ هى جزء من الحركة الكبرى للروح الانسانية فى سبيل تحرير نفسها من طغيان المادة ، وهى الحركة التى بينها ميشيليه فى مؤلفه « مقدمة التاريخ العالمى » (١٨٣١) . وذهب فيه الى أن العصر القديم كان مقيدا بأغلال المناخ والجنس ، ثم كان أن ولدت فرنسا بعد أن بدأت المسيحية صراعها لاخضاع القوة الغاشمة ، وشاركت فى أول نصر حازته الكنيسة ، وكان ذلك فى الحرب الصليبية التى سخرت فيها القوة الحربية لأهداف روحية . قال : « لقد تمت فى مدى ألف عام معجزة العصور الوسطى الطويلة ، تلك الأسطورة العجيبة التى ينمحى أثرها كل يوم من الأرض ، والتى قد يشك فى وجودها ذاته بعد عدة قرون من وقتنا هذا ، لولا أنها ثبتت وتبلورت الى الأبد فى قمم الأبراج والنوافذ الوردية الشكل والعقود الكبيرة العديدة فى الكاتدرائيات . ان كل برج من هذه الأبراج ذات القمم يبدو وكأنه يرتفع الى أعلى مسبحا مصليا محاولا تحقيق أمنية حال دون تحقيقها طغيان المادة »[1] ان العصور الوسطى لم تحقق الا جزءا من تحرير الروح الانسانية لأنها تركت الانسان يستغل أخاه الانسان . وقد رفعت فرنسا اللواء فى كفاح العصر الحديث فى سبيل المساواة الاجتماعية ، وان تاريخها ليوضح نظرية ڤيكو فى الانسانية الخالقة لذاتها .

وقد جعل ميشيليه مقياس قدرته على تفسير التاريخ ، العمل على ايجاد أساس لعرض تطور فرنسا ونموها المستمرين دون انقطاع منذ نشأة الأمة الى عصره . واستعان فى « بعث » الحياة الغابرة بعلم طبقات الأرض ، وتقويم البلدان ، وعلم الأجناس البشرية ، واللغويات ، والنميات ، والنقوش

(١) المصدر السابق ص ٣٢ .

الأثرية ، والعمـارة ، والحـوليات ، والمذكرات ، والوثائق السـياسية والاقتصادية ، والأدب ، والفقه ، والنظريات العلمية ، خاضعا لما فرض على التاريخ من « شروط جديدة » اذ هو لم يعد يقنع بمجرد الحكاية وانما هو يعيد ذكرى العصور ويعيد صنعها ويبعثها من جديد . ولابد له من شعلة يعيد بها اشعال الرماد الذى خبا وبرد منذ زمن بعيد [١] . وحين ارتد ميشيليه فى عام ١٨٦٩ ببصره الى الوراء وشاهد العمل الذى أتمه فى مدة تربو على ثلاثين عاما ابتسم بحزن وقال : « فى صباح يولية المشرق ، وأمله الواسع ، ونشاطه القوى ، لم يرهب القلب الفتى هذا العمل الذى يفوق طاقة البشر » [٢] . وكان قد بلغ الخامسة والثلاثين حين نشر المجلد الأول فى عام ١٨٣٣ .

وفاقت المجلدات الستة الأولى فى مـداها وعمقها كل ما سـبقها من محاولات لاحياء العصور الوسطى باعتبارها صلة تربط ما بين العـالمين القديم والحديث . لقد ظهر الشعب الفرنسى بعد القضاء على سلطان الرومان فى بلاد الغالة وأخـذ على الرغم من الأجناس المتناحرة من كلتية ولاتينية وجرمانية ، والتجزؤ السياسى نتيجة للحدود الجغرافية . ينشىء لنفسـه تدريجا لغة مشتركة ، وحياة اجتماعية مشتركة ، واجتاز طورا « عالميا » تنازع فيه ولاءه المثل العليا لكنيسة عالمية وامبراطورية رومانية مقدسة الى أن استثار الصراع بينه وبين الغـزاة الانجليز شعوره القـومى فى القرن الخامس عشر . وتعددت الدقائق والتفصيلات التى توضح للقارىء معنى الأعوام الألف دون ارهاق حتى ان ميشيليه يثير فينا العطف على كل المثل

(١) مقدمة عام ١٨٦٩ (بدون تاريخ Michelet, Historie de France (Paris
(٢) المصدر السابق .

العليـا التى سادت فى العصر الوسيط كالولاء الاقطاعى ، والمسـيحية ، والفروسية والفلسفة المدرسية ، وان فرنسا بوضعها الجغرافى المتوسـط ووضعها الثقافى والسياسى ، تلخص الى حد كبير أوربا فى تلك العصور ؛ فالقارىء الانجليزى يستطيع أن يعرف الملابسات الدولية للنزاع بين بكت وهنرى الثانى ، أما القارىء الألمانى فانه قد يغفر بسهولة للأباطرة تدخلهم فى الشئون الايطالية ؛ ذلك التدخل الذى جلب الخـراب لبلادهم ، الا أن ميشيليه لم ينصرف انتباهه أبدا عن موضعه الرئيسى وهو الجماهير الفرنسية المظلومة ، المقيدة الآخذة فى طريق الشعور بالذات . والدفاع عن النفس .

وفى الجدال الذى قام فى موضوع الأصول الجنسية للفرنسيين لم يتحيز ميشيليه لجانب اللاتين أو الكلت أو الچرمان ، بل أخذ بنظرية الأصل الخليط وبين فى الفصل الافتتاحى من المجلد الثانى « صورة فرنسا » على مثال هردر وبفن يفوق فنه دور الجغرافية والمناخ فى انتاج ذلك التنوع الخصب فى الصفات الانسانية فى الاقطاعيات التى أصبحت فيما بعد مقاطعات فرنسا الحديثة . وان يكن هذا الفصل مليئا بالطابع المحلى فهـو ليس دفاعا عن نزعات الاستقلال المحلى .

وان خصائص الجنس والاقليم التى تعصب لها تييرى وموللر ، يجب أن تكون فى المحل الثانى بالنسبة للفكرتين الأعليين : فكرة الأمة ، والفكرة التى لم تتحقق بعد فكرة الدولة العالمية . وهذا على ما لخصائص الجنس والاقليم من أثر فى اكساب الخلق القومى لونه الخاص . وان ما ذهب اليه العالم البيولوجى دوچيس من ازدياد المركزية كلما ارتقى الكائن العضوى فى سلم التطور من القواقع والحشرات الى الانسان ، يمهـد لبيان ميشيليه الحماسى عن منطق التاريخ :

« أخذت الروح المحلية فى الزوال يوما بعد يوم ، وخضع تأثير التربة والمناخ والجنس للتأثير الاجتماعى والسياسى ، وبعد أن كانت البيئة لا راد لقضائها غلبت على أمرها ونجا الانسان من طغيان الظروف المادية ، وانتصر المجتمع والحرية على الطبيعة ومحا التاريخ الجغرافية . وتكاد لا تقدم العصور البربرية شيئا آخر غير الأمور المحلية الخاصة المادية ، ولا يزال الانسان يلتصق بالتربة ويدخل فيها ، بل هو لا يزال جزءا منها الا أن الانسان بقوته الخاصة انفصل شيئا فشيئا عن الأرض ، واقتلع نفسه منها وستقوده قوته هذه الى فكرة الوطن العالمى ومدينة العناية الالهية »[١] .

لقد ظهرت اللغة الفرنسية وهى أول أمارات القومية فى القرن التاسع ، وبعد ذلك بقرنين أصبح النورمان بفتوحهم فى انجلترا وصقلية قوة تجذب فرنسا التى كانت لا تزال الى حد كبير بأقسامها الاقطاعية مجرد تعبير جغرافى الى تقرير مصائر أوربا الشمالية والجنوبية . وفيما بين القرنين الحادى عشر والرابع عشر قامت الكنيسة بجهد كبير لتوحيد أوربا تحت سلطان روحى واحد ، واستطاعت البابوية فى ذروة قوتها على يد انوسنت الثالث أن تخضع لمشيئتها أقوى الملوك ، كفيليب أغسطس ملك فرنسا ، والملك يوحنا ملك انجلترا ، كما استطاعت أن تقضى على البدعة الألبية ، وأن تضع حدا وقتيا للحركة الانفصالية بين الكنيستين الشرقية والغربية ، وذلك بتنظيمها حملة صليبية استولت على القسطنطينية ، وقامت المسيحية فى تلك القرون التى كانت فيها فى عنفوان قوتها ، بنشر المدنية بين الأفراد العاديين وتعددت وسائلها فى هذا السبيل تعددا لا يعرفه القرن التاسع عشر ، فحمت الأفراد من اسراف القوى الاقطاعية الاستبدادية ، وأطعمت المحتاجين ،

---

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ١٠٠ .

وعلمت الفقراء الموهوبين ، وقدمت أروقة كنائسها مسكنا حقا للجماهير الساكنة فى الأكواخ الحقيرة ، ومركزا للمعاملات دون اشراف متزمت ، ولم تعجز مع ذلك عن السمو بعقل الشعب نحو الأمور الروحية .

وتظهر قدرة ميشيليه على بعث الماضى أول ما تظهر على أكملها فى بيانه كيف أن العصور الوسطى ، ولا سيما فرنسا فى العصور الوسطى : « قد عبرت فى فن العمارة عن فكرها الدفين » [1] ، فهو يتخيل الكنائس الكبرى وقد امتلأت بروادها من جديد ويقول : « تخيل تأثير الأضواء فى هذه العمائر الضخمة ، والكهنة يطوفون فى ممراتها العلوية يبعثون الحركة فى الجماهير الغفيرة بالمواكب الدينية الفاخرة ، ويمرون مرارا فى الشرفات على معابر متشابكة فى حللهم الفخمة ، ويحملون الشموع وينشدون ، فاذا ما طافت الأضواء والأصـــوات دورة بعد أخرى ردت عليها الجموع المحتشدة فى أسفل . كانت هذه الحفلات الدينية بالنسبة لذلك العصر بمثابة المسرحيات الحقيقية والتمثيليات الدينية ، وتصوير لرحلة الانسانية عبر العوالم الثلاثة، واعدادا ساميا أخذه دانتى عن الواقع الزائل وخلده فى مؤلفه « الكوميديا الالهية » . لقد عاد هذا المسرح الضخم من التمثيليات المقدسة بعد مهرجان العصر الوسيط الى الصمت والظلام ، وان صوت الكاهن الخافت الذى يسمع فيه ليعجز عن أن يملأ عقود البناء الذى صممت سعته لتضم أصوات الشعب المجلجلة ؛ لقد تزملت الكنيسة وأصبحت خاوية ، وصمتت رمزيتها العميقة بعد أن كانت عالية الصوت ، وأصبحت الآن موضوعا للاستطلاع العلمى والتفسيرات المستقاة من مدرسة الاسكندرية الفلسفية ، وغدت متحفا قوطيا يزوره المتحذلقون ويطوفون به يحملقون بأبصارهم دون رهبة،

---

(١) المصدر السابق ص ٤٩٠ .

ويطلقون ألسنتهم بالثناء بدلا من الصلاة والدعاء »[١] . ان الأحجار ذاتها فى هذه الكنائس توضح فلسفة ڤيكو بما كان عليه البناءون الذين شادوها من سمو فى انكار الذات واغفال ذكر أسمائهم ، « ولابد لمعرفة مدى عنايتهم بعملهم ، وانكارهم الذات ، وبقائهم مغمورين فى نقابتهم ، من الارتقاء الى أعلى أجزاء الكاتدرائية وأشقها فى الوصول والصعود أى الى الأماكن العلوية المهجورة ونهايات الأبراج حيث يحجم السقاف عن التقدم ، وغالبا ما نجد بهذه الأماكن قطعة من روائع الفن والنحت تهب عليها الرياح على الدوام . أنفق الصانع المسكين حياته فى صنعها ، فهو كان يعمل فى سبيل الله وحده ولراحة نفسه »[٢] . ولم تختلف القبور عن الكنائس فى هذه الناحية ، « ففى العصور المسيحية الأولى وفى عهد الايمان القوى كانت الأحزان مما يجمل معه الصبر ، وبدا الموت انفصالا قصير الأمد يفرق ليلم الشمل ، وثمة دليل على هذه العقيدة فى الروح وفى تلاقى الأرواح ؛ وهو قلة الاهتمام بالأجساد ورفات الموتى التى ظلت حتى القرن الثانى عشر لا تتطلب قبورا فخمة ، وظلت مخبوءة فى ركن من أركان الكنيسة يعلوها لوح بسيط ، ويكفى للدلالة عليها فى يوم القيامة أن ينقش عليه : من هنا المبعوثون "Hinc Surrectura" [٣] .

وانعدام الشعور بالذات فى هذه القرون الأولى ، وازدراء النفاق الذى يكشف عن قسط كبير من انسانيتنا المشتركة ، كلها كانت امتحانا قاسيا لادراك ميشيليه وفهمه ؛ ان وصفه الذى لونه بالعبارات القوية المقتبسة من مؤلفات المؤرخين المعاصرين ينتقل دون اضطراب من التصوف والسذاجة

(١) المصدر السابق ص ٤٨٩ .
(٢) المصدر السابق ص ٤٩٥ .
(٣) المصدر السابق ص ١٢٧ .

والطيبة الى سذاجة العنف والرذيلة ، ولم يحدث أن وصف أحد للقراء المحدثين الولاء للروابط الاقطاعية وصفا أمتع من وصفه لها فى تاريخ الأباطرة السوابيين ، على أن دفاعه عن الجماهير المجهولة لم يغره باغفال الشخصيات العظيمة من ملوك أسرة انجو ومنافسهم فيليب أغسطس ، وبيكت ، وابيلار ، والقديس فرنسيس ، ودومنيك ، وتوماس الاكوينى ، ووصل ميشيليه فى تصويره للويس التاسع ملك فرنسا الذى كان فى الوقت ذاته قديسا الى ذروة المثل الأعلى للعصر الوسيط .

ولما كان لويس قد اعترف للمؤرخ چوانفيل بأن بعض لحظات الشك تمر به فان ميشيليه يتساءل : « كم غيره شك فى صمت ، أو تفوه بعبارات شك لم تسجل ؟ » كل الأمور الانسانية فى تحول حتى المثل العليا فانها فانية. وبعد موت لويس بعشرين عاما فقدت الأراضى المقدسة فقدا لم يعوض . فأنهى ذلك عصر الحروب الصليبية ، وبعد ذلك بأقل من عشر سنين أملى ماركوبولو فى عام ١٢٩٨ — وهو بالنسبة لآسيا كخرستوف كولمب بالنسبة لأمريكا — « وصف رحلته واقامته عشرين عاما فى الصين واليابان ، فعلم الناس لأول مرة بوجود ممالك وأمم متحضرة على سفر اثنى عشر شهرا من آورشليم التى لم تعد مركزا للعالم وللفكر الانسانى . لقد فقدت أوربا الأرض المقدسة ولكنها أخذت ترى العالم ، وأصبح لدين الثراء الجديد ، وللايمان بالذهب ، حجاجه ورهبانه وشهداؤه ، فهم كأسلافهم عرفوا بالجرأة والاحتمال وعرفوا الصوم والحرمان »[1] .

لقد اندثرت الآن — كما يقضى منطق الأشياء — العصور الوسطى بنزعتها الأخروية ، واندثر اخضاع السلطة الدنيوية للروحية والفروسية

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٢١٠ .

والاقطاع الا أن موتها استغرق وقتا طويلا لا يمكن ادراكه ؛ ففى حرب الأعوام المائة بين فرنسا وانجلترا اندمجت البواعث التجارية بالفروسية ، « العصر كله له وجهان وهو غامض ، ساده التبـاين ، يكذب فيه الواقع والخيال أحدهما الآخر ، ويسخر كل منهما بالآخر » [١] . تغلب الواقع نهائيا فى فرنسا على يد الملك لويس الحادى عشر (وقد فاقت الصورة التى رسمها ميشيليه لهذا الملك المتجرد من صفات الملوك ما سبقها من الصور المتخيلة فى قصة كونتين دروارد لسكوت ونوتردام باريس لهوجو) ، الا أن هذا الواقع مادت تحته الأرض بظهور نوع جديد من الخيال وهو الوطنية . فظهر رد فعل ضد الغزوات الانجليزية فى عبارة الفرنسى الطيب ، التى أخذ القوم فى استخدامها فى القرن الرابع عشر ، وتأثر ميشيليه تأثرا عميقا بما روى عن الشعب وطول احتماله ، والتجائه الى الدفاع عن نفسه لما عجـز سادته الاقطاعيون عن حمايته ، كما ورد فى قصة الفـلاح الزعيم المدعو جران فريه : « من الصعب ألا تتأثر بهذه القصة الساذجة ، فهؤلاء الفلاحون الذين لا يدافعون عن أنفسهم الا بعد طلب الاذن به ، وهذا الرجل المتواضع القوى والعملاق الطيب الذى يطيع عن طيب خاطر كما كان يطيع القديس خرستوفر فى أسطورته — كل ذلك يهيىء لنا صورة جذابة للشعب . وفى الواضح أن جماهير الشعب لا تزال ساذجة عنيفة ، سهلة الاندفاع عديمة البصر ، تجمع بين الصفات الانسانية والحيوانية ، ولا تدرى كيف تحمى ذمارها أو تحمى نفسها من شهواتها ، فهى بعد أن غلبت العدو وضربته كما يذرى القمح فى الجرن ، وبعد أن أثخنته ضربا بالفؤوس وتصببت عرقا من الضرب ، نجدها تشرب المـاء البارد ثم ترقد رقدة الموت . ولكن صبرا !

---

(١) المصدر السابق ص ٢١٨ .

اذ بفضل التربية الخشنة التى تقوم بها الحروب ، وبفضل عصا المعلم الانجليزية ، استطاع هذا البهيم أن يحول نفسه بنفسه الى انسان ، ولم يلبث بعد أن اشتد عليه الضغط واعتصره ، أن وجد له مخرجا بتغييره نفسه وبتحويلها ، وأصبح چاك الفلاح هو چان العذراء »[١] .

ان صورة چان دارك هى أوج صور شخصيات العصور الوسطى التى رسمها ميشيليه ، وهى كذلك أول الصور العظيمة لهذه القديسة البطلة ، وقد سبق لڤولتير أن حاز الثناء قبل ذلك بقرن لقيامه بتصوير شخصية ملوثة لها فى مؤلفه « العذراء » (La Pucelle)بروح معادية لرجال الدين ، ونشر كيشيرا فى عام ١٨٤٠ السجل الرسمى لمحاكمتها ، فجاء ما نشره فى الوقت المناسب ، اذ استعان به ميشيليه واستطاع أن يتجنب الصور الملتوية القديمة ، وكذلك النزعة الحديثة لتجميلها . « وهل هناك أسطورة أجمل من هـذا التاريخ الذى لا يمكن الشك فيه ؟ ولكن يجب ألا نجعل منه أسطورة ، وأن نحافظ على سماته كلها باجلال حتى أشد سماته انسانية ، وأن نحترم واقعه المؤثر الرهيب » [٢] وقد توغل ميشيليه فى جو عصرها عن طريق التواريخ والوثائق وأنشأ صورة نسائية براقة ترفع لواء المثل الأعلى لفرنسا الموحـدة التى تسمو عن التعصب الشعبى والمصالح الذاتية الاقطاعية ، مقترنة بما حولها من معارك الدول حول السيطرة والغلب ودسائس التجار والخرافات وغلظ الطبع . « لقد كانت هذه الشخصية الأخيرة من شـخصيات الماضى أول شخصية فى العصر الذى بدأ ، ففيها تمثلت العذراء كما تمثل الوطن » [٣] .

---

(١) المصدر السابق ص ٣٣٤ .

(٢) المصدر السابق ج ٥ ص ١٥٧ .

(٣) المصدر السابق ص ١٥٨ .

وكان ميشيليه حتى بلوغه هذه الذروة يغذى شعور العطف نحو كل مرحلة من المراحل المتتابعة فى تاريخ بلاده ، مرحلة مقابلة ومشابهة لها مرّ بها شخصيا ومرّت بها معتقداته . وصف العصور الوسطى الأولى حينما كان مقتنعا بأن الكنيسة كانت خير صديق للشعب الفرنسى وحين كتب فى اضمحلال المثل العليا للعصور الوسطى . كان قد فهم « الأحوال الحالكة التى تجرى على منوال واحد وأدرك الترقب بلا أمل ودون رغبة الا الرغبة فى الموت » بذكرياته عن آخر أيام عهد الامبراطورية النابليونية . لقد تصورت وأنا فى مسكنى المظلم ما كان يفكر فيه اليهودى فى أثناء بنائه الأهرام . وما كان يفكر فيه رجل العصر الوسيط وهو يحرث أرضه فى ظلال قلعة أمير الاقطاع [1] . وقذف به موت زوجته فى عالم الوساوس التى لازمته والملاذ الحسية ، وكان هذا فى الوقت الذى كتب فيه وصف الحضيض الذى هوى اليه مصير فرنسا بجنون شارل السادس ، وقيام الحرب الأهلية وتدمير الجيوش البريطانية ، ومرح اليائس ورقص الموت فى المقابر . ثم أعاد حبه لمدام دومنيل اليه صفاء ذهنه وزاد فى احترامه للمرأة فى الوقت الذى تحتم فيه أن يروى قصة چان دارك . ولكنه لما انتقل الى عصر الملكية المطلقة فى عصر لويس الحادى عشر ، الذى بلغ تمامه الى عصر لويس الرابع عشر كانت سلسلة هذه المصادفات قد تحطمت . ففى يوم من أيام الشتاء من عام ١٨٣٨ حين كان يكتب على مائدة فى غرفة مكتبه المريحة ، وكان قد وصل الى قمة نجاحه فى مهنته بتعيينه فى الكوليج دى ڤرانس — عنّت له بعض الذكريات التى لا تتفق مع ما أصبح . عادت به الذكرى الى عام ١٨١٤ حين هزم نابليون فى موقعة ليبزج ، وأخذ جيش الغزاة يقترب من باريس . وبعد أن قام والداه

(١) Ma jeunesse, p. 76.

بكل التضحيات لدفع نفقات تعليمه فى ليسيه شارلمان كان زملاؤه من الطلاب يسخرون من الصبى التعس وملابسه وهيئته السوقية ، وذكر كيف أنه فى صباح يوم اشتد قرّه كان يحاول مذاكرة دروسه « دون نار تبعث الدفء ، وكان الجليد قد غطى كل شىء ولم أكن واثقا فى تلك الليلة من الحصول على خبز أتناوله وبدا أن كل شىء قد انتهى بالنسبة لى » . ولكن بارادة شديدة القوة « ضربت بقبضتى التى قرصها البرد على مائدتى المصنوعة من خشب البلوط والتى احتفظت بها دائما وشعرت فى ذات نفسى بقوة فرحة الشباب والأمل »[١] . واعتراه الخجل بعد ذلك بثلاثين عاما اذ وجد نفسه فى راحة من العيش ، فى حين أن غيره يرتعدون فى الخارج من البرد . ونذر ميشيليه تكفيرا عن ذلك أن يكتب قصة الطموح والأمانى التى لم تتحقق حتى ذلك الحين ، وهى آمال الشعب الفرنسى فى العدالة الاقتصادية .

وأدرك أن ثورة عام ١٨٣٠ التى أمدته فيما مضى بايمان حار فى المستقبل لم تؤد لجماهير الشعب الا أقل مما قامت به الثورة الفرنسية الأصلية فى عام ١٧٨٩ ، ولم يكن اتجاهها نحو الحرية الا فى الناحية السياسية فقط ، وهى بتحريرها الفرد العادى من الطبقة الأرستقراطية من مـلاك الأرض الضعاف سلمته الى القبضة القوية للطبقة الوسطى الرأسمالية فى عصر الآلة . وعزم ميشيليه أن يبيّن فيم وكيف أخطأت الثورتان أهدافهما ، وفى رأيه أن مستقبل الأمة يتوقف على معرفتها هذا الأمر ، ولم يستطع أن يصبر ليتم تاريخه حيث تتتابع القرون من عام ١٥٠٠ الى عام ١٧٨٩ ، وتحتم عليه أن يلقى بنفسه توا فى غمار قصة الثورة الفرنسية الأولى التى لم يكتبها فرنسى بعد من وجهة نظر الشعب منفصلا عن زعمائه . حقيقة درسها كارليل ولكنه

(١) Le Peuple, p. 17.

على الرغم من آرائه الاقتصادية الثورية فانه درسها بروح الأجنبى أى بكثير من التباعد [1] . وهكذا فان ميشيليه فى أثناء كتابته للتاريخ كان يصنع التاريخ حين بيّن للناس ضرورة قيام ثورة ثالثة اقتصادية .

ولما بحث أحداثا لم يمض عليها أكثر من خمسين عاما استطاع أن يكمل التواريخ المدونة بالرواية الشفوية ، فقد شاهد والده الهجوم على الباستيل ولمح لويس السادس عشر يسير فى فناء سجن التميل ، ووصف له عمه شعور الاخاء الذى ساد فى عيد الاتحاد الذى لم يحفل به كارليل وعدّه فورة من الفورات المأثورة عن الغاليين ، واذا كانت صورة العقل الشعبى فى العصر الوسيط يتحتم جمعها من مدونات جزئية الا أن ميشيليه استطاع هنا أن يستحوذ عليها استحواذا يكاد يكون تاما . تذكر ميشيليه آلاف الأحاديث التى جرت بين عامة الشعب فى باريس عن الثورة التى كانت مما عملوا فى أحداثه ، ولكنها كانت عملا لاشعوريا الى حد كبير شأن كل ما يبدعه الشعب ، وعمل المؤرخ هو « أن يعيد فى الصباح حلم الليل الذى طواه النسيان » . واذا استطاع المؤرخ أن يقوم بهذه المهمة فان الشعب يظهر اذ ذاك بمظهر المحرك للثورة التى ألقى زعماؤها من الطبقة الوسطى بثمارها « ان الطبقة البورجوازية المتشبعة بآراء ڤولتير وروسو كانت أكثر انسانية وأكثر نزاهة وكرما مما أصبحت عليه اليوم نتيجة للانقلاب الصناعى ، ولكنها لم تعرف الجرأة ، أما عاداتها وأخلاقها التى تكونت فى ظل النظام الملكى القديم الكريه ، فانها كانت ضعيفة بالضرورة . لقد جزعت البورچوازية

(١) لمعرفة موقف ميشيليه من كارليل أنظر الطبعة الأولى من كتابه « تاريخ الثورة الفرنسية » (باريس ، ١٨٤٧) المجلد الثالث الكتاب الثانى الفصل الثالث ص ٢٥٠ ، وكذلك Alan Carey Taylor فى كتابه :

Carlyle et la Pensée Latine (Paris 1937), p. 60.

أمام الثورة التى قامت بها ، وارتدت أمام عملها ، فضللها الخوف ، وقضى عليها أكثر مما قضت عليها المصالح الذاتية » [١] . وقد لازمت خيال ميشيليه صورة الأجيال التى حرمت من فرصتها على هذا النحو ، كما لازمته صورة الكثيرين ممن عجزوا عن أن يحققوا فى حياتهم كامل قدرتهم . أن ميشيليه هو شاعرهم ونبيّهم .

وفى مؤلفه « تاريخ الثورة الفرنسية » (١٨٤٧—١٨٥٣) بلغ التوافق العاطفى بين ميشيليه وموضوعات بحثه أقصى قوته ، وحرك آماله ومخاوفه ، واضطره الى انفجارات عاطفية أشد قــوة من انفجارات كارليل فقــال : « أيتها الثورة المقدسة ما أشد بطئك فى المجىء . لقد انتظرتك ألف عام فى ثنايا العصر الوسيط ، فهل يطول بى الانتظار أكثر من ذلك ؟ » [٢] . ولما جاءت الثورة لم يكن رضاؤه عنها رضاء آكيدا ، فكتب الى بعض أصدقائه فى عام ١٨٤٦ يقول : « ان هذا التاريخ ملىء بالمتاعب لا بسبب كثرة أزماته وعنفها فقط ، ولكن بسبب الشعور الذى يسود الانسان دائما اذا ترك القراءة الى التأمل ، والشعور بالجهد المبذول دون جدوى ، والتضحيات الجسيمة التى لا نتيجة لها . ان النتــائج آتية لا ريب فيهــا وان تكن فى المستقبل » [٣] .

وقبل أن يصل مؤلف ميشيليه فى تاريخ الثورة الى الانتصار فى موقعة ڤالمى ، نشبت الثورة الثالثة التى كان يعمل فى سبيلها منــذ شهر فبراير سنة ١٨٤٨ ، وأعادته الى منصبه فى الكوليج دى فرانس بعد طرده منها فى

(١) Histoire de la révolution française, II; 240.

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ١٢٩ — ١٣٠ .

(٣) Paul Sirven, ed. Jules Michelet : Lettres à Alfred Dumesnil et à Eugène Noël (Paris, 1924), p. 96. الخطاب الى دومنيل بتاريخ ٢٩ يونيو ١٨٤٦

شهر يناير لدفاعه فى محاضراته عن الاصلاحات الاقتصادية ، ومهاجمته لسيطرة الكنيسة على التعليم ، وعجل الانهيار الاقتصادى بسقوط ملكية لوى فيليب المقيدة ، وكان أول ما اهتمت به الجمهورية الجديدة العناية بالمتعطلين ، وبدأت تجربة تزويدهم بالعمل على نفقة الدولة ، ولم تلبث النفقات المترتبة على ذلك أن أثارت الخلاف بين مؤيدى الحكومة الجديدة الذين لا يريدون الا توسيع حق الانتخاب وغيره من الحريات السياسية وبين الذين يصممون على تهيئة التأمين الاقتصادى للجماهير كذلك ، وتغلب أصحاب العقول السياسية فأعلن اغلاق المصانع الأهلية فى يونيه ١٨٤٨ وخير العاطلون الذين بلغ عددهم ١٠٠٫٠٠٠ ، وكانوا قد قدموا من جميع أنحاء فرنسا للعمل فى مصانع الحكومة المعانة فى باريس ، بين الانخراط فى سلك الجيش وبين الرجوع الى بلادهم حيث بذلت لهم الوعود بالعمل ، ولكن الشك ثار فى نفوسهم فرفضوا كلا العرضين ، وأيدهم فى ذلك عمال باريس سواء منهم المشتغلون والعاطلون ، وغضبوا لما ظنوه خيانة للقضية التى حملوا السلاح من أجلها فى شهر فبراير ، وأقاموا المتاريس فى الشوارع من جديد ، وفى هذه المرة أثبتت الحكومة أنها هى الأقوى واستطاع الجنود النظاميون فى أيام أربعة دامية أن يقضوا على هذا العصيان .

وهكذا قضى هذا النزاع الأهلى على حلم ميشيليه فى الاخاء وفى شعب موحد ينفذ الاصلاحات الداخلية بالرضا عن طيب خاطر ، فكتب فى يومياته حين بلغته أنباء قيام العمال « ليحذف هذا اليوم » Excidat illa dies ، ولم تلبث أن تحققت سريعا النتائج التى ترتبت على منح حق الاقتراع العام دون أن تصحبه الاصلاحات الاقتصادية ، اذ انتخب لوى نابليون رئيسا للجمهورية ، لأنه كان يذكر الناس بالمجد الحربى لعمه الامبراطور وأعلن

نفسه امبراطورا باستيلائه على السلطة المطلقة فى ١٨٥١ فى يوم ذكرى معركة استرلتز .

وفضل ميشيليه أن يستقيل من منصبه فى دار الوثائق والكوليج دى فرانس على أن يقسم يمين الولاء للحاكم المغتصب ، وعلى الرغم من أنه كان يشك فى قبول أى ناشر لكتاب لا يتفق مع روح العصر ، الا أنه بدأ بعزم لا يلين يكتب آخر مراحل الثورة الأولى وهى عهد الارهاب : « انى أثابر وسأظل مثابرا على أطلال العالم »[١] . وأصدر حكمه النهائى على الثورة فقال : « انها بدّلت أصحاب الملكية ، ولكنها تركتها كما كانت احتكارا » ورجع الى ملء الثغرة التى تركها بين عصر النهضة والثورة فى المجلدات التى نشرها بين عامى ١٨٥٥ و ١٨٦٧ ؛ وهيأت الصورة السيئة للملكية المطلقة الفرصة لهجمات غير مباشرة على نابليون الثالث الذى قضى على ثقة ميشيليه فى التقدم المستمر للأمة الفرنسية نحو العدالة الاجتماعية وعاش حتى رأى سقوط نابليون وبدء الجمهورية الثالثة لحياتها المحفوفة بالمخاطر .

« ليكن نصيبى فى كتابة التاريخ أنى حددت هدف التاريخ . وان لم أبلغه ، وأنى أطلقت عليه اسما لم يطلقه عليه أحد من قبل ؛ لقد سماه تييرى بالقص أو الحكاية (Narration) ، وسماه جيزو بالتحليل ، ولكنى سميته الأحياء والبعث (Resurrection) وسوف يخلد هذا الاسم »[٢] .

وفى المواضع التى نجح فيها ميشيليه فى الاقتراب من هذا الهدف المستحيل يعزى نجاحه الى قدرته الأدبية الفائقة التى ترجع الى شخصيته المتعددة الجوانب وتهيىء لقرائه المشاركة فى تجارب أجيال عديدة من الناس،

(١) المصدر السابق ص ١٨٢ (الى دومنيل ١٨٥٢ دون ذكر الشهر) .

(٢) Le Peuple, Introduction, p. 24.

وقد واجه فى رسائله المشاكل الأدبية بدقة سبقت دقة فلوبير ؛ كتب الى مدام دومنيل حين بدأ مؤلفه عن چان دارك يقول : « انى أؤمل أن أكون قد غيرت أسلوبى القديم وسيطرت على التفصيلات الدقيقة لتنسجم معا فى كل شامل ، وبعبارة أخرى أنى أعتقد أنى قد اهتديت بالدأب على التركيز والحركة الى شعلة قوية تصهر الاختلافات الظاهرة وتعيد اليها الوحدة التاريخية التى كانت لها فى أثناء حياتها »[1] . وشرح فى عام ١٨٥٠ مشكلة صمت الذين قاموا بالثورة فقال : « انى مدفون فىالمقابر التى نبشت فيها عن عهد حكومة المؤتمر الوطنى ، لقد مات حتى غدت عظامه رميما ؛ انى أقبض حفنة من التراب فى راحة يدى وأنفخ فيها لأحييها . ان كثيرا من الناس لم يبق شىء منهم الا أعمالهم ، ولم يعنوا بكتابة المذكرات والمبررات ولكنى أحاول ذلك وأعيد ذكراهم »[2] . وقد وفق بين أسلوبه وسرعة حوادث الثورة ؛ « لقد بدأت بتغيير الايقاع فى مؤلفى فزالت منه الفصول الكبيرة ، وظهرت الأقسام الصغيرة المتلاحقة التى يصيب كل منها مرمى الآخر ، ذلك أن الظاهرة التى تسود عصر الارهاب انما هى ازدياد سرعة النبض[3] .
وكان أسلوبه يلائم ملاءمة طبيعية كافة مواقف التاريخ واستطاع أن يتخذ حتى فى أكثر مؤلفاته تشبعا بالروح الرومانسية أسلوب السخرية الجاف الذى عرف به القرن الثامن عشر ، ومثال ذلك تحليله لانحطاط الكنيسة .
« كانت الكنيسة تملك شيئين فى العصر الوسيط حرصت عليهما أشد الحرص ، وهما أملاكها وأعمالها ، ثم أصبحت أكثر عدلا فى العصر الحديث

---

(١) Jules Michelet, Lettldes à Dumesnil, p. 5. والخطاب الى مدام دومنيل ١٨٤١ دون ذكر الشهر .

(٢) المصدر السابق ص ١٤٦ ؛ الى أوچين نويل بتاريخ ٢٥ مارس ١٨٥٠ .

(٣) المصدر السابق ص ١٧٨ ــ ١٧٩ ؛ الى نويل بتاريخ ٢ يولية ١٨٥٢ .

فقامت بتقسيمها فاحتفظت بأملاكها ، أما أعمالها فى المستشفيات والمقارىء الدينية ورعاية الفقراء وبالجملة كل ما أقحمها فى مشاغل هذا العالم فانها تبرعت برده الى السلطة المدنية »[١] .

كان هذا التجاوب بين المقام والمقال فى أسلوبه نتيجة لرغبته أن يحيا حياة الموقف الذى يصف مهما كان هذا شاقا . فكتب فى رسالة له عام ١٨٤٩ . « انى أقوم بعمل شاق وهو أنى أحيا الثورة وأعيد صنعها وأتألم آلامها . هأنذا قد انتهيت من تاريخ شهر سبتمبر وفظائع الموت ، وبعد مجزرة الدير فأنى ذاهب الى ساحة محكمة الثورة أى المقصلة[٢] . وأن هؤلاء الذين رافقوا ميشيليه خلال ألف عام من حياة الشعب الفرنسى ، وشاركوه مشاركة طليقة لا يسعهم الا أن يفهموا فكرته الحزينة عن مهنته . « تجبر الضرورة القاسية المؤرخ على أن يحب وأن يفقد أشياء كثيرة وأن يحب من جديد كل ما أحبته الانسانية وان يحزن لأحزانها وانى وأنا ألتمس الأعذار لكثير من الأمور وأشعر بالأسف لهذه العصور الكثيرة المختلفة ، وأعتبر أن الحياة كلها ثمينة ، وأشعر كأن الانسانية هى أسرتى ودمى — أتنقل عبر التاريخ كالممثل الاغريقى الذى كان يحمل رفات ابنه فى أثناء تمثيله دور الكترا »[٣].

---

(١) Histoire de la révolution française, I, Introduction, Sec. 2 par. 3.

(٢) Jules Michelet, Lettres à Dumesnil; pp. 136-137. والخطاب الى Auguste de Gérando بتاريخ ٨ سبتمبر ١٨٤٩ .

(٣) Ma jeunesse, Préface xvi.

الفصل السابع

التاريخ من حيث هو فن
رينـــان وبوركهارت وجرين

فى السنوات الثـلاث التى أعقبت عام ١٨٤٨ تلقى ايمان الأوربيين بالانسانية جمعاء ضربات لم يفق منها قط. لقد ارتفعت آمال الأحرار عاليا حين امتدت الثورة سريعا من فرنسا ، فاضطرت ملك بروسـيا الى منح الدستور ، واجتمع برلمان يمثل الامارات الألمانية الصغرى لاقامة اتحاد فيدرالى قومى ، وارتفعت هذه الآمال كذلك حين هرب امبراطور النمسا ووزيره مترنخ الذى تزعم قوى الرجعية منذ سقوط نابليون ، وتركا فيينا بين يدى لجنة للأمن العام والامبراطورية النمسوية على شـفا الانحلال بالثورات القومية فى المجر وايطاليا ، وحين انتزعت روما من سلطة البابا السياسية وكادت تصبح عاصمة لايطاليا موحدة ، وحين هدد أنصار حركة الشارتزم بثورة شعبية (عمالية) فى انجلترا ؛ ثم هبطت هذه الآمال الى الحضيض بالانحسار السريع فى الحركة الثورية ، فاستطاعت بروسيا أن تسحق الآمال الديمقراطية للامارات الألمانية ، وتدخلت روسيا الأوتوقراطية لمعاونة النمسا على أن تسترد ملك المجر وممتلكاتها فى ايطاليا ، وفى انجلترا تداعت حركة الشارتزم. أما فرنسا ذاتها فانها استسلمت فى١٨٥١ لدكتاتورية نابليون الثالث التى كان يؤيدها كبار أصحاب الأعمال ورجال الكنيسة ، ونجت انجلترا وحدها من سيطرة السلطة المطلقة ولكن الرأسمالية سادتها .

واذا استثنينا باريس كانت الجماهير ينقصها التضامن والنظام ومواصلة العمل لتحقيق الهدف ، وفى فرنسا ذاتها عجز الفلاحون عن ادراك أن قضيتهم هى قضية مشتركة مع العمال الصناعيين فى المدن ، وبهرهم سحر اسم نابليون — وعبر الشاعر لكونت دليل بعد أن دعا دون جدوى للآراء الاشتراكية فى بريتانيا عن خيبة أمله وشاركه فى هــذه الخيبة بدرجات متفاوتة أصحاب الآراء المتحررة ، فقال : « ما أشد غباء الجماهير الشعبية انها سلالة الأرقاء لا تستطيع الحياة دون العصا والنير ، فدعها اذن تمت جوعا ، فما أسهل خداعها ! » وقد أقر ميشيليه بعد لأى أن الجماهير لابد أن تمر فى مرحلة طويلة من التربية ، وخاطب قراء الجزء الذى أصدره فى عام ١٨٥٥ عن النهضة قائلا : « أيتها الأجيال التى بالغت فى الثقة بالقوى الجماعية التى كونت عظمة القرن التاسع عشر . تعالى وانظرى النبع الحى الذى يستقى منه الجنس البشرى قوته — نبع الروح الذى اذا أصبح وحيدا شعر بأنه أعظم من العالم . وصدف عن استمداد العــون من جاره على خلاصه [١] .

واتجه الايمان بالفرد المبرز الى الحلول محل الايمان بالجماعة والأمة والبشرية عامة ، وقد قوى هذه النكسة فى الشعور عند الأدباء ادراكهم أن الزيادة فى عدد الملمين بالقراءة ورخص المطبوعات بدلا من أن تؤدى الى تنوير الجماهير شجعت على ظهور الكتب التى انعدم فيها التركيز واعوج فيها الفكر وخلت من الفن . ولم يشأ معظم الكتاب البارعين أن ينحنوا لتلبية مطالب الأدب باعتباره مجرد انتاج تجارى ، وتمسكوا بالمطالبة بمستويات صعبة المنال فى عالم الفن والفكر ، وبلغ ازدراء الذوق الشعبى

(١) Michelet, Histoire de France, VII, Introduction.

غايته فى مذهب الفن للفن الذى نادى به جوتييه وفلوبير وبودلير فى فرنسا وسونبرن ، ودج روستى وباتر فى انجلترا وقال فلوبير فى نصيحته المشهورة : ـ « دع الامبراطورية فى سيرها ودعنا نصعد الى قمة برجنا العاجى الى آخر درجاته وأقربها الى السماء ؛ ان الجو قارس هناك أحيانا ولكن ما هى أهمية ذلك ؟ انك ترى النجوم تسطع ولا تعود تسمع صياح الأوز »(١) .

وكره كثيرون الحاضر ورؤية الجماهير الجاهلة يخدعها ويستغلها طبقة مبتذلة من الأغنياء ، كما أنهم كرهوا هذا القبح الذى خيم على الحركة الصناعية فولوا وجوههم شطر الماضى يحتمون به وينتعشون ، فألف لكونت دليل وهو متأثر بهذه الروح « القصائد العتيقة » عام ١٨٥٢ ووضع وليم موريس « الفردوس الأرضى » (١٨٦٨ — ١٨٧٠) وألف فلوبير وثاكرى وموريس وهم متأثرون جميعا بهذه الروح القصص التاريخية فألف فلوبير سالمبو فى ١٨٦٢ وألف ثاكرى هنرى ازموند ١٨٥٢ وألف موريس «حلم من أحلام چون بول١٨٨٨» . وقد شرح فلوبير ذلك الكره بقوله : « سأكتب قصة تجرى حوادثها فيما قبل المسيح بثلاثة قرون ، لأنى أشعر بالحاجة الى الهروب من العالم الحديث الذى يرهقنى تصويره ولا تلذ لى ملاحظته »(٢) وكان موضوع قصته « الحرب الضروس » التى شنتها قرطاجنة بجنودها المرتزقة ، والتى صورها ميشيليه ببراعة وكانت كفاحا وحشيا تجرد من وخز الضمير ولم يحظ فيه أحد الفريقين بعطفه ؛ ذلك لأن الكتاب الذين نضجوا

(١) Gustave Flaubert, Correspondance; 2d sér, (Paris, 1925) p. 149.
الى مدام X سنة ١٨٥٢ دون ذكر الشهر .

(٢) المصدر السابق السلسلة الثالثة (باريس ١٩٢٥) ص ٧٩ ـ الى مدموازيل لتروييه دى شانتيى بتاريخ ١٨ مارس ١٨٥٧ .

بعد ١٨٤٨ لم يصوروا الماضى وفق هواهم الا فيما ندر ، وهذا على الرغم من أنهم وجدوا فيه ابتعادا منعشا عن عصرهم ، بل هم تأملوا الماضى والمستقبل معا بما أسماه ماثيو ارنولد « صفاء النفس الحزين » وقوت الداروينيه روح كره الحاضر بما أكدته من انحطاط أصل الانسان وخضوعه الطويل لكفاح لا هوادة فيه فى سبيل البقاء ، وبالقائها ظل الشك على ارشاد العناية الالهية له فى مصيره من جهة ، وعلى وجود هدف وخطة فى الطبيعة أو على مدى الخير فى هذه الخطة ان وجدت من جهة أخرى ، وأدى داروين خدمة جليلة للتاريخ باثباته الاستمرار والنمو فى أنواع الخليقة كافة وباثباته وحدة الانسان والطبيعة ، الا أن الصورة التى رسمها عن النشأة الوضيعة للجنس البشرى خيبت الآمال فى تحسن سريع فى المستقبل ، وبدت كأنها نصيحة بالصبر الجميل آلافا مؤلفة من السنين المقبلة فى أثناء عمل الانسان على التخلص من الوحش القار فى نفسه . وأصبحت المشاركة الوثيقة — من نوع ما حاول ميشيليه — فى كدح الانسان الماضى شيئا أليما لا يحتمل ، وذلك بالنظر الى الشك فى أمر المستقبل والى تأجيل الكمال الانسانى تأجيلا غير محدود . الا أن جراح القلب يمكن احتمالها اذا نظرنا الى التاريخ علـى أنه مسرحية كبيرة وأكبر مسرحية يحظى الانسان بمشـاهدتها ، واذا تجمل بأبهى ما يمكن أن يبلغه الضمير الفنى المتجدد الحى فى هـذا العصر من جمال حلل الشكل والأسلوب ، وقد أدى الانعزال المنبعث من الاحساس بالجمال ، وشأنه فى ذلك شأن الموضوعية العلمية ، الى افساح المجال لحب الاستطلاع العقلى والرغبة المجردة فى المعرفة مهما كانت نتائجها وهذه الرغبة قد تكون أنبل الصفات الانسانية وأندرها . ولم يترتب على هذه الاتجاهات فقدان العطف على الماضى ، ولكن هذب العطف وعدله عقل نفاذ راعى المادة الضخمة من الحقائق التى جمعها البحاثون الغيورون

فى مدى قرن من الزمان ، هذا الى أن الأفكار العلمية والفلسفية ، والروائع الأدبية والفنية ، والقيم الذاتية المستقلة عن المصير الاجتماعى للانسان ـ كلها اتخذت أهمية فى تأليف التاريخ بعد أن أهملت منذ عهد ڤولتير وعولجت نتيجة للثورة الرومانسية بذوق وبمرونة ورقة لم يبلغهما هو . وهذه النزعات العـــامة عند مختلف الشعوب يمثلها خير تمثيل أرنست رينان وباكوب بوركهارت وچون ريشارد جرين .

وكان نضج رينان نضجا مبكرا ، وكان هذا بتأثير ما طرأ على بيئته ودراسته من تغييرات مفاجئة . ولد فى عام ١٨٢٣ لأب بريتانى من الملاحين ، وأمضى الأعوام الخمسة عشر الأولى من عمره فى ميناء تريجبيه الصغير فى بيئة بدائية تنتشر بها خرافات صيادى الأسماك وأساطير القديسين الكلت واسترعى ذكاء رينان نظر رئيس أحد معاهد باريس ، وكان يقوم بتهذيب الطلاب الذين يعدون للكهنوتية وصقلهم صقلا دنيويا وذلك بتربيتهم جنبا الى جنب مع أبناء الطبقة الأرستقراطية .

واكتسب هذا الشاب الريفى الغر من أترابه فى باريس سهولة الحديث والسلوك ، ولقى فى الوقت ذاته نماذج من الكتابة الجميلة ومنها منشآت الكتاب المعاصرين مثل لامارتين وهوجو وميشيليه ، وكان ذلك فى أثناء الدراسة الأدبية التى تلت دراسته اللاتينية والرياضيات التى تلقاها على أيدى القساوسة البريتانيين بأسلوب القرن السابع عشر . ثم انتقل فى المعهد الاكليركى بسان سلبيس من دراسة الآداب الى دراسة الفقه والفلسفة وكان رينان محبا للعلم بطبعه فلم يقنع الا بالرجوع الى المصادر الأولى ، وقد تساهل معه مدرسوه وكانوا رجالا برآء أتقياء ، فسمحوا له بالقراءة خارج حدود السنن الكاثوليكية ، فتعلم العبرية حتى يعرف العهد القديم

تمام المعرفة ، وتعلم الألمانية حتى يستطيع الرجوع الى نقاد التوراة ، وكان ايشنهورن فى « مقدمة العهد القديم » وايوالد فى مؤلفه الأخير فى « تاريخ بنى اسرائيل » (١٨٤٣) قد أثارا مسائل خاصة بمادة الكتب المقدسة وكونها موحى بها من الله وصورت العلوم الطبيعية ولا سيما مؤلف لايل فى مبادىء علم طبقات الأرض (١٨٣٠ — ١٨٣٧) العالم على أنه فى تغير وتحول دائم مما يصعب التوفيق بينه وبين العقائد الثابتة . الا أن هردر وجوته وأتباع كانت من الفلاسفة المثاليين علموا عقيدة تسمح بقبول صورة عالم من هذا النوع ، وتتفق أيضا والنظرة التاريخية الى الكتب المقدسة ، وكانوا يؤمنون بوجود روح حالة فى الانسان والطبيعة ومتطورة بتطورهما . وكان مما أسف له رينان أسفا شديدا ، أنه لم ينشأ بروتستنتى المذهب كهردر حتى يستطيع أن يبقى فى زمرة رجال الدين على الرغم من قبوله لهذه الآراء ، وبعد عامين من الصراع النفسى قرر أنه لا يستطيع الدخول فى سلك الكهنوت .

وترك رينان المعهد الاكليركى فى الثالثة والعشرين من سنه مزودا بالعلم قليل المال والخبرة بالحياة ، وكان التدريس هو المهنة الوحيدة التى أعد لها ، الا أن الاشتغال بها كان يتطلب الحصول على درجات علمية علمانية ، فحصل عليها بعد ثلاث سنين قاسى فيها حرمانا ، ومع ذلك لم يفتر سروره بالمغامرات العقلية الطليقة ، فدرس اللغــة السنسكريتية فى الكوليج دى فرانس على يد أوجين برنوف الذى عرفه بمنهج بوب فى اللغويات المقارنة . أما المحاضرات التى كانت تلقى فى السوربون عن أدب العصور الوسطى فانها أشعلت حماسته للمؤلفات الشعبية التى لا يعرف لها مؤلف ، والتى تذكره بالخرافات والأساطير التى عرفها فى طفولته ببريتانى ، ثم ان صداقته بالشاب مارسلان برتلو الذى أصبح فيما بعد من أشــهر أعلام الكيميا

العضوية ، وسعت وعمقت معلوماته فى العلوم الطبيعية التى كانت تتجه اذ ذاك فى ١٨٤٠ وما بعدها الى حل أكبر القضايا العلمية الخاصة بالأصول وهى قضية أصل الأنواع . وكتب رينان فى مذكراته عام ١٨٤٥ أو ١٨٤٦ يقول : ان قانون الاستمرار ، أو بعبارة أبسط قانون الانتقال الأولى (بمعنى أن هذا العضو أو ذاك يكون فى بداية الأمر أوليا ثم ينمو) الذى نجده فى التشريح المقارن واللغويات المقارنة وعلم النفس المقارن والأجناس المقارنة ، (أى علم الأجناس البشرية المرتبطة بصلات غير ملموسة) — هذا القانون يثبت وحدة جميع أنظمة الموجودات أيا كانت وأصلها المشترك [١] . واستطاع برتلو أن يجذب رينان الى صف الآراء الديمقراطية فذهب للاستماع الى ميشيليه وهو يحاضر فى الثورة الفرنسية فى عام ١٨٤٨ المضطرب . وكتب رينان فى يومياته يقول : « لست الا نارا وأملا وحياة ومستقبلا » [٢] وهذا على الرغم من وجود خروق فى حذائه .

وبعد أعوام ثلاثة قضاها فى الدراسة والتدريس وجد متسعا من الوقت للتعبير عن حماسته فى كتابه « مستقبل العلم » وهو مؤلف يستحق أن يوضع جنبا الى جنب مع يوميات هردر لعام ١٧٦٩ فى مصاف أوسع المؤلفات التى وضعها الكتاب الشبان علما وفكرا . قال رينان ان وحيه مستمد من الجمع الموفق بين الشعر والبحث والفلسفة الذى قام به الكتاب الألمان ، وبخاصة هردر وجوته ، وهو جمع يكوّن فى رأيى المفكر الحق [٣] . ويحدثنا رينان عن عنوان هذا الكتاب فيقول انه كان من الممكن أن يكون

(١) Ernest Renan, Cahiers de jeunesse, 1845-1846 (Paris 1901), p. 280.

(٢) المصدر السابق ص ٢٥٧ .

(٣) Renan Lettres intimes (Paris, 1896) p. 301. الى اخته هنرييت بتاريخ ٢٣ سبتمبر ١٨٤٥ .

« مستقبل الفلسفة » لو لم تصبح كلمة الفلسفة مصطلحا فنيا ضيقا . فالعلم يجب أن يفهم بأوسع معانيه على أنه المعرفة المنظمة من كل نوع ، الا أنه ليست هناك كلمة للتعبير عن « تلك الحالة العقلية التى تتحد فيها عناصر الطبيعة الانسانية كافة فى انتظام أعلى ، والتى اذا تحققت فى الكائن الانسانى كوّنت الانسان الكامل ، وانى أقبل أن أطلق عليها الخلاصة الجامعة التركيبة (Synthesis) » [١] .

وان ما دفع رينان الى الاقرار بايمانه بقدرة المعرفة على تحسين حال الجنس البشرى حدث له فى فبراير سنة ١٨٤٨ حين وجد المتاريس الثورية على غير انتظار قد سدت طريقه الى دروس اللغة السنسكريتية « لقد ساءلت نفسى فى ذلك اليوم بشكل أكثر جدية من أى وقت مضى عما اذا كان هناك ما هو أفضل من تكريس كل لحظة فى حياة الانسان للدراسة والفكر ، وبعد أن راجعت ضميرى ، وأكدت ايمانى بالعقل الانسانى ، أجبت فى عزم وتصميم بالنفى [٢] .

وكان رينان يعتقد أن تخليص الجماهير من الاستغلال الاقتصادى ، وتهيئة أوقات الفراغ لها تفتح أمامها سبل الاطلاع على ذخيرة الفكر الانسانى : « لن تكون هناك سعادة حتى يتساوى الجميع ، ولكن لن تكون هناك مساواة حتى يصل الجميع الى درجة الكمال . ما أشد أسف العلماء والمفكرين حين يرون أنفسهم منعزلين عن الانسانية بسبب تفوقهم ، ولهم عالمهم الخاص ومعتقداتهم الخاصة بهم » [٣] ، وفى هذه التأملات يسرى أثر الحماسة المقترنة بالمهنة الاكليركية التى اضطر رينان بعد تردد أن يتخلى عنها .

---

(١) L'Avenir de la science (Paris, 1890); p. 301.

(٢) المصدر السابق ص ١٠ .

(٣) المصدر السابق الفصل ١٦ ص ٣٢٣ — ٣٢٤ .

وكان من رأى رينان أن الانسان يجب أن يعرف الطبيعة وأن يعرف نفسه ليحقق ممكناته الكاملة ، تعلمه العلوم أن يسيطر على بيئته ، وأن يبعد عنه الخوف من القوى الخارقة ، بيد أن ما حدث من تقدم فى الطرائق الصعبة لفهم الطبيعة الانسانية كان اذ ذاك أقل شيوعا : « ان العلم بالكائنات التى هى فى حالة تحول دائم لا يمكن أن يكون الا العلم بتاريخها ، فعلم اللغات معناه تاريخ اللغات ، وعلم الأدب والدين معناه تاريخ الآداب والأديان ، وعلم العقل الانسانى معناه تاريخ العقل الانسانى ، ومحاولة الاستيلاء على لحظة واحـدة من لحظات التطورات المتتابعة لتشريحها وفحصها فى حالة الثبات انما هى تزييف لطبيعتها [1] . لقد قفزت الدراسات التاريخية الى الأمام قفزة كبيرة حين ابتعدت عن التصورات الثابتة الجامدة الخاصة بالرياضيات والطبيعة والعقائد الدينية ، وليس تاريخ الانسانية هو فقط تاريخ تحررها كما قال ميشيليه ، ولكنه فوق كل شىء تاريخ تربيتها . وهذه أوضح هيجل وصفها بقوله انها « تاريخ كائن ينمى ذاته بقـواه الداخلية ، ويبدع نفسه ، ويصل بمراحل مختلفة الى امتلاك ذاته تماما »[2] وتبدأ هذه العملية بالعقل البدائى الذى تمثله الديانات القديمة خير تمثيل . « افتح الكتب المقدسة للشعوب البدائية فماذا تجد فيها ؟ فيها كل الحياة التى تتخطى دائرة المحسوسات ، وكل روح الأمة ، وفيها شعرها وذكرياتها البطولية ، وتشريعها وسياسـتها وأخلاقها وتاريخها وفلسفتها وعلمها ، وبعبارة موجزة فيها دينها » [3] .

على أن تتبع نمو العقل الانسانى من مثل هذه البداية لم يمكن الا أخيرا

(١) المصدر السابق الفصل ٨ ص ١٣١ .

(٢) المصدر السابق الفصل ١٠ ص ١٧٣ .

(٣) المصدر السابق الفصل ١٦ ص ٣٠٢ .

وذلك لأن اللغات والآداب — وهى أهم مدوناته — لم تقرأ قراءة صحيحة فلم يعرف القدماء لغة غير لغتهم ، ولم يعرفوا الا الشكل الأدبى المستقر لتلك اللغة ـ ولم تكن لديهم الخبرة بعدد كاف من الثورات الأدبية ، ولم يكن فى امكانهم الموازنة بين عدد كاف من آداب اللغات المختلفة حتى يسمو نقدهم الأدبى » (١) . ولم يعرف أن للغات تاريخا الا فى القرن الخامس عشر ، ولم تظهر دراسة اللغات المقارنة الا فى القرن التاسع عشر ، وظهر الأدب المقارن متأخرا فى أواخر القرن الثامن عشر بعد أن قضت ثورة أدبية على الايمان بمعيار مطلق للذوق ، وشجع الاقرار بنسبية الذوق على تقدير مختلف حالات الحضارة تقديرا نسبيا ، واستعرض رينان الانتصارات التى حققتها نهضة الدراسات التاريخية بفضل الدراسات اللغوية والأدبية وبالجملة بفضل كل ما تم على يدى ڤيكو ، وهردر ، وايشنهورن ، وولف ، ونيبور ، وياكوب جريم ، وبوب ، وموللر ، وشاتوبريان ، وسكوت وتييرى ، وميشيليه .

وأعلن رينان ايمانه بمستقبل تلك النهضة ، فقال : « يجب أن يكون الانسان مشربا بالأدب حتى يستطيع أن يبنى تاريخ العقل الانسانى ؛ فالقوانين هنا دقيقة غاية الدقة ، ولا تظهر لنا مباشرة كما هو الشأن فى العلوم الطبيعية ، والملكة التى لابد منها انما هى ملكة الناقد الأدبى : وتقوم على صياغة الدقة فى التعبير (فالصياغة هى أكثر الخصائص بيانا) وعلى دقة الادراك التى هى نقيض الروح الهندسية . فالعقول الرقيقة المرنة هى وحدها المزودة للوصول الى الحقيقة فى العلوم التاريخية والاجتماعية ، كما أن العقول المرنة الدقيقة هى وحدها المزودة للوصول الى الحقيقة فى

(١) المصدر السابق الفصل ٨ ص ١٤٣ ــ ١٤٤ .

العلوم الرياضية . ان حقائق النقد لا توجد فى ظاهر الأشياء ، وهى تكاد تبدو كالمتناقضات » [١] . الا أنه يجب أن تبنى الرقة والمرونة على أساس من العلم والفكر ، فالمؤرخ الكامل يفحص بنفسه عن الوثائق الأصلية فحصا دقيقا ، ويعرف كيف يستخرج ما له قيمة فى البحوث الدقيقة لغيره وان اتخذت مظهر الحذلقة التى لا جدوى منها ؛ ولا بدع فى تقريره هذا فقد جاهد للوصول الى أوسع المعارف العامة والى الاحاطة العالمية التى كانت لهردر . قال رينان : « انى أشعر أنه لو كانت لى عشرة أعمار انسانية أعيشها معا حتى أستطيع الكشف عن كافة العوالم ، مع وجودى فى وسطها أشم رائحة كل شىء وأصدر الأحكام وأعقد الموازنات ، أوفق وأقوم بالاستنباطات فانى لابد واصل الى نظام الأشياء » [٢] . وجوهر هذه المعرفة المضبوطة الشاملة واتحادها بالقدرة على التقويم المرن هو الفلسفة بمعناها الصحيح : « فالفلسفة ليست علما مستقلا وانما هى جانب معين من العلوم كلها » [٣] .

والفلسفة المرنة البعيدة لم تعرض الا عرضا ناقصا للديانة المسيحية التى هى أعظم ما شادت الانسانية — وابعاد المسيحية عن الشئون الانسانية لم يعط الدين حقه .

لقد حان الوقت لنجهر بأن علة واحدة أحدثت كل ما فى دائرة العقل ، فالعقل الانسانى يعمل تبعا لقوانين واحدة ولكن فى بيئات مختلفة ، فاذا خصص مؤلف فى تاريخ الفلسفة مجلدا واحدا لأفلاطون فانه يبدو أنه يجب

(١) المصدر السابق الفصل ٨ ص ١٥٠ ــ ١٥١ والفصل ١٣ ص ١٧٦ .
(٢) المصدر السابق الفصل ٨ ص ١٤٨ .
(٣) المصدر السابق الفصل ٩ ص ١٥٤ .

عليه أن يخصص مجلدين للمسيح ، على أنه فى الواقع قد لا يذكر اسمه ولو مرة واحدة . وليس ذلك خطأ من أخطاء المؤرخين ولكنه خطأ يرجع الى مركز المسيح ، وهذا هو مصير كل شىء وصل الى مرتبة التقديس الدينى ، ان كثيرا من الأدب العبرى الجيد الأصيل قد خسر فى رأى العلم والذوق عندما تحول الى التوراة (١) .

وأعلن رينان أنه سيحاول فى سن نضجه أن يكتب « أهم كتاب فى القرن التاسع عشر » (٢) . وهو تأريخ نشأة المسيحية .

وقال : « ولابد من التخمين ، فلم يصل الينا من أهل المسيحية أو اليهودية أو الوثنية شىء تاريخى فيما يتعلق بأول ظهورها ، أو فيما يتعلق بأبطالها ؛ ولكن النقد يستطيع أن يكشف مرة أخرى عن التاريخ فيما تحت الأساطير ، أو أنه يستطيع على الأقل أن يرسم لنا من جديد السمات المميزة لكل عصر واتجاه ، فالأديان يجب أن يتناولها النقد بالطريقة نفسها التى تنقد بها القصائد البدائية » (٣) .

ان مثل هذا المؤلف يتوج دراسات القرن التاسع عشر للأصول ، ويشعر الأوروبيين بطبيعة ثقافتهم العقلية والروحية ، ويستخلص للجماهير أكبر ارث لها وهو رسالة المسيح الاجتماعية .

قال رينان : « ان حظى سيكون دائما مع المحرومين » (٤) . وبعد أن شاهد قتل الأسرى من الثوار الذين قبض عليهم فى أثناء القتال الذى دار

(١) المصدر السابق الفصل ١٥ ص ٢٧٣ .
(٢) المصدر السابق الفصل ١٥ ص ٢٧٩ .
(٣) المصدر السابق الفصل ١٥ ص ٢٨١ و ٢٧٥ .
(٤) المصدر السابق الفصل ٢٣ ص ٤٩١ .

فى شوارع باريس فى يونية عام ١٨٤٨ جهـرا كتب الى شقيقته يقول : « لا شك فى اداتهم هؤلاء الأغبياء المساكين الذين أراقوا دماءهم دون أن يعرفوا ماذا يريدون . ولكن أشد ذنبا فى نظرى هؤلاء الذين استرقوهم ، وداوموا على اهدار مشاعرهم الانسانية ، وأنشأوا خدمة لأغراضهم الأنانية طبقة لها مصلحتها فى الفوضى والنهب (١) .

وألف رينان مقالات ممتازة فى اللغات السامية واليونانية فى خـلال العصر الوسيط أتاحت له الفوز بمهمة علمية عهدت بها اليه وزارة المعارف ، وهى احصاء المخطوطات السامية فى المكتبات الايطالية ، فقام برحلة فى ايطاليا من أكتوبر ١٨٤٩ الى يونيو ١٨٥٠ شاهد أثناءها الاستقبال الحماسى الذى أعده شعب روما للبابا الذى سبق له أن طرده من المدينة منذ عامين ، فدفعه ذلك الى التأمل المرير فى تقلبات الجماهير . ولقى فى طريقه الى المعابد الدورية فى پيستوم : « متوحشين حقيقيين يكاد لا يكون لهم دين ، شبه عراة . وانعدمت عندهم الزراعة ، فهم مجرد قطعان ارتدت جلود الحيوانات» ويتكلمون رطانة محلية بشعة ، وأرسل الى برتلو يقول له : « لقد شاهدت حدود الحضارة فأرعبتنى كمن يصطدم قدمه بجدار وهو يظن أن أمامه الفضاء الواسع ، ان هذه التجربة أورثتنى أكثر المشاعر حزنا فى حياتى ، وخشيت على الحضارة اذ رأيتها محدودة الى هذا الحد ولا ضمان لها ، تعتمد على عدد قليل من الأفراد حتى فى البلاد التى تسود فيها . كم من الناس فى أوربا ينتسبون حقا الى القرن التاسع عشر ؟ وما قيمتنا نحن معشر الرواد والطليعة ازاء هذا القصور وهذا القطيع من الوحوش الذى يسير

(١) Nouvelles lettres intimes (Paris, 1923) pp. 189-190; الى هنرييت رينان فى ٢٦ يونية ١٨٤٨ .

وراءنا ؟ وماذا يكون الحال لو أنه ذات يوم هجم علينا ورفض السير ؟ »[١].
ولكن الايطاليين الذين أثاروا مثل هذا الخوف فى نفس رينان كان لديهم الشىء الكثير لتقديمه للعالم ، فهم شعب يمتاز بالذوق ويستمد من مجرد كونه يحيا لذة كبرى . ان الجمهور يقول هنا : « جميل وجميل جدا . وقلما تخرج كلمة « جميل » من فم الرجل العادى فى بلادنا » [٢] ان مدنا بأسرها مثل سينا وبيزة وفلورنسا هى قطع فنية . ان تاريخ شبه الجزيرة الايطالية الطويل قد علم الناس شيئا من عدم الاكتراث بما يزعج من أحوال الحاضر . « ان أجمل الصفات فى الخلق الايطالى هى .. نوع من الوجود فى مكان غير المكان (alibi) يمنع اليأس من الاشتداد » [٣] .

ولقد كان رينان فى حاجة الى هذه المقدرة على ملاحظة ذلك الجانب الجمالى للحياة حين رجوعه فى صيف عام ١٨٥٠ الى فرنسا ، بعد انتخاب لويس نابليون رئيسا للجمهورية بالاقتراع العام ومواصلته العمل على الغاء النظم الديمقراطية ، وحذر أوغسطين تييرى رينان من عدم مناسبة الوقت لنشر كتاب جرىء مثل مؤلفه « مستقبل العلم » ، ونصحه بنشره منجما كمقالات للمجلات ، وقبل رينان نصيحته عن طيب خاطر بعد أن استيقظ احساسه الفنى فى أثناء وجوده بايطاليا وأدرك ثقل أسلوبه ، الا أن موافقة الشعب الفرنسى على انقلاب ديسمبر ١٨٥١ الذى قام به لويس نابليون كرهته فى الرأى العام ، فالجماهير فى حاجة واضحة الى فترة طويلة من التربية ، ولم يرض عن تضحية ميشيليه بمناصبه ورفضه أن يقسم يمين

---

(١) Ernest Renan et M. Berthelot, Correspondance, 2d ed. (Paris, 1898). pp. 75-76. الخطاب المؤرخ فى ٧ يناير ١٨٥٠ .

(٢) المصدر السابق ص ١٠٢ الخطاب المؤرخ فى ١٧ فبراير ١٨٥٠ .

(٣) المصدر السابق ص ١٢٢ الخطاب المؤرخ فى ٢٢ مايو ١٨٥٠ .

الولاء لأن ذلك يتضمن : « ان كل ما يقع أو يحدث يحمل على محمل الجد » .

ومن الواضح أنه لابد لنا أن ننأى عن السياسة زمنا طويلا [١] . الا أن الموقف الاجتماعى أحزنه حزنا شديدا ، فاحتفظ فى حياته فيما بعد بذكرى قوية « لتلك السنوات الكئيبة ١٨٤٩ و ١٨٥٠ و ١٨٥١ التى وقع فيها العقل الانسانى تحت حكم أعدائه ، والسنوات العشر الأولى من عهد الامبراطورية التى كان يعد فيها كل مالم يتسم بالضعف أو التفاهة شيئا خطيرا » [٢] .

وكان رينان اذ ذاك يعيش علـى مرتبه من عمله أمينا للمخطوطات الشرقية ومخطوطات العصـور الوسطى بالمكتبة القومية ، فأمضى تلك السنين فى جمع المادة للمؤلف الذى أنفق فيه حياته ، وهو مؤلفه عن أصول المسيحية ، وفى عرضه عرضا جذابا لجمهور من القراء أكبر عددا عن طريق الكتابة فى المجلات الدورية ، ثم كان زواجه فى عام ١٨٥٦ من ابنة أخ الفنان الهولندى أرى شفر فاتسعت دائرة صلاته وشملت الفنانين والموسيقيين وأذكت اهتمامه بالأسلوب .

أما كتابات رينان الدورية التى جمعت فى مجلدين وهما : « دراسات فى تاريخ الدين » (١٨٥٧) و « مقالات أخلاقية ونقدية » (١٨٥٩) ، فانها فى الواقع توسيع وتهذيب لوجهة النظر فى مؤلفه مستقبل العلم الذى لم يظهر فى صورته الأولى الا عام ١٨٩٠ . وقد بحث رينان فى مقال كتبه لتخليد ذكرى صديقه تييرى بعد وفاته الأسباب التى جعلت من التاريخ « العمل المميز المبتكر » لتلك السنوات الأخيرة — فقال :

---

(١) ذكره Edmund Wilson, To the Finland Station (New York, 1940) p. 39.

(٢) Ernest Renan Mélanges d'histoire et de voyages (Paris, 1898), p. xiii.

« ان ضخامة الحوادث التى ميزت نهاية القرن الماضى وبداية القرن الحالى ، وكثرة الحوادث التى تلتها واختلافها ، والمجال الكبير لتمرين التفكير على ادراك عمل الثورات الانسانية وقوانينها — كل أولئك تهىء ظرفا ممتازا لفهم الماضى .. ولست أرى قبل وقتنا هذا عصرا يحس احساسا مباشرا بحياة الماضى .. ان القرن الحالى هو أول العصور التى تميزت بتلك الدقة فى استخلاص خصائص العادات والأخلاق التى لم يعد لها مثيل فى المجتمع الراهن ، من نصوص قديمة متماثلة »[١] .

ودافع رينان بحرارة عن تجديدات تييرى — فقال : « كل تعميم معرض للنقد ، والوسيلة الوحيدة لكتابة التاريخ كتابة لا تتعرض للنقد انما هى كتابته بذلك الأسلوب العادى الذى يتقيد ويقتصر على التفصيلات التى لا أهمية لها ، ولكن ماذا أقول ؟ ان هذا الأسلوب هو أشد الأساليب خطأ ، والدقة التى يدعيها أصحاب هذا الأسلوب ويفاخرون بها انما هى دقة كاذبة فى حقيقة الأمر ، وان هذا الخيال الذى يحرمه المؤرخون البحاث وحدهم هو أجدر بالوصول الى الحقيقة من تلك الأمانة الذليلة التى تقنع باخراج النصوص الأولى للوصف الذى دونه كتاب الحوليات .. ان التاريخ ليس دراسة من تلك الدراسات التى أطلق عليها العصر القديم لفظ (Umbratiles) أى المتطفلة والتى يكفى لها العقل الهادىء والجلد ؛ انه ، أى التاريخ ، يمس أعمق مشاكل الحياة الانسانية ، ويتطلب الانسان بكليته وبكل جوانحه ، وان الروح ضرورية له ضرورتها للقصيد من الشعر أو للعمل الفنى ، ويلزم أن تنعكس فيه شخصية الكاتب »[٢] .

---

(١) Renan, Essais de morale et de critique, 2d éd. (Paris, 1860); pp. 104-105.

(٢) المصدر السابق ١٢٠ ، ١٢٩ — ١٣٠ .

ولكن النهج الرومانسى لقى تأكيدا وتحديدا على يد رينان فتميز بهما على غيره ، اذ قال : « ان التاريخ فن كما هو علم ، وكمال الشكل أمر جوهرى له ـ وليس من المبالغة القول بأن الجملة المضطربة تتفق دائما والفكرة غير الدقيقة » [١] وفى مقال له عن ديانات العصر القديم يقول : « انه لابد لكتابة تاريخ الدين من الامتناع عن الاعتقاد فيه ، ولكن لابد أيضا من سبق الاعتقاد فيه [٢] والشعور بالانجذاب اليه لابد أن يوازن بالشعور بالانفصال عنه .

ان الدين ، وشأنه فى ذلك شأن جميع المنتجات الحية للانسانية ، يخضع للتغير ، ولكن التغير كان من التدرج بحيث انه غالبا ما تفوت ملاحظته . ولم تحدث المسيحية فى أول الأمر تغييرا يذكر فى الحياة المنزلية والاجتماعية حتى انه يشك فى أمر عدد كبير من وجوه القوم فى القرنين الرابع والخامس أكانوا وثنيين أم مسيحيين [٣] . وان نشر نتائج الدراسة التاريخية للدين على الملأ لأمر يفيد منه الدين . ان الدين فى وقتنا هذا لا يمكن أن ينفصل عن الرقة الروحية أو الثقافة العقلية ، وانى أعتقد أنى أديت للدين خدمة بمحاولة نقله الى مكان منيع لا تنال منه العقائد الخاصة أو المعتقدات فى القوى الخارقة [٤] . وان الدين ينبغى أن يكون أول ما يهتم به المؤرخ لأنه أبدى « ومن المحتمل أن كل ما نحب وكل ما يزين لنا الحياة مصيره البقاء لأجل محدود ، ولكن الدين لن يموت ؛ انه اعتراض الروح على المادية

(١) المصدر السابق ص ١٣١ .

(٢) Renan, Etudes d'histoire réligieuse, 7th éd. (Paris, 1864), pp. 6-7.

(٣) المصدر السابق ص ٥٨ .

Essais de morale et de critique, Préface, pp. ii-iii.

المنظمة أو الهمجية التى تسجن الانسان فى مقر سفلى من الحياة الوضيعة ، فللحضارة فترات تنقطع فيها ولكن ليس للدين شىء من ذلك » (١) .

وفى عام ١٨٦٠ شرع نابليون الثالث يسترضى أهل الفكر والطبقات العاملة بالسماح بشىء كثير من حرية الصحافة وتكوين حزب معارض ، وشعر رينان باستعداده مختارا لقبول رياسة بعثة رسمية للكشف عن الآثار الفينيقية ، وزار فلسطين طلبا للراحة من عناء العمل فى الاشراف على الحفريات فى الساحل الشديد الحرارة ، فهاله البون بين الاقليم الخصب فيما حول بحر الجليل وبين الصحراء القاحلة فيما حول أورشليم ، وهيأ له ذلك التناقض البيّن تفسيرا لتعاليم المسيح دفعه أخيرا الى تدوين مؤلفه الذى فكر فيه طويلا عن تاريخ أصول المسيحية ، فوضع على وجه السرعة وهو فى جبال لبنان المجلد الأول وسماه حياة المسيح : « ايه أيتها الساعات السعيدة التى مضت سراعا .. ! ليت الآخرة تشبهك ! كنت ثملا من الصباح الى المساء بالأفكار التى تنشر أمامى ، ومعها أذهب الى النوم ، ثم تردها الىّ أول أشعة الشمس خلف الجبال بأوضح وأقوى مما كانت عليه فى اليوم السابق » (٢) .

ونستطيع أن نرى بعينى المؤرخ الناقد « هيبوليت تين » الذى لم يرض عن مؤلف رينان وان أعجب به كيف وضع رينان كتابه فى شكله النهائى عند رجوعه الى باريس :

« لقد قرأ على رينان جزءا كبيرا من مؤلفه عن حياة المسيح ، وهو يصور هذه الحياة برقة ولكن بتعسف ، والوثائق التى يستند اليها تناولها التغيير

(١) Etudes d'histoire réligieuse, p. 71.

(٢) Lettres intimes p. 60, "Ma Seur Henriette".

الكثير وليست أكيدة ، وقد جمع للفترة الناصرية كل أفكار المسيح الجميلة وأبعد عنها الأفكار الحزينة ، فأبدع قصيدة رعوية صوفية ساحرة ؛ وفى فصل آخر جمع كل تهديد وكل مرارة وأودعها الرحلة الى أورشليم .. وعبثا حاولت ومعى برتللو أن أبين له أن ذلك بمثابة تأليف قصة بدلا من الأسطورة وأنه يتلف الأجزاء الموثوق بها بما يخلطه بها من الفروض ، فلم يستمع الى شيء من ذلك ، ولم ير الا فكرته وحدها ، وقال عنا اننا لسنا من أهل الفن ، وان مجرد رسالةواقعية أصــولية بحت لا تستطيع أن تعيد الى الوجود الحياة التى عاشها المسيح والتى يجب أن نحبيها مرة أخرى . لقد كان فوق كل شيء انسانا قوى العاطفة متسلطة عليه أفكاره تسلطا تاما عصبيا . وكان اذ يتحدث يذرع غرفتى جيئة وذهابا كأنه فى قفص وهو يلوح ويتحدث باقتضاب حديث من خطرت أفكاره وهو بين اليقظة والنوم ، وهو يختلف تماما عن برتللو الذى يمتاز بالهدوء كأنه ثور الفلاحة الصبور يجتر أفكاره ولا يتجاوزها الى غيرها . ان رينان يعجز تماما عن وضــع الصيغ الدقيقة — ولا ينتقل من حقيقة دقيقة الى أخــرى ، فهو يتذوق ويستشعر ويخضع لما ينطبع على فؤاده وهذا اللفظ يوضح كل شيء » (١) .

وقد نشرت حياة المسيح فى عام ١٨٦٣ حين بلغ رينان الأربعين ، واكتمل مؤلفه فى أصول المسيحية بظهور ستة مجلدات أخرى فى مدى ثمانية عشر عاما ، وكان رينان فى سنى شهرته تلك شخصية معروفة لأهل باريس وهو يعبر نهر السين من منزله فى الضفة الغربية . رجلا قصير القامة بدينا منحنى الظهر ولعينيه الغائرتين تأثير قوى ، يسرع أحيانا ، ويتوقف أحيانا أخرى ليلوح بقبضته فى الهواء فى وجه خصم مجادل لا يرى .

(١) H. Taine, Sa vie et sa correspondance (2d éd. Paris, 1904), II; 244-245. ملاحظات شهر أغسطس ١٨٦٣ .

وكانت خطته الأصلية لكتابة وصف منظم لنمو المذهب المسيحى قد محتها رؤية فلسطين وأهلها . « ان التاريخ الذى يبدو من بعد وكأنه يطفو على سحب عالم من الخيال قد تجسم وجمد » وزاد فى اقتناعه « بأن التاريخ ليس عملا بسيطا من أعمال التجريد ، وأن الناس فيه أهم من المذاهب » (١) ان شخصية يسوع التى هوّن أحرار اللاهوتيين المسيحيين من شأنها خوفا من أن يعد من اليهود الذين آمنوا بمجىء المسيح والرؤيا ، والتى اختزلها العالم الألمانى دافيد شتراوس فى مؤلفه حياة المسيح (١٨٣٥) فى فكرة فلسفية — هذه الشخصية قد احتلت المكان الرئيسى « ان عظمته ليست فى وضعه منفصلا عن التاريخ بل اننا نحسن عبادته اذا بينا أن التاريخ لا يمكن فهمه الا به » (٢) . لقد كان أعظم مما قالت به الأناجيل لأن تلاميذه لابد أنهم أنزلوه الى مستواهم وغالبا ما أساءوا فهمه ، وكان فوق كل شىء انسانا حلو الشمائل ، وقد خلدته حلاوة شمائله فى قلوب أحبائه ، وفسر رينان فكرة المسيح عن رسالته حسب النظرية الرومانسية فى العبقرية ولم يقر المسيح أبدا أنه هو الله بمعنى الاستعلاء التام على البشر ، ولكن فكرته عن الانسان ليست هى تلك الفكرة المتواضعة التى أدخلها مذهب الاعتقاد العقلى الفاتر فى وجود الله ، ونجد فى فكرته الشعرية عن الطبيعة أن وحيا واحدا يشمل الكون ، وأن وحى الانسان هو وحى الله ، فالله حى فى الانسان ويحيا به كما أن الانسان يحيا فى الله ويحيا به (٣) وقد رفعت اللحظة المناسبة فى التاريخ المسيح الى السمو الذى لا مثيل له .

« يلقى كل فرع من فن وشعر ودين فى خلال نمو الانسانية وعبر

(١) Renan, Vie de Jesus (Paris, 1893), Préface, pp. xciii,ci.

(٢) المصدر السابق ص ٢١ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٥٤ .

العصور فترة سعيدة ممتازة يصل فيها الى الكمال دون جهد بفضل نوع من الغريزة التلقائية . ولقد كان عصر المسيح بالنسبة للدين كما كانت عصور اليونان الزاهرة بالنسبة للفنون والآداب الدنيوية . لحظة من تلك اللحظات الالهية التى تحدث فيها عظائم الأمور نتيجة للقوى الخفية الكثيرة التى اصطلحت عليها من تلقاء نفسها ، وتجد فيها النفوس الصافية نبعا من الانعطاف يغذيها (١) .

وقد استخلص رينان لقرائه صورة البيئة التى حدثت فيها تلك اللحظة من عناصر شتى : استخلصها من معرفته بلغات وآداب وعادات وأفكار الساميين ومن المقارنة بالعصور الثورية فى تاريخ فرنسا التى أحيا فيها السانسيمونيون ولامنيه فى تلك الأيام رسالة المسيح الاجتماعية ، ومن ذكرياته عن جماعات الصيادين السذج فى موطنه باقليم بريتانيا ، وانطباعاته عن اقليم الجليل واليهودية الذى عنى بوصفه ولونه المحلى منافسا فى ذلك شاتوبريان ؛ ووصف المستمعين الأول للصلوات الطوباوية بعبارات تتفق مع المذهب الرومانسى فى سماحة الطبيعة :

« ان جو الجليل جعل حياة أولئك الصيادين الطيبين سعادة دائمة ، وكانوا بسذاجتهم وطيبتهم وسعادتهم واتتقالهم على بحرهم الصغير الجميل أو نومهم ليلا على شطآنه مقدمة حقة تمهد لمملكة الله ، ويصعب أن تتخيل سرور الحياة التى تجرى على هذا النحو فى الهواء الطلق ، والشعلة الحيوية الهادئة التى أوقدها هذا الاتصال الدائم بالطبيعة ، وأحلام تلك الليالى التى تمضى تحت النجوم المضيئة والقبة الزرقاء التى لا قرار لها ـ ولعل العالم قد كشف عن أسراره لضمائر أولئك الأطفال السعداء التى امتلأت

(١) المصدر السابق ص ٤٧٢ .

بالأنوار الالهية واستحقوا بنقاوة قلوبهم أن يشاهدوا الله يوما ما وجها لوجه » (١) .

وقد أحب هؤلاء القوم تعاليم المسيح لأنه ألبسها ثوبا شعريا لم يكن لها فى الشريعة الموسوية وأقوال أحبار اليهود .

كانت عظاته حلوة هادئة تملؤها الطبيعة وعطور الحقول ودخلت فيها طيور الجو والبحر والجبال ، على أن الاحساس والصور والأسلوب ظلت كلها يهودية فى جوهرها . فهو ينتسب نسبا مباشرا الى أشعيا وكتاب المزامير وأنبياء عصر الأسر وواضع نشيد الانشاد والى مؤلف سفر الجامعة فى بعض الأحيان (٢) .

ولقيت مطالبته بالملكية العامة استجابة طيبة من قوم سهّل سخاء الطبيعة اشباع حاجاتهم القليلة .

ولكن عندما انتقل المسيح الى أورشليم انتقلت دعوته لجو لا يلائمها فقيدت أسوارها انطلاق خياله وحبه للطبيعة (٣) ، ولكن براعته وجدت مجالا لها فى السخرية : « ان ثوب السخرية الذى يتوارثه اليهود من أبناء الفريسيين ولا يزالون يرتدونه مهلهلا بعد ثمانية عشر قرنا قد نسجه المسيح ببراعة آلهية . ان نعوته ، وهى روائع فى فن السخرية العالية نقشت فى سطور نارية على اهاب المنافقين وأهل الورع المزيف ، فهى نعوت لا تصدر الا عمن كان فى مكانته ! ولا يستطيع مثل هذا الزجر الا رب ؛ ان سقراط وموليير لا يستطيعان الا أن ينزعا الجلد أما هذا الرجل فانه وصل باللهب

---

(١) المصدر السابق ص ١٧١ ــ ١٧٢ .

(٢) المصدر السابق ص ١٧٢ وكذلك Saint Paul (Paris, 1869) III, 470.

(٣) Vie de Jésus, p. 350.

والغضب الى مشاش العظم وأدى من ملك الذروة فى فن السخرية حياته ثمنا لانتصاره [١] .

وأصالة المسيح كانت فى وصوله بأروع ما تفذ اليه نظر أنبياء بنى اسرائيل الى خاتمته المنطقية أى الى « الدين المطلق » أى الى الدين الذى لا يتقيد بجنس دون جنس ، ولايتقيد بأماكن مقدسة أو بكهنة أو بطقوس ، دين اخاء وحرية ، دين روح وحق . فالمسيح لم يعطنا عقائد جامدة ، بل أعطانا تعليما رمزيا قابلا دائما للتأويل ، وكان حثه على الكمال ورفض كل شيء دونه ؛ جعلا المسيحى الحق لا يرضى أبدا عن حال المجتمع الراهنة ، وما ناله من ظلم لا نظير له بصلبه ، ألقى شكا دائما على عصمة الكنيسة والدولة من الخطأ ، ورفعت حياته البشرية بما دلت عليه من امكان اقتراب الانسان من الكمال . « ان البشرية لو أخذت فى مجموعها فانها تتألف من مجموع أنانيين وضيعين لا يفوقون السائمة الا من حيث ما فى أنانيتهم من عنصر العقل ، وعلى الرغم من ذلك فان بعض العمد ترتفع الى السماء فى وسط الانحطاط الشامل دليلا على مصير أنبل ، والمسيح هو أعلى هذه العمد التى تبين للانسان من أين أتى والى أين يسير [٢] .

لم يترك المسيح شيئا مكتوبا ،وظل تلاميذه الى جيل بعد وفاته يعتقدون فى قرب نهاية العالم ، فلم يفكروا فى تسجيل ذكرياتهم ، ونسبة الأناجيل ليست أكيدة ، وكثير مما دون عن الكنيسة الأولى لا يعرف مؤلفه ، والأناجيل أول النصوص المكتوبة للغة اليونانية الشعبية الدارجة التى تختلف عن اليونانية الكلاسيكية ،ولكن اللغة اليونانية ليست أول لغة دونت بها قصة

---

(١) المصدر السابق ص ٣٤٦ ــ ٣٤٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٧٣ ــ ٤٧٤ .

المسيح ولكنها باعتبارها لغة دولية اتخذها لأغراض النشر الكتاب الذين كانوا كالمسيح يتكلمون الآرامية أو السورية الكلدانية كما أسماها رينان والتى أصبحت بعد العبرية لغة الكلام عند اليهود نتيجة للأسر البابلى . وهكذا نجد أن العهد الجديد قدم لرينان خير الأمثلة للأدب الشعبى ، ولنمو الأساطير من الرواية الشفوية .

« لقد سطرت معالم الكتاب الذى سحر الأرواح بهذه اللهجة المغمورة التى لم تكن لها ثقافة أدبية . وهكذا بدأت العبقرية اللاشعورية وضع هذه الروائع من الفن التلقائى وهو الانجيل ، ولانقصد بذلك هذا الانجيل أو ذاك ، وانما نقصد ذلك النوع من القصيد غير الثابت ، والروائع غير المدونة التى تعد فيها الأخطاء أنواعا من الجمال ، وعدم التحديد أهم أسباب نجاحها ، ولو أن صورة المسيح كانت تامة ثابتة مستقرة لما كانت لها مثل هذه الجاذبية » (١) .

ومن وجهة النظر الكلاسيكية نجد أن النص اليونانى ليس له أسلوب أو خطة أو جمال ، والعمليات العقلية التى ينم عنها هى لقوم يفكرون بلغة أخرى وهى الآرامية ، ولكن هذه اللهجة السامية الخفية نقلت الى أوربا روحا أدبية أسيوية مرحة « فهذه التعبيرات المطلقة الجامدة التى ينعدم فيها التأويل ، وهذه اللغة التى تكون الأشياء فيها اما بيضاء أو سوداء اما شمسا أو ظلاما ، والتى يقال فيها أحب يعقوب وأكره عيسى تعبيرا عن قولنا أحب يعقوب أكثر من عيسى ، هذه التعبيرات وهذه اللغة فتنت العالم بعنف عظمتها ، ولم تكن الأجناس الأوروبية معتادة على هذه السعة

---

(١) Renan, Les Evangiles et la seconde génération chrétienne (Paris, بدون تاريخ) p. 98.

الشرقية وقوة البت وهذا الأسلوب فى عرض الأشياء دفعة واحدة دون تدرج ، فاستسلمت وغلبت على أمرها ولا يزال هذا الأسلوب الى وقتنا هــذا مصــدر قوة كبيرة للمسيحية يفتن النفوس ويكسبها الى جانب المسيح (١) . كذلك روت الأناجيل قصة صادفت هوى فى الجماهير ، وهى قصة « فيها الكاهن هو المخطىء دائما ، وذوو المكانة جميعا من المنافقين ، والسلطات الشرعية تكشف عن احتيالها ، والأغنياء مصيرهم الى جهنم »(٢). وأدخل العهد الجــديد الى العالم فكرة جــديدة وهى : « فكرة الجمال الشعبى » (٣) .

وقد استرشد رينـــان بما عرف عن المميزات العامة للأدب الشعبى ونمو الأساطير فى تفسيره لنشأة المسيحية ، فاذا استقى مؤلفو العهــد الجديد من أنبياء بنى اسرائيل والمثل الأعلى للمسيح المنتظر اطارا ولونا للحياة الحقيقية للمسيح ، فان رينان يعلم أنهم كانوا أناسا حقيقيين شأنهم فى ذلك شأن مؤلفى قصائد هوميروس أوكريتيان دى تروا (٤) . ذلك لأنهم يكتبون وفقا لتقاليد أدبية . وما جاء فى سفر أعمال الرسل من التعاون الوثيق التام بين بطرس وبولس ذكّر رينان بالأسطورة الشعبية للثــورة الفرنسية التى وفقت بين دانتون وروبسبيير كما وفقت بين ڤولتير وروسو .

ولم يوضح كاتب ما القانونين التاريخيين اللذين يكمل أحدهما الآخر ، وهما : قانون التغير ، وقانون الاستمرار ، خــيراً من توضيح رينان لهما فى مجلداته الستة التى تتبع فيها نشأة المسيحية الى قرن ونصف قرن بعد

(١) Renan, L'Eglise chrétienne (Paris بدون تاريخ) p 116

(٢) Les Evangiles, p. 2[illegible].

(٣) L'Eglise chrétienne, p. 115.

(٤) Les Evangiles, p. 89.

موت المسيح ، فقد قطعت فيها المسيحية صلاتها باليهودية قطعا تدريجيا حتى لا يكاد يدرك ، وحصلت على لاهوت خاص بها من صنع بولس خاصة وهو لم يستمع أبدا الى عظات المسيح ، وكذلك من أثر الفلسفة اليونانية ، وحصلت على طقوس وخاصة من هراطقة العارفين بالله ، وثبتت نصا ملزما للكتب المقدسة ، وقبلت فكرة امكان تأجيل نهاية العالم تأجيلا طويلا ، وبدأت تسمح بالملكية الفردية وتحول كرهها الشديد للفن الوثنى الى نزعة لتنمية فن خاص بها ، وألقى تخليد ذكرى الشهداء بذرة عبادة القديسين الشفعاء ، وكسبت مريم أم المسيح أهمية فى التقاليد المسيحية ، ونظمت المسيحية نفسها ببطء لا يكاد يدرك فى كنيسة خضعت فيها الديمقراطية القديمة لسلطان الأساقفة المطلق ، وتغير اصرارها على الابتعاد عن الدولة الى رغبة لاعتراف الدولة بها ، ورسمت الأقسام الادارية للكنيسة على نفس نظام التقسيمات الادارية للامبراطورية الرومانية التى وضعها أغسطس قيصر . وأصبحت الامبراطورية هى القالب الذى تجمد فيه الدين الجديد [١] . حتى اذا جاء آخر عهد مرقص أوريليوس فى عام ١٨٠ م كانت الوثنية قد آلت الى الزوال ، ولكن المسيحية التى أوشكت على النصر قد أصبحت شيئا لو رآه المسيح لما أقر نسبتها اليه ، ومع ذلك فقد احتفظت الأناجيل برسالته الصحيحة ولا يزال أمامها مجال كبير للعمل فى العالم .

« ان ما يجعل المسيحية تعيش ، هو قلة معلوماتنا عن كلمات المسيح وشخصيته فالانسان المثل الأعلى والشاعر الالهى والفنان الكبير هم الذين يتحدّون وحدهم الزمان والانقلابات » [٢] .

ويحذر رينان فى كتابه نشأة المسيحية معاصريه فى أوروبا ان الثقافة

---

(١) Marc-Aurèle (Paris, 1882), p. 412.

(٢) Saint Paul p. 571.

التى تقتصر على الصفوة من الرجال هى أضعف من أن تبقى ، وأن أية فكرة لا يمكن أن تبقى طويلا اذا لم يكن لها جذور عميقة فى الجماهير . وقد انتصرت المسيحية لأن الثقافة القديمة أهملت الأمور الروحية والعاطفية والعقلية وحاجات الشعب المادية ، وتلقى العلم والفلسفة ومباهج الحياة ضربة قوية لأن المسيحى القديم كان لابد أن تكون له آفات حسناته ؛ فهو يرى العبث والتفاهة فى أشياء لا تتصف بها ، وهو يصغّر الكون ويعادى الجمال ويحتقره ، وأن أى نظام يكون فيه تمثال ڤينوس الميلوسية مجرد وثن هو نظام مزيف ، أو هو على الأقل نظام متحيز ؛ لأن للجمال قيمة كبرى تقرب من قيمة الخير والحق [١] .

وكان رينان يطيل التأمل ، ويهتم بالأفكار والذوق أكثر من اهتمامه بالأعمال ، فاضطرب للهوة السحيقة التى تفصل بين التوافق المثالى للحق والجمال والفضيلة وبين السلوك البشرى كما يستبين من التاريخ ، وقد بيّن كتاب « نشأة المسيحية » ، وهو من أهم تواريخ الأفكار ، ان الانسانية شيء متعدد متغير وتتجاذبها رغبات متناقضة [٢] ، فاذا ماقبلت الانسانية الأفكار الصافية المنطقية فى حد ذاتها فان هذه الأفكار لا تلبث أن تتحول تحولا غريبا تعجز الاتجاهات التاريخية عن التنبؤ به ، فما أسرع ما انفصلت المسيحية عن الابيونيين [٣] الذين احتفظوا بانجيل المسيح فى الفقر وشيوع الملكية ؛ وثمة قانون فى هذا العالم ينص على أن كل داعية سرعان ما يصبح غريبا محروما وعدوا بين أتباعه أنفسهم ، وأنه اذا طال أجله فان من يأخذون عنه يضطرون لاتخاذ الاجراءات ضده باعتباره انسانا خطرا [٤] .

---

(١) Les Apôtres (Paris, 1866), p. 372.

(٢) المصدر السابق ص ٣٧٥ .

(٣) الابيونيون من هراطقة القرن الأول الميلادى أنكروا الوهية المسيح .

(٤) Les Evangiles, p. 75

وان الفشل المحزن الذى أصاب الحكيم الطاهر مرقص أوريليوس على الرغم من حيازته السلطان المطلق للأباطرة الرومان ، وعجزه عن القيام بخير كثير أو منع شر كثير — أدى برينان الى الملاحظة الآتية وهى : « ان أكبر مساوىء الحياة الواقعة ، والتى تجعل احتمال الانسان المتفوق لهـا أمرا عسيرا ، هى أنه اذا نقلنا اليها مبادىء الحياة المثلى انقلبت الحسنات عيوبا ، حتى ان الانسان الكامل غالبا ما يكون حظه من النجاح فيها أقل من حظ الانسان الذى تحركه بواعث الأنانية والرتابة العادية»(١). وقد دهش رينان، بالنظر الى قلة تشجيع الجنس البشرى للفضيلة وللعمل الدائب فى الحكام ، لوجـود بعض مـن ذوى الضمـائر لا يزالون يشـغلون وظائف الملوك والأباطرة .

وفى عصر رينان انهارت آمال كبار فى فرنسا وأوربا ولكنه استطاع أن يقى نفسه شر الحسرة بقبوله الفصل بين عالم المثل الأعلى وعالم الواقع ، ونظره الى التاريخ عن بعد نظرة الفنان المبتعد ، واعترف فى مقدمة المجلد الرابع عن « المسيح » فى عام ١٨٧٣ حين كانت فرنسا « تحتضر ببطء » بعد هزيمتها على يد ألمانيا قائلا : « اننى أخفى أننى قد انسقت فى هذا المجلد مع حب التاريخ واللذة التى لا مثيل لها ونستشعرها فى مشاهدة منظر الانسانية وهى تظهر مكنونها تدريجا » ؛ وقد احتل مركز الصدارة فى هـذا المجلد نيرون المسخ لرجل الفن ، والقوميون المتعصبون من اليهود الذين دافعـوا عن أورشليم حتى خربت تماما ، فى حين كان المستقبل للشهداء المسيحيين المغمورين ؛ ونفذ رينان بمرونة لا مثيل لها الى عقول اليهـود والرومان واليـونان والمسيحيين الأوائل ، ورأى الدنيـا لفترة بعـد فترة بعينى

(١) Marc-Aurèle, p. 463.

كل منهم ، فزاد اعتقاده فى مدى نسبية أفكاره هو واحتمال وجود الحق فى العكس ، ونعى على القديس بولس أنه كان انسانا عمليا بحتا حتى انه لم يشك فى نفسه ، ولم يقرأ سفر الجامعة الممتع قط بينما « اتصف أستاذه المسيح للحد الفائق بالصفات التى نعدها أهم صفات الانسان الممتاز وهى القدرة على الابتسامة الساخرة من عمله ، وهى أيضا التفوق عليه فلا يدعه يسيطر عليه أبدا » [١] .

وفى عام ١٨٩٠ نشر رينان أخيرا قبل موته بعامين مؤلفه « مستقبل العلم » ولم يقم بمراجعته لأنه أراد من هـذا الكتاب أن يذكر القارىء « بشاب لم يلوث بعد ، يعيش وحده مع عقله ويتعصب للحق . وقد أخطأت كما أخطأ هيجل من قبل ، فى أنى نسبت آمنا الى البشرية دورا رئيسيا فى الكون ، وقد لا يكون للتطور الانسانى بأسره أهمية أكثر من العشب الذى يغطى السطح المندى » [٢] . ومنطق النسبية لا يمكن أن يسير الى أبعد من ذلك ، ولكنه مع ذلك يردد ايمان شبابه بعد أن انفصلت عنه الآمال الاجتماعية « ليس عندنا معشر المثاليين الا مذهب واحد حق ، وهو المذهب المتسامى الذى يرى أن هدف الانسانية هو ادراك أعلى للكون ، أو هو كما كنا نقول « أكبر أمجاد الله » ومثل هذا الهدف لابد من الحرص على اخفائه ، فالناس لابد ثائرون اذا عرفوا بوقوعهم تحت نير الاستغلال » [٣] .

وننتقل الى مؤرخنا الثانى : بوركهارت ، ان مدينة بازل بسويسرة التى أنجبت فى القرن الثامن عشر ايزلين البالغ الحماسة للثقافة العالمية ، أنجبت بعد ذلك بقرن يعقوب بوركهارت ، وهو مؤرخ يشبه ايزلين فى حماسته

(١) L,Antéchrist (Paris; 1873); p. 102.

(٢) L'Avenir de la science; Préface; p. xiii.

(٣) المصدر السابق ص ١٦ ــ ١٨ .

ولكنه يشك فى اتجاه العالم نحو الثقافة . كانت لغته الألمانية ، فانتظم فى جامعتى برلين وبون ، ووجد أن ألمانيا فيما بين ١٨٣٠ و ١٨٤٠ قد تركت الفلسفة والشعر الى السياسة والاقتصاد والعلوم التطبيقية ، ووجهت التأليف التاريخى وجهة سياسية وعلمية بينة ؛ وفى برلين حيث درس بوركهارت ثلاث سنين ، كان ليوپولد رانكه مسيطرا على الدراسات التاريخية كما سيطر أتباع هيجل على الفلسفة وتاريخ الفن ؛ ووازن رانكه بين الصورة التى رسمها كل من سكوت فى قصة كونتن دروارد وكومين فى مذكراته لشخصيتى لويس الحادى عشر وشارل الجسور ؛ ففضل كومين حتى بلغ من تفضيله اياه أنه عزم على « تجنب الابتكار والخيال » « والتمسك بالحقائق » ، وأخذ يبذل نشاطا كبيرا فى محاولته أن يجعل من التاريخ علما موضوعيا ، وعلمت دروسه السويسرى الشاب بوركهارت نقد مواد المصادر ، وأرسله الى باريس لدراسة الوثائق الدبلوماتية ولكن هذه الدراسة لم تعجبه فكتب الى صديق له يقول : « لا يزال التاريخ بالنسبة لى شعرا الى حد كبير » ، ولما اتجه الى تاريخ الفن وجده ينوء بالمصطلحات الفنية التى استخدمها الجماليون من أتباع هيجل . وقد اتفق هيجل مع رانكه فى عرض التاريخ باعتباره عملا من أعمال العناية الالهية تبرر فيه كل حادثة وكل ظرف على ضوء الكل الشامل لجميع الأحداث والظروف وثار بوركهارت على قبول الماضى على هذا النحو البسيط المبسط ، وخاصة على الرضا بالأحوال الجارية فى أوروبا ، فالمدن الكبرى مثل لندن وبرلين وباريس ، كانت تهدد المدن القديمة من نوع بلده بازل بالقضاء على ثقافتها المميزة لها [1] ، وبروسيا استمالت الولايات الألمانية الصغيرة الى تمجيد

(١) فى ١٨٥٩ نشر بوركهارت مجموعة من القصائد مكتوبة باللهجة المحلية فى مجلد واحد .

القوة الحربية والاقتصادية ، وكان هوى بوركهارت مع الثقافة القديمة التى يمثلها فنكلمان وجلوك وموزار وشيللر وجوته وبويكخ ومعلمه ببرلين ياكوب جريم ، فلا غرو أن سعد بالانتقال للدراسة الى بون المتأثرة بجو ضفاف الرين وأساطيره التيوتونية وعصره الوسيط ، ولكنه عاد مرة أخرى الى مشاكل الحياة الحديثة الباعثة على اليأس حين عمل فى صحيفة تصدر بمدينة بازل ، وبدأ بوركهارت ينطلق من حدود الحضارة الألمانية والعالم المعاصر وذلك بزيارته لايطاليا ١٨٤٦ فكتب منها الى بعض أصدقائه يقول : انكم معشر المولعين بالكتب تزدادون ايغالا فى هذا العصر الذى يستعصى علاجه ، أما أنا فقد انفصلت عنه هادئا انفصالا تاما ،فهربت الى جمال الجنوب وكسله ، الجنوب الذى هو فى نظر التاريخ ميت ، وهو لكونه أثرا يجمع بين الهدوء والجمال — ينعشنى — أنا الذى أضجرته المدينة الحديثة [١] ومما ثبته فى موقفه هذا حوادث عام ١٨٤٨ التى خيرت أوروبا بين حكم الطبقة الأرستقراطية البالية ، وحكم طبقة أصحاب الأموال والبيروقراطية الاشتراكية ، واتفق مع جوته فى أن الصراع الوحيد الجدير بالمشاركة فيه انما هو الصراع بين الثقافة والهمجية ، فعزم على مساندة الثقافة فردا ولو لم يعن بها أية جماعة كبيرة . وشجعه على الاستقلال بنفسه المجلد السابع من مؤلف ميشيليه فى تاريخ فرنسا (١٨٥٥) وهو المجلد الذى دفع فيه ميشيليه عن عصر النهضة تهمة اثارة الشك لا غير ، وذلك بتأكيده ما قامت به النهضة من « كشف عن العالم وكشف عن الانسان » وما ظهر فيها من شخصيات بلغت مرتبة البطولة مثل ميخائيل انجلو . وفى عام ١٨٦٠

---

(١) Jakob Burckhardt, Briefe und Gedichate an die Brüder Schauenberg (Basel, 1923), p. 68. الخطاب المؤرخ فى ٢٨ فبراير ١٨٤٦ .

نشر بوركهارت مؤلفه « ثقافة عصر النهضة فى ايطاليا » وهو بحث فى نشأة الاكتفاء الذاتى للأوروبى المبرز فى الزمن الحديث .

والفصل الافتتاحى وعنوانه : « الدولة عملا فنيا » شرح لأهمية اتصال التطور . أدى انحلال الروابط الاقطاعية الى اعتلاء الحكام غير الشرعيين للسلطة فى ايطاليا فى القرن الثالث عشر ، واحتاج هؤلاء الحكام الى مؤازرة ذوى المواهب لهم فى اغتصابهم دون نظر الى أصلهم أو مرتبتهم ، فخلعوا نقاب العصر الوسيط الذى كانت « سداه ولحمته من الايمان والتصديق الصبيانى الساذج والوهم » [١] ، ووضعوا الأسس العقلية المنطقية لشئون الادارة والمالية وفنون الحرب والدبلوماسية ؛ وأيقظ الأدب اللاتينى وأطلال العمارة الرومانية والفن الرومانى فى الايطاليين العظمة التى كانت فى بلادهم من قبل ، عظمة رجال لا هم من الجنود ولا هم من القديسين ، وأضاف هذا الاعتراف بأنواع جديدة من التفوق أهل الفنون والآداب الى جماعات الموهوبين الذين اجتذبهم بلاط الحكام غير الشرعيين ، وقد أثارت فيهم مُثُل العصر القديم التعطش للمجد بأنواعه ، وأحس الأدب قبل غيره من الفنون بهذا الاندفاع الى التفوق الفردى وكانت « الحياة الجديدة » لدانتى أول مثال منذ العصر القديم للفنية المدركة لذاتها ، والجامعة بين الصورة الخارجية والمحتوى فى كمال لا تنفصم عراه ، وبلغ تطور الصورة مبلغا كبيرا حتى ليعجز من انعدمت فيهم الطبيعة الفنية عن الحكم على أريوسطو مهما أوتوا من ذكاء وعلم .

وأصبحت الحياة الاجتماعية فى بلاط الحكام فنا من الفنون ، وهذبت آداب السلوك والحديث واللغة ، وشجعت الهواية فى شتى الفنون ؛

(١) Burckhardt, Die Kultur der Renaissance in Italien (Berlin, 1930; V, 95.

وانتشر أسلوب الحياة الأنيقة من بلاط الحكام الى الطبقة الوسطى ، فاعترف للنساء بالمساواة ، واعترف بهن أفرادا ، وشجع الأطفال على نوع من احترام الذات حمل بوركهارت على أن يتخذ منه مناسبة للسخرية مما كانت تهتم به مدرسة المؤرخين التى تزعمها رانكه ، فقال : « ان تاريخ الجلد عند الشعوب الجرمانية واللاتينية ، اذا كتب بدقة وروح فلسفية ، فان قيمته لا تقل عن قيمة بعض المجلدات من البرقيات والمفاوضات الدبلوماسية .. فيبحث الباحث مثلا عن : متى أصبح العقاب البدنى اجراء يوميا عند الأسر الألمانية ، وما هى المؤثرات التى أدت اليه ؟ لابد أن التأديب الجسمانى ظهر بعد أن انقضى زمن طويل على ما أنشده والترفون فوجلفيده: لا يستطيع أحد أن يقوّم الطفل بالعصا ، وقد زال ضرب الاطفال فى ايطاليا منذ وقت مبكر جدا ، والطفل الذى بلغ السابعة من عمره لا يضرب » [١] وفى عصر النهضة كان الزى يعبر عن الفردية فى حين « أن عصرنا هذا يزيل الفروق ويوحد الأزياء بين الرجال على الأقل ، معتبرا هذا التوحيد أرفع القواعد وبذلك يتخلى عصرنا عن شىء أكبر مما يدرك ولكنه يوفر لنفسه وقتا كبيرا ، وهذا يرجح حسب مقاييسنا المتبعة فى الأعمال على كل المضار الأخرى » [٢] .

الا أن أسلوب الحياة الشاملة شمل كذلك الأخذ بالثأر ، وهيأ خصب الخيال للايطاليين فضائل عرفان الجميل والظرف ، ولكنه جعل منهم أيضا مقامرين ومثيرين للفتن ، وأفسحت الفردية المجال كاملا للعبقرية فأظهرت كذلك أمساخا لم تقم أنانيتهم وزنا للانسان أو لله ، ولم يخف بوركهارت

---

(١) المصدر السابق ص ٢٨٨ هامش ٢ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٦٤ .

قط الجانب المظلم من عصر النهضة أو يتردد فى اصدار الأحكام الأخلاقية عليها كما فعل صديقه نيتشه الأصغر سنا ، فأبرز استمرار التنجيم جنبا الى جنب مع العلم الحديث ، والتردد بين الانسانية والعالم الآخر باعتبارهما مميزين لعصر من عصور الانتقال ، ولكن هذا العصر كان أسبق فى تقديم المثل لأحسن ما فى الانسان الحديث « كان اتجاه هذا العصر الى العالم اتجاها جديا رفع من شأنه الشعر والفن ؛ والعقل الحديث يشعر بضرورة من الضرورات الشريفة وهى أنه لا يستطيع أن يتخلص من هذه الأشـياء وأنه لا يمكن أن يقاوم انجذابه الى البحث فى شئون الناس والطبيعة ، وهو يعد قيام هذا البحث تأدية لرسالته [1] وقال پيكودلا ميراندولا : ان الانسان الفرد لا يستطيع فقط أن يجذب الله اليه فى أثناء صلاته ، ولكنه يستطيع أيضا أن يرقى بالحب الى اللانهاية الالهية فى الكون .

ويوضح مؤلف بوركهارت « ثقافة عصر النهضة » من حيث شكله هذا اللون الفردى ، والتوافق والتوازن اللذين أثنى عليهما الثنـاء الجم فى الحيـاة ، فهو قد عارض اهتمام الألمان حديثا بنشر كل تفصيلات الأدلة برهانا على الدقة ، وذلك لأن بوركهارت يعمل على بعث الأفكار أكثر مما يعمـل على استيعاب درسها ، وكان يقنع باختيار نواحى الموضوع التى يهتم بها اهتماما كبيرا ، تاركا ما عداها لغيره ، واذا ما قلت الأدلة المحسوسة اللازمة لبعض الموضوعات الهامة فانه يحتفظ بحقه فى الحدس والتخمين وعبر عن هذا بعبارات تذكرنا بأقوال نيبور ورينان : « ان الظواهر المؤيدة التى نشير اليها قليلة العدد وهنا يحس المؤلف — اذا أحس بشىء ما فى هذا النطاق — أنه يدخل فى ميدان التخمين المضطرب ، وأن ما يطفو أمام ناظريه

---

(١) المصدر السابق ص ٣٥٤ .

ويبدو له ظلا دقيقا واضحا فى التاريخ الروحى للقرنين الرابع عشر والخامس عشر قد يندر أن يقر رجل آخر بأنه حقيقة ثابتة ، ذلك أن الظاهرة الخاصة بازدياد وضوح روح الشعب تدريجا هى ظاهرة تختلف باختلاف الملاحظين لها ، والزمن كفيل بالنقد والحكم » (١) .

* * *

كانت انجلترا قد نجت وحدها تقريبا من دون الأمم الغربية من الثورة فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وعزت الطبقات الحاكمة فيها هذه النجاة الى حد كبير ، الى تأثير المذهب الانجيلى وروحه المحافظة على الطبقات الدنيا ، ووجد المؤرخون أدلة عديدة لتأييد هذا الاعتقاد ؛ من ذلك أن الجماهير كان لديها من الأسباب القوية ما يدفعها الى الثورة ، حتى لقد ساد بريطانيا رعب كبير من أى تغير بعد انتصارها الباهر فى واترلو ، ولما زالت فرصة التأثر بالآراء الثورية الفرنسية انتقل هذا الرعب الى خطر أدق ، وهو ما يمكن أن يحدثه البحث الألمانى فى التاريخ من اضطراب فى عقول الشعب الانجليزى باخراجه التوراة من دائرة الأشياء الثابتة غير المتغيرة . وقد دهش نيبور حين وجد عام ١٧٩٩ أن الألمان اشتهروا فى أدنبرة بالالحاد أما الترجمة الانجليزية لمؤلفه فى تاريخ روما والتى صدرت بين سنتى ١٨٢٨ ، ١٨٣٢ فانها تعرضت لنقد كبير على الرغم من أن مترجميها هير وثيرلوال كانا من رجال الدين الانجيليين ، وذلك خوفا من أن يؤدى فحص المؤلف لنشأة روما الى فحص مماثل لنشأة المسيحية (٢) ولم تشجع هذه الحال التى كان عليها الرأى العام المؤرخين الانجليز على دراسة الجماعات البدائية ودراسة الأصول والتطور . وسارت الدراسات الخاصة بالتطور فى العلوم

---

(١) المصدر السابق ص ٢١٩ .

(٢) من بين القلائل الذين رحبوا بأبحاث نيبور النقدية الكاتب المبرز Thomas Babington Macaulay

(الطبيعية) بحذر شديد وحرص العالم الجيولوجى ليل على عدم بيان النتائج الواسعة المتضمنة فى نظرية النسق الموحد .

وتمسك معظم المثقفين الانجليز حتى فى أواسط القرن التاسع عشر بالفكرة غير التاريخية عن الكتب المقدسة ، ويوضح هذا التمسك فى تطرفه ما ذكره أدموند جوس عن والده ، وكان عالما مشهورا من علماء الحيوان ، وكذلك عن والدته . قال : « كانت والدتى كما كان والدى يريان أنه ليس فى أى جزء من أجزاء الكتاب المقدس شىء رمزى أو تلميحى ، اللهم الا ما نص على أنه من « الأمثال » أو الصور ، وقد سارا فى هذا الشوط الى مداه ، ولم يقدرا تغير الأحوال والأزمان والأجناس حتى أنهما عند قراءتهما للنصائح الموجهة الى حديثى العهد بالمسيحية من أهل كورنثة كانا يظنان أن ما كان يصلح لأولئك الأخلاط من أهل آكايا الذين اعتنقوا المسيحية فى القرن الأول الميلادى قد يصلح أيضا للانجليز رجالا ونساء فى القرن التاسع عشر . وتمثل هذا بشكل غريب فى اهتمامهما الكبير بما سمى (بتفسير النبوة) ، ولا سيما بشرح الأقوال الغامضة الواردة فى سفر الرؤيا . وقد وجدا فى استعراضهما النزيه للكتاب المقدس هذه المجموعة من الرؤى المقدسة الجليلة التى تجمع بين الشؤم والغموض ، ولكن نيتهما لم تتجه الى اعتبارها مجرد مثيرات للخيال أو أشياء مذهبية مبهمة صيغت فى رموز ؛ ولما قرآ عن الأختام المحطمة ، والآنية المنسكبة ، والنجم المسمى بالافسنتين [1] الذى هوى من السماء ، والرجال الذين

(١) الافسنتين أو الابسنت نبات شديد المرارة يدخل فى صناعة الخمر . وجاء فى سفر الرؤيا الاصحاح الثامن الآيتين ١٠ — ١١ «وبوق الملاك الثالث فسقط من السماء كوكب عظيم متقد كالمصباح ووقع على ثلث الأنهار وعلى عيون المياه ويدعى الكوكب افسنتين وصار ثلث المياه افسنتينا ومات كثيرون من المياه لأنها صارت مرة .

كانت شعورهم كشعور النساء وأنيابهم كأنياب الأسود ، فانهما لم يعترفا قط بأنهذه الصور العقلية لها طابع شعرى ، ولكنهما اعتبرا أنها عبارات ثابتة تصف بألفاظ حريصة الحوادث التى ستقع والتى يمكن التعرف عليها حين وقوعها » [١] .

ولهذا جاء انطلاق الروح التاريخية بعد فوات أوانه أشــبه بانفجار السدود . كان لظهور كتاب أصل الأنواع . (١٨٥٩) ومركز الانسان فى الطبيعة لهكسلى (١٨٦٠) ومقالات وآراء نقدية (١٨٦٠) لبعض رجال الدين الانجيليين ممن قبلوا كثيرا من النتائج التى وصلت اليها الدراســة العلمية الأوروبية للكتاب المقدس فى وقت واحــد تقريبا أثر فى الجمهور الانجليزى أشبه بأثر ڤولتير فى قراء بوسويه ؛ وتكررت فى انجلترا المعارك القديمة التى حدثت منذ قرن ، ونجم عنها خطر هدم السلطة الأدبية للكتب المقدسة ، وفقدان جمالها وعظمتها الأدبية ، وتدخل ماثيو ارنولد بين الطرفين المتنازعين لمنع وقوع تلك الكارثة ، وكان قد ورث النظرة التاريخية عن أبيه توماس أرنولد من رجال الدين والأساتذة البــارزين والذى أقر فى مؤلفه « تاريخ روما » (١٨٤٢) بالنتائج التى وصل اليها نيبور ، وكان ابنه على معرفة شخصية بميشيليه ورينان ، وقرأ بحوث التوراة التى قام بها العلماء الألمان ألذين اعتمد عليهم رينان ، وتألم لسخرية رينان من تخلف التفكير الانجليزى فى التاريخ ، ولكنه كان أكثر قلقا لغلبة التمسك بالحرفية وتأثير ذلك فى الشــعر ، لأن الشعر لا يزدهر اذا لم يفهم الناس الرموز والاستعارات والأساطير الدينية وغير الدينية ، والتوراة اذا أخذ كله على أساس أنه حقيقة علمية وعقيدة ثابتة أصبح أكبر مصدر لسوء الفهم .

(١) Edmund Gosse, Father and Son, 5th ed. (New York; Charles Seribner's Sons, I925), pp. 70-72. مقتبس باذن من الناشرين .

وفرق ماثيو أرنولد فى مؤلفه « الأدب والعقيدة » (١٨٧٣) بين نوعين من معالجة الكتب المقدسة ، وهما : المعالجة العقيدية الجامدة الجافة الآلية ، والمعالجة الأدبية التى ترى فيها مصدرا لخير ما دوّن عن تطور الادراك الدينى والخلقى. وقامت مسز همفرى وارد ابنة أخى ماثيو ارنولد ، وكانت تقوم بدراسة المسيحية فى اسبانيا قبل شرلمان ، بنشر وجهة نظره بين جمهور أكبر عددا ، ففى قصتها (روبرت الزمير) نرى كاهنا انجليزيا شابا يصدم بالنقد التاريخى للتوراة ، ثم يقبله بعد صراع داخلى ويشعر بضرورة تركه الكهنوتية والانجيلية ليقدم الآراء الحديثة فى المسيحية للطبقات العاملة ، ويدل بيع مليون نسخة تقريبا من هذه القصة فى البلاد الناطقة بالانجليزية فى مدى العشرين السنة التى تلت نشرها عام ١٨٨٨ ، على نمو الحاسة التاريخية نموا سريعا فى نهاية القرن التاسع عشر.

ولقصة روبرت الزمير شبيه فى القرار الذى اتخذه صديق للمؤلفة هو جون ريشارد جرين بترك الكهنوتية ليؤلف فى التاريخ . ولد جرين وتعلم باكسفورد أجمل المدن الانجليزية الباقية من العصر الوسيط ، وسرعان ما اهتم بالآثار المحلية التى ترجع الى العصرين الرومانى والكلتى ، وفيما هو يتم دراساته بالجامعة اتفق داروين ، وعلم طبقات الأرض ، والنظرة التاريخية الى التوراة على ارجاع أصل الانسان الى ما قبل ٤٠٠٤ ق . م بكثير ، وهو التاريخ الذى حدده كبير الأساقفة أشر فى تأريخه . وفى خطاب كتبه جرين الى زميله فى الدراسة دوكنز الذى أصبح فيما بعد أستاذا لطبقات الأرض يصف رد توماس هكسلى المفحم على محاولة أسقف اكسفورد « تحطيم داروين » ويعتبر الكشف عن بقايا الثدييات فى

طبقات العصر التریاسی بالقرب من باث «حلقة عادية فىالسلسلة المعتادة لحياة الحيوان» «وهو كشف يعزز آراء داروين بشدةكما يعزز الذوق السليم»[١].

وفى العام التالى كشف عن بقايا انسانية فى كهف بسومرستشير ففتح ذلك مجالا مثيرا لما قبل التاريخ ، وكتب جرين الى دوكنز بأسلوب يجمع بلطف بين الدعابة والجد : « انى أعتقد أن المقابر المستديرة خداعة مهيبة تدعى لنفسها قدما لا يرجع فى الواقع الى أقدم من الدولة الرومانية الأخيرة ، ولكن الكهف بمن فيه من الكلت اذا أحسن درسه فانه قد يلقى فيضا من الضوء على هذا الميدان الذى لابد أن يقتحمه العلم فى نصف القرن المقبل أى عصر أصل الانسان ـ ولست أفترض أن كلمتى هذه ستؤثر فى خططك الموضوعة المرتبة ولكن مهما كانت أهمية محور الصخور المحدبة ، فان الانسان وتاريخ الانسان فى رأيى أفضل منها جميعا ، ولست أعد أى أمر من الأمور الجيولوجية غريبا عنى ولكن الأحياء البحرية الأولى هى أسماك محارية ونجمية فى حين أن الانسان هو الانسان »[٢].

بهذه النظرة الحماسية الى الانسانية ، وبالادراك الواقعى لابن الحائك الفقير أصغى جرين لنداء الاشتراكية المسيحية الذى بعثه موريس وكنجزلى فدخل الكنيسة الانجيلية وان يكن قد اعترف باقباله على قراءة : « جوته وشللر بدلا من پالى وبيرسون — وانى أعرف من أيهم تكون الدراسة الحقة للاهوت » ، ولكنه لم يلبث بعد خبرة عدة شهور فى منصب كاهن بايست لندن أن تملكه اليأس من تأثير الكنيسة فى الجماهير : « جئت الى لندن ممتلئا بالآمال والمثل العليا فانهارت ، ووجدت نفسى وحيدا تماما

(١) Leslie Stephen, ed.; Letters of John Richard Green (London; 1901); p. 43; الخطاب الى W. Boyd Dawkins فى ٣ يولية ١٨٦٠ .

(٢) المصدر السابق ص ٧٤ ؛ الى دوكنز ١٨٦١ .

دون صديق فى هذا العالم المختلط ، ثم زحف الظلام والبؤس فنهضت وهربت الى المتحف البريطانى وعدت الى قراءتى التاريخية التى تخليت عنها فى نوبة الحماسة الدينية التى دفعتنى الى الدخول فى سلك الكهنوت ، ومنذ تلك اللحظة لم أتخل عنها قط » (١) وقام بالكتابة عن أسطورة القديس باتريك وغير ذلك من الموضوعات الكلتية فقاده ذلك الى قراءة تييرى وميشيليه ، وسارت هذه الكتابة فى نفس الوقت جنبا الى جنب مع دراسة أصول المسيحية ونشأتها فى مؤلف رينان ، وكان قد قرأ كتابه حياة المسيح فى نفس السنة التى ظهر فيها (٢) ، وفى مؤلفات ايوالد وبور الألمانيين ، وكان جرين مقتنعا بالانسانية الكاملة للمسيح ثم ساءت صحته وزاد من سوئها حماسته فى تأدية عمله الدينى فقرر اعتزال الكنيسة عام ١٨٦٩ ليتفرغ للتأليف فى تاريخ انجلترا .

وقد نشأ عمله هذا من فكرته الأولى التى كانت ترمى الى كتابة تاريخ الكنيسة الانجليزية .

« اتسع المجال كلما سرت فى القراءة والتفكير ، فمن ناحية لم يكن فى امكانى أن أطلق كلمة « كنيسة » على أى فرع خاص من فروع الجماعة المسيحية فى انجلترا ، وذلك لأن الوحدة التاريخية كلها قد زالت بعد حركة الاصلاح الدينى .. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فانه لم يكن فى وسعى أن أصف الكنيسة من وجهة النظر الشكلية والخارجية البحتة ، وهى الوجهة التى اتخذها المؤرخون الكنسيون عامة . لقد كان تاريخ الكنيسة

(١) المصدر السابق ص ٤٥٥ .

(٢) رأى المؤرخ ستبز القس الشاب (جرين) وهو يقرأ « حياة المسيح » فى أثناء سفره بالقطار فاستعارها منه ليبعد عنه شرها ، ولما طالب جرين باعادتها قال له ستبز أنه لسوء الحظ ألقت بها الخادم فى سلة المهملات .

بالنسبة الىّ هو تاريخ الحضارة المسيحية ، وكان لابد للوصول الى معرفة ذلك من معرفة تامة بالتاريخ المدنى (غير الدينى) للفترات التى مررت بها ، وكان لابد أيضا من البحث فى تقدم الفكر والدين والحرية بل وفى التقدم المادى لانجلترا ؛ ولم يسعفنى فى ذلك أى تاريخ موضوع ، بل انى على العكس قد تولتنى الدهشة من اغفال التواريخ كلها دون استثناء للموضوعات الحقيقية التى تزعم أنها تعالجها ، وهى موضوعات التطور القومى ونمو بلادنا . فكان لزاما علىّ اذن أن أكشف عن تاريخ انجلترا بعد أن قمت ببحوثى وطرحها جانبا ، والاقتصار على موضوع أضيق تعد معالجته بعد القرن السابع عشر غير ممكنة من الناحية الفنية وغير تاريخية» [1] وعارض جرين فى الخطة التى وضعها لتاريخه معاصريه الأكبر سنا ممن درسوا فى اكسفورد مثل فريمان وستبز وجاردنر الذين كانوا يكنون كثيرا من الاعجاب لرانكه والمدرسة الجديدة الواقعية من المؤرخين الألمان ، ولكن معارضته هذه كانت معارضة لطيفة ، اذ أنه احترم أمانتهم ودقتهم فى نطاق مجالهم المقيد وحاول الاستفادة من انتقاداتهم .

وكان على صداقة خاصة بفريمان وهو أشدهم تعلقا بألمانيا ، وقد عارض فريمان فى كتابه تاريخ الفتح النورماندى (١٨٦٨ — ١٨٧٩) تيبرى بأن قلل من أهمية الكلت والفرنسيين فى دماء الشعب الانجليزى وتاريخه ، وبدأت صلة الصداقة بينهما فى التوثق باعجاب فريمان ببحث جرين عن اقليم سومرستشير فى عهد الرومان ؛ وهو بحث قرأه فى اجتماع للجمعية الأثرية لاقليم سومرستشير عام ١٨٦٢ وكتب جرين فى يومياته يقول : « ان فريمان هو المجادل الأول فى هذه الاجتماعات ولكن ليس هناك من

---

(١) Letters of John Richard Green, p. 103. الخطاب الى دوكنز فى ١١ سبتمبر ١٨٦٢ .

هو أنفع لعلم الآثار من المجادل الأثرى » ولكنه مع ذلك هاجم كتابا مدرسيا كان فريمان يقوم باعداده .

« ان الذى نود معرفته فى التاريخ انما هو التمييز بين الحقائق الكبرى والحقائق الصغرى ، وانى أخشى أنك تدفع تلاميذك الى البحث عن الأمور الثانوية واهمال موضوعات القانون التى هى أكثر أهمية ، فهل نجد فى هذا الكتاب شيئا عن هوارد ، أو اصلاح السجون ، أو الحركة الوسلية ، أو عن كشوف القبطان كوك ، أو قنوات برندلى ، أو آلة وات البخارية ، أو نهضة الفن على يد رينولد وجينسبرو ، أو نهضة الشعر على يد بيرنز ووردسورث ، أو استعمار استراليا وغير ذلك » ؟ [1] .

وقد عارض بمثل هذه الصراحة جمع فريمان بين المغالاة فى الاهتمام بالشئون السياسية ، والمغالاة فى الاعجاب بالجرمان : « كانت الديمقراطية الفلورنسية تتألف من مجموع الناس ، أما الحرية التيوتونية فانها غالبا كانت افراط نمو الانسان فى ناحية واحدة فقط وهى السياسية ، فى حين كانت الحرية الايطالية (وانى لأحس بالجواب الذى تتضمنه كلمة كانت هذه) نمو الانسان بأكمله فى النواحى السياسية والعقلية والدينية والفنية . وفى رأيى أن صياح جماعة من الفلورنسيين بصوت أجش فى ميدان مدينتهم (البياتزا) هو أمر أعظم وأنبل من جميع الأباطرة الذين تنسموا الحياة » [2] . ولما قارب مؤلف جرين الانتهاء دافع عن : « اغفاله أو حذفه للحقائق التى

(١) المصدر السابق ص ٣٠٤ ؛ الى فريمان فى ٢٧ يونية ١٨٧١ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٠٩ ؛ الى فريمان فى ١٧ نوفمبر ١٨٧١ . وتبين مؤلفات جرين الأخيرة وهى « تكوين انجلترة » (١٨٨٢) « وفتح انجلترة » الذى لم يتمه لموته ١٨٨٣ ، وكلاهما عن الحقبة الانجلوسكسونية ، تأثره تأثرا قويا بفريمان ومدرسته .

تبدو لى عديمة القيمة التاريخية . انى أقدم التاريخ الانجليزى بالصورة الوحيدة التى يمكننى فهمها والاهتمام بها ، ولكن لا يستتبع ذلك أن يجدها غيرى شيئا مفهوما أو باعثا على الاهتمام [١] . وعوض جرين بالسعة والتنوع ما عمد اليه من التعسف فى الاختيار ، وكتب فى عام ١٨٦١ الى دوكنز بشأن مقال عن جلاستنبرى : « وقد وجدت أن المراجع فى أسفل الصفحة الأولى هى سفر التثنية ، وتاريخ فرنسا لميشيليه ، والالياذة — وهى مجموعة جديرة بقراءتى الجامعة لكل شىء » [٢] .

واضطر جرين — وهو مهدد بالموت بذات الرئة — الى تأجيل مشروع مؤلف تاريخى من عدة مجلدات الى ما بعد أن يتم فى سباقه ضد الزمن تأليف تاريخ موجز ، ولم تضعف الضرورة عزمه قط على جعل كتابه الصغير عملا فنيا . وفى أثناء توليه منصبه ككاهن فى حى ايست لندن أثر قبح الصفوف الطويلة من المنازل المتماثلة على نفسيته ، وغمره السرور لحماسة رسكين لتربية الفقراء تربية جمالية » وبعد أن شاهد ڤيرونا والبندقية فى السنة التى ترك فيها الكنيسة رجع الى انجلترا « باحساس جديد بجمال العالم ، وعزم على الذهاب الى ايطاليا كل عام حتى نهاية حياتى فقد سحرتنى هذه البلاد كما سحرت تيودوريك وآل أوتو » [٣] . ولقد بيّن ميشيليه ورينان الى أى حد يمكن أن يصل التأليف التاريخى الى جمال الشكل والأسلوب وروعة الخيال . وأجاب جرين على اعتراضات فريمان على تصوره لنشأة البريطانيين بقوله : لابد أن تغفر لى تخيلاتى بين الفينة والفينة ، فانه يجب بذل الجهود فى سبيل الوصول الى شىء من النظام

(١) المصدر السابق ص ٣٥٧ ، الى فريمان فى ١٦ سبتمبر ١٨٧٣ .
(٢) المصدر السابق ص ٨٤ ، الى دوكنز فى ٢٦ يونية ١٨٦١ .
(٣) المصدر السابق ص ٢٣٤ ؛ الى فريمان فى نوفمبر ١٨٦٩ .

فى تلك الفوضى الضاربة فى التاريخ القديم كما يكتبه صاحبك لاپنبرج وأمثاله (١) . ولو أدى ذلك الى المجازفة باثبات تخيلات ، واعترف جرين قائلا : « انى أشعر مثل جيبون بكراهية ونوع من البغض الطبيعى للهوامش ، ان مجرد شكل الصحيفة ومنظرها شىء هام بالنسبة لى » (٢) . ولذلك فانه لما أتم تاريخه الموجز قدم جــزءا منه لنشره مقدما فى بعض الدوريات : « لن أستطيع الحكم على صلاحيته للقراءة — وهذا هو الأمر الذى أعنى به أكبر عناية — حتى أراه مطبوعا . ويظن كوك (محرر صحيفة The Saturday Review) ان سبق الانسان بابداء الرأى عن نفسه على هذا النحو أمر سيىء ، ولكنى أتفق مع الفرنسيين فى هذا الصدد اتفاقا تاما ، كما اتفق معهم فى معظم المسائل الأدبية . ويبدو لى أنه يجب علينا فى مسائل الفن الأدبى كافة أن نجلس عند أقدام القادة الفرنسيين لنتعلم منهم (٣) .

وظهر التاريخ الموجز للشعب الانجليزى فى عــام ١٨٧٤ وله مقدمة أوضحت أوجه اختلافه عن تواريخ انجلترا السابقة عليه ، ذلك أن جرين لم يرد أن يكتب « تاريخ الملوك الانجليز والفتوح الانجليزية ، وانما أراد أن يكتب تاريخ الشعب الانجليزى » . وأن يبرز التطورات الدســتورية

---

(١) المصدر السابق ص ٢٥٠ ، الى فريمان فى أبريل ١٨٧٠ . وقد ترجم مؤلف Johann Martin Lappenberg فى تاريخ انجلترة (1834-37) Geschichte von England الى الانجليزية بعنوان تاريخ انجلترة فى عهد الملوك الانجلوسكسون (١٨٤٥) ؛ وكتب هنرى آدمز الى هنرى كابوت لودج من لندن ١٨٨٠ يقول : « ان چون جرين من أقرب أصدقائى هنا وهو ينعى عليكم أسلوبكم الألمانى وهو يقول ان مقالى سيىء حقا أما أنتم فمجانين صراحة . »

Letters of Henry Adams, ed. Worthington Chauncey Ford (Boston, 1930)p. 323.

(٢) المصدر السابق ص ١٧٩ ، الى فريمان فى ٢ مارس ١٨٦٧ .

(٣) المصدر السابق ص ٣٨٤ ، الى فريمان فى ١٨٧٤ تقريبا .

والعقلية والاجتماعية ـ « والشخصيات التى لم تلق عناية بها فى التـاريخ المعروف كشخصية المبشر والشاعر والطابع والتاجر والفيلسوف » قائمة جنبا الى جنب مع الجندى والسياسى . وعلى هذا فان كلمة « الشعب » التى جاءت فى عنوان مؤلف جرين تقربه من ميشيليه ، الا أن ميل جرين كان على الأرجح الى أسلوب رينان فى تحقيق التوازن بين الأعمال الفردية والأعمـال الجماعية والشخصيات العظيمة عنده تمثل وتجسم الظواهر الاجتماعية ، فالشاعر شوسر هو الثقافة الانجليزية الوسيطة فى ازدهارها والملكة اليصابات تمثل الخلق فى عصر النهضة ، وفرنسيس بيكون العلم الحديث ، وملتون هو البيوريتانية فى أحسن صورها .

وامتنعت انجلترا على الغزو منذ عام ١٠٦٦ ، وأصبحت بذلك أشهر مثل حديث للاستمرار التاريخى عند شعب عظيم يستهدف تحقيق النتائج المنطقية المترتبة على صفاته الخلقية ، وتتبع جرين النمو السياسى المستمر منذ الماجنا كرتا الى الكومنولث فى أيام كرومويل وثورة ١٦٨٨ وقانون الاصلاح عام ١٨٣٢ ، والثوراث الدينية المماثلة منذ وكليف الى المعتدلين والانجيليين ؛ وكانت انجلترا أول الأمم التى وصلت الى تحقيق الراحة والرفاهية الداخلية ، ولم يكن ذلك نتيجة الأمان من الغزو بقدر ما كان تعبيرا عن النزعة العملية المادية التى دفعت لويس الرابع عشر قبل نابليون الى وصف الانجليز بأنهم « شعب من أصحاب الحوانيت » ، والتى جعلت من انجلترا مهد الثورة الصناعية والتجارية ـ أما الكبرياء الوطنية والفخر « بالقدرة السياسية الموروثة التى يتمتع بها العقل البريطانى » [١] وبالتوفيق والتسامح الدينى اللذين مهدا للحركة فى سبيل المساواة الاجتماعية وحرية

(١) John Rishard Green. A Short History of the English People (London 1882), p. 681 (Chap. Sec. 4).

العبادة بأقل ما يمكن من العنف والثورة ، فانه لم يحجب عن عينى جرين عجز هذا العقل عجزا يبعث على الأسف عن تفهم العقول التى تختلف عنه كالعقل الايرلندى ، أو التغاضى والرضا عن الواقع دون جرأة على بحثه وهما الهاوية التى تردى فيها برك نفسه على الرغم من تعمقه الفلسفى . وأنذر جرين « بحرب الطبقات ، والفصل الاجتماعى بين الغنى والفقير ، وبين أصحاب العمل والعمال » [1] وهى آثار ناجمة عن الالتقاء المحتوم بين الثورة الصناعية ورد الفعل المناهض للثورة الفرنسية . وكان جرين أكثر توفيقا فى وصف الأدب والعلم باعتبارهما أرفع تعبير للعقل القومى ، فالأدب الانجليزى النورماندى كشف عن الروح التى طالبت فيما بعد بالعهد الأعظم . أما سبنسر وشكسبير فهما القمة التى بلغتها انجلترا حين ظهورها كدولة عظمى .

والحكاية عند جرين — كما هى عند تييرى — هى جوهر التاريخ وهى تكتسح فى طريقها الذى لا يفتر الأشكال السياسية المعقدة والاحصاءات الاقتصادية ذاتها . ولجأ جرين الى الأقوال المميزة المقتبسة من أقوال كثير من الشخصيات التاريخية ، فخفف ذلك من ثقل وطأة الأسلوب عند بعض كبار منافسيه مثل هيوم وتحليله ووصفه المجرد ، ومثل تعبير ماكولى عما اقتبس بعباراته المملة المبهرجة أحيانا ، وعلى الرغم من أن تاريخ انجلترا أقل بهاء وأقل عنفا من تاريخ فرنسا ، فقد استطاع جرين أن يقدم لنا الجانب الدرامى من تباين النماذج الاجتماعية كالتباين بين الانجليزى الاليصاباتى والبيوريتانى ، وفى الصور الرائعة للأفراد مثل بيد ، ودنستان وسير توماس مور ، والملكة اليصابات ، وبيكون ، وبت الأصغر ، وفى ذلك أكمل تحقيق لفكرة هردر الشاب عن التاريخ باعتباره صورا وأعمالا .

---

(١) المصدر السابق ص ٧٧١ (الفصل العاشر القسم الرابع) .

وتعجل جرين طبع مؤلفه فضيق مجال فصوله الختامية ، ولذلك لا نجد فيه أثرا للأدب بعد ملتون ، ولا يكاد يتطلع الى الثورة الصناعية ، ولكن جرين غالب الموت زمنا هيأ له أن يضع مؤلفا أكثر تفصيلا فى تاريخ الشعب الانجليزى (١٨٧٧ — ١٨٨٠) ووصل فى تحقيق خطته الكاملة الى معركة واترلو فعرض فى مؤلفه الأوسع دريدن باعتباره « أول من طبع فكرة الأدب فى أذهان الانجليز » [١] وأثنى على دفاع پوب عن مستويات الفن ضد محاولة تبسيط الأدب لسد الحاجة الشعبية المطردة . وقرر أن التفوق فى الصناعة والتجارة كان سبب تغلب انجلترا على نابليون فأصبحت أقوى دولة فى العالم ، وألقى جرين نظره الى ما بعد واترلو ؛ أى الى حين أصبح الثوار من المستعمرين الأمريكيين « أهم فروع الشعب الانجليزى » وقد يحذو البريطانيين فى المحيط الهادى حذوهم فى الاستقلال ، وهكذا كبرت قصة الشعب الذى ربى صفاته الخلقية فى خلال قرون طويلة من الانعزال وأصبحت ومجالها العالم بأسره . « ان النظم الانجليزية واللغة الانجليزية والفكر الانجليزى ستصبح كلها أهم سمات الحياة السياسية والاجتماعية والعقلية للجنس البشرى » [٢] .

الا أنه على الرغم من بلوغ هذه الذروة فى سعة الخيال فان المؤلف الذى توسع فيه جرين لم يقدر له التفوق على تاريخه الموجز ، واعترف جرين بهــذا الاحتمال فى يومياته لعــام ١٨٧٧ : ان فى الكتاب الأول الذى تؤلفه لهيبا وحماسة لا يرجعان أبدا ؛ كنت أحس كأنى فارس شاب أتحدى العالم بمنهجى الجديد ، وقد بقيت للنفير أصداء فى فصل بعد فصل [٣] .

---

(١) المصدر السابق ؛ الكتاب الثامن الفصل الرابع القسم ١٣٨٣ .
(٢) المصدر السابق ؛ الكتاب التاسع الفصل الثانى ، الفقرة الأخيرة .
(٣) Letters of John Green, p. 447.

الجزءُ الثالثُ

نحو إنشاء مركب جديد

الفصل الثامن

التاريخ من حيث هو علم

كان انتصار ألمانيا على الدانمارك والنمسا وفرنسا الذى انتهى بتتويج الامبراطور الألمانى فى فرساى عام ١٨٧١ نكبة ثقافية وسياسية لأوربا ؛ فقد هيأ لألمانيا مؤخرا مكانة ثقافية لم تعد جديرة بها ، اذ كان موت جوته وهيجل عام ١٨٣٢ ، ونيبور عام ١٨٣١ ؛ وموللر عام ١٨٤٠ ؛ نذيرا بانتهاء فترة من الابتكار القوى فى الأدب والفلسفة والتاريخ . قال كارل هلبراند فى ١٨٦٤ فى ختام عرض للدراسات الأدبية والتاريخية : « ان الآراء المبتكرة الجريئة التى ميزت العباقرة الذين شقوا سبلا جديدة للعقل الانسانى وغيروا المعرفة ، وتلك الكشوف الجميلة ، أو بعبارة أدق تلك الالهامات والبدايات التى ميزت القرن ، يبدو أنها قد انتهت » [١] .

وقد أبدى كارل دلثى أساه لما أدت اليه الدراسات المتخصصة من سعة تفصيلات الحقائق الكثيرة وتراكمها ، حتى انه لم يجسر أحد على اتمام ما شرع فيه موللر من وضع تاريخ عام لبلاد اليونان ، ووجد دلثى نفسه فى عام ١٨٩٧ يتلفت وراءه الى « ربيع دراساتنا ناظرا اليه من فترة زاد فيها النضج واختلس منها صيفها الذهبى » [٢] . وحذر نيتشه مواطنيه من أن

---

(١) Karl Hillebrand, Etude sur Otfried Muller et son école historique de la philologie allemande (وهو يقدم) L'Histoire de la Littératurel Grécque par Otfried Muller (Paris, 1883), 1; 90-91.

(٢) Karl Dilthey, Rede zur Saekularfeer Otfried Mullers (Göttingen, 1898), p. 40.

انتصاراتهم ترجع الى « النظام العسكرى الدقيق ، والشجاعة الطبيعية ، وقوة الاحتمال ، وتفوق القادة ، والاتحاد والطاعة فى صفوف التابعين ؛ أى انها ترجع بعبارة موجزة الى عناصر لا علاقة لها بالثقافة » [١] .

الا أن هذا القدر الضخم من الانتاج العلمى الألمانى وتنظيمه حجب هذا الفراغ عن عيون قلّ ابصارها وكثر عددها ، وتمثلت ضخامة الانتاج ودقة التنظيم فى التأليف التاريخى فى ليوبولد رانكه الذى ظل ينشر أكثر من اثنتين وستين سنة . وكسب رانكه مكانة قومية وتقلد كرسى التاريخ ببرلين ، وكان ذلك بأول كتبه وهو تاريخ الشعوب اللاتينية والجرمانية (١٨٢٤) وقد شق الكتاب الطريق للانتاج الضخم بتحديده المشهور لهدفه فى بساطة خداعة ، قال : ينسب الى التاريخ وظائف : الحكم على الماضى ، وتعليم المعاصرين لخير المستقبل . الا أن هذا الكتاب لا يطمع الى مثل هذه الأغراض العالية فهو لا يتولى الا بيان الأشياء كما حدثت فعلا [٢] . وبيّن أن هذا يمكن القيام به باخضاع مصادر المعلومات المدونة الخاصة بالحوادث الماضية لبعض الاختبارات التى تشبه القواعد الموضوعة لمواجهة الشهود بعضهم ببعض فى دور القضاء . واذا ما قام المؤرخ بهذه الاختبارات بنفس الروح الموضوعية وعدم التحيز اللتين يتميز بهما العالم الطبيعى فان الحقيقة التاريخية لابد أن تظهر . وقد اعتمد هذا التظاهر بالتواضع من جانب رانكه على افتراض امكان الحصول على المعرفة الدقيقة فى ميدان يصعب جدا ان لم يكن يستحيل فيه الوصول اليها ، وكان من الممكن

---

(١) Friedrich Nietzsche, Thoughts out of Season ترجمة A.M. Ludovici (New York, 1924), p. 4.

(٢) Leopold von Ranke, Geschichten der romanischen und germanischen Völker, 2d ed. (Leipzig, 1874); viii. مقدمة الطبعة الأولى (اكتوبر ١٨٢٤)

أن ينكشف أمره لو أن المعجبين به كانوا قضاة أكثر دراية بالحيـاة من الأساتذة الألمان . وفى الواقع نجد أن رانكه نفسه من الوجهة العملية لم يجد أساسا متينا يرتكز اليه الا فى التقارير الدبلوماسية وغيرها من الوثائق الرسمية (والتى منعه احترامه التيوتونى للدولة والكنيسة من فحصها فحصا دقيقا) ، ولكن منهجه هذا انتشر انتشارا سريعا لأنه أثبت فائدته الكبيرة فى تدريب مدرسى التاريخ ومؤلفيه ، وذلك بتمريناته البسيطة المحسوسة على نقد الأدلة التاريخية وجمعها فى نطاق قدرة الطلاب الذين أوتوا الأمانة وشيئا من الذكاء . وفى عام ١٨٧٤ أهاب ممسن بمواطنيه محذرا وجاء تحذيره هذا متأخرا جدا : « ان المؤرخ مطبوع لا مصنوع ، يعلّم نفسه ولا يعلّمه غيره » [١] . وقد ظل رانكه يشغل مركزه الهام فى التدريس العملى بجامعة برلين فترة طويلة من ١٨٢٥ الى ١٨٧١ . وبفضل مركزه هذا استطاع أن يضع عددا من تلاميذه لا يقلون عن المائة فى جميع مناصب تدريس التاريخ تقريبا فى ألمانيا . وكان تشابه مؤلفاتهم وضخامتها — وهى من مظاهر الكفاية المنظمة التى كانت سر النجاح الحربى فى ألمانيا — موضع حسد المؤرخين فى البلاد الأخرى والنموذج الذى تطلعوا اليه . فكان ستبز وفريمان من المعجبين بالمناهج الألمانية وتقلدا أستاذية التاريخ الحديث فى اكسفورد بين سنة ١٨٦٧ وسنة ١٨٨٢ . وفى كمبردج أقام سيلى ولورد اكتون وبيورى التدريب التاريخى على أسس مماثلة من سنة ١٨٦٩ الى سنة ١٩٢٧ ، وحين تأسست الجمعية التاريخية الأمريكية عام ١٨٨٤ أنتخبت رانكه الذى كان قد شارف على التسعين أول وآخر عضو فخرى فيها .

على أن الصيت الذى بلغته ألمانيا لم يؤد الى أكثر من ايجـاد نزعة

(١) Theodor Memmsen, Reden und Aufsätze (Berlin, 1905); p. II;
خطاب المدير لسنة ١٨٧٤ .

أوروبية نحو الرجوع لعصر الاستنارة ، والى ارتفاع شأن العلم فان العلم كان عاملا من عوامل حركة الاستنارة . ثم أصبح للعلم تأثير آخر يرجع الى تغلب الداروينية على الدين منتظما كنائس ومذاهب ، والى سبب آخر لعله أقوى هو التطبيق العملى لعلم الطبيعة فى المصنع المجهز ميكانيكيا والسفينة المدرعة بالحديد ، ومدفع الماكينة ، والسكك الحديدية ، والتلغراف والتليفون التى غيرت البيئة المادية بله تنظيم المجتمع ؛ وأغرت المؤرخين اغراء قويا بادخال خصائصها فى أعمالهم زاعمين أنهم يؤلفون تاريخا « علميا » ؛ والمنهج الذى استعاره المؤرخون من العلوم الطبيعية كان لا يزال فى جوهره منهج علم الطبيعة ، لأن علم الحياة وعلم النفس الجديدين كانا يعدان الحياة ، بل والحياة الانسانية ، مجرد جهاز طبيعى أشد تعقيدا خاضع لقوانين المادة والحركة ؛ فالانسان فى نظر داروين نتيجة لعملية طويلة من الانتخاب الطبيعى قامت فيه الطبيعة لا الانسان بالنصيب الأوفر ، وترتب على ذلك أن المؤرخين أخذوا يبحثون عن الأسباب المادية للسلوك الانسانى ، وصوروا الجنس البشرى على أنه تتحكم فيه قوى عمياء خارجية وهى قوى البيئة الجغرافية والاقتصاديات والوراثة الجنسية ، وقد أفاد أحد المنفيين الألمان وهو كارل ماركس من الدراسات الاقتصادية الشائعة فى بريطانيا وقوانينها الفولاذية المستنتجة من السلوك النظرى « للانسان الاقتصادى » وهو تجريد شبه علمى ، وهذا السلوك لا باعث له الا طلب الكسب المادى ، كما أفاد من تصور مالثوس وداروين « للكفاح فى سبيل البقاء » واتخذ ذلك أساسا لكتابه « رأس المال » الذى ظهر عام ١٨٦٧ ويحتوى على أكبر التأويلات المادية للتاريخ انتظاما وأبعد تأثيرا . وفى فرنسا قدم تين لدراسته فى نظام الحكم القديم (الملكى) ١٨٧٦ بقوله : « يجوز للمؤرخ أن يتمتع بحقوق العالم الطبيعى ، وقد سلطت على موضوعى قوى الملاحظة كما يتتبع

الدارس آطوار نمو الحشرات بالملاحظة » . أما فوستل دى كولانج فانه قال ان منهج ديكارت الشكى الرياضى قد يجعل التاريخ علما موضوعيا ونبه مرة من المرات سامعيه المتحمسين بقوله : « لا تصفقوا لى فلست آنا الذى أتحدث اليكم وانما هو التاريخ الذى يتكلم بفمى » [1] .

الا أن الاستنارة الجديدة اختلفت عن الاستنارة فى القرن الثامن عشر فى هذه الناحية الهامة ، وهى أن فريق العلماء وفريق المؤرخين وقع كلاهما تحت سطوة ابتكار من الابتكارات التى ترتبت على العلم ، وهو : تنظيم الانتاج بالجملة بتقسيم العمل ، فنزع العلماء أفرادا — تحقيقا للاتقان والدقة والمهارة الفنية — الى تركيز انتباههم فى قطاع من الطبيعة أخذ يتناقص على مرور الزمن نقصا مطردا ، كما نزع المؤرخون الى المبالغة فى الاهتمام بابراز دقائق الحوادث . وكان رانكه فى عام ١٨٣٠ قد سن هذه السنة عندما طلب من أعضاء حلقته الدراسية البحث عن تفصيلات التاريخ الألمانى الوسيط لتجمع فى مقالات وتنشر فى مجلد يتعاونون جميعا على اخراجه ، وتناسى المؤرخون أن هناك فرقا فى الكيف بين مثل هذا الجمع للمادة الخام من ناحية ، وقيام عقل واحد بمسح ميدان معين بأسره من ناحية أخرى . وأسهم المؤرخون بمقالاتهم الخاصة فى تحرير الصحف العلمية التى زاد عددها بازدياد التقسيم فى التاريخ ، وتولاهم خوف يكاد يكون مرضيا من القيام بالتعميمات التى يمكن أن تناقضها الحقائق التى قد يستخرجها من مكانها مؤرخون منافسون قد يكونون أضيق أفقا منهم .

ولم يلبث هذا الجو أن بدأ يؤثر فى العقول المتفوقة ذاتها ، وأخرجت ثورات عام ١٨٤٨ تيدور ممسن من جمع النقوش اللاتينية وقذفت به فى

(١) ذكره G. Monod فى المجلة التاريخية La Revue Historique, XLI, 278.

خضم المعارك الصحفية الحرة فنشر بين ١٨٥٤ و ١٨٥٦ ، وهو لا يزال بعد قريب العهد بما اكتسب من خبرة من ملاحظته كيف يحدث التاريخ فى الواقع ، المجلدات الأولى من مؤلفه البارع فى تاريخ روما وفسر فيه سقوط الجمهورية الرومانية بلغة حية واضحة استمدها من الحياة السياسية فى القرن التاسع عشر ، وكره المؤرخون المدرسيون الكتاب لعباراته العصرية وتحيزه لقيصر وانعدام المراجع والهوامش فيه ، ودافع المؤلف عن كتابه فقال : « أردت أن أنزل القدماء من قواعد التماثيل التى تراها بعين الخيال يجلسون عليها الى عالم الواقع .. وان من عاش كما عشت فى وسط الحوادث التاريخية لا يستطيع الا أن يرى أن التاريخ لا يكتب أو يحدث دون حب أو كراهية »[1] ولكن ممسن بعد أن دعته الأكاديمية البروسية الى برلين ليشرف على نشر كل مجموعات النقوش اللاتينية الموجودة أخذ يعد مؤلفه الرائع نزوة شباب ، ولما كان دائما مقتنعا بحاجته الى الاستزادة من العلم فانه بدد نشاطه الجم فى أكثر من ألف من الدراسات الفنية ، ولم ينفذ قط خطته فى تمام مؤلفه فى التاريخ الرومانى مستعينا بالمعلومات الدقيقة . وكذلك كان تأثير التربية الألمانية على لورد اكتون واضحا فى تشتيت جهوده . كان اكتون واسع الثقافة قرأ وعلق باسهاب ليضع الكتاب الذى كرس له حياته فى تاريخ الحرية ولم يدون منه سطرا واحدا ، ولم يشتهر بصفة أصلية الا بوضعه خطة مجموعة كمبردج فى التاريخ الحديث التى أعدها عدد كبير من المؤرخين وفقا لمبدأ تقسيم العمل . وفى عام ١٨٧٨ نعى چون مورلى ، وهو لا يمكن أن يتهم بتحيزه ضد العلم ، نعى على التاريخ : « انه على وشك الانحلال والتحول من احاطة شاملة

---

(١) ذكره G. Gooch فى كتابه History & Historians in the 19th century (London, 1935) pp. 457; 458

لعصر مهم أو لحركة من حركات الجماعة الانسانية الى تجميع واسع لا يحصى لحقائق قليلة الأهمية، والى علم عقيم وعبث كعبث الأثريين التافهين [١]. وفى عام ١٩٢٥ عندما تطلع الفيلسوف العلمى هويتهد ببصره الى الوراء نجده يصف النتائج الواسعة الانتشار التى ترتبت على احتراف العلم قال: «انتهى القرن فى عقديه الأخيرين بمرحلة من أشد المراحل ركودا فى الفكر منذ عهد الحرب الصليبية الأولى. كانت مرحلة ترددت فيها أصداء القرن الثامن عشر، الا أنه أعوزتها شخصية ڤولتير، والرقة وعدم المبالاة التى كان عليها الاشراف الفرنسيون، مرحلة امتازت بالكفاية والسآمة ونقص الحماسة وسجلت نصر المحترفين» [٢].

وكان غير ما ازدهــر فى تلك السنين الحفــريات الأثرية التى تتطلب عقلية عملية تعنى بالبقايا المادية البحتة التى خلفتها الانسانية، فالحفارون الأثريون يجب أن يتحلوا بالصبر والنظام والحذر؛ لأنهم يتعرضون لخطر ضياع الشواهد قبل أن يقوموا بوصفها وصفا صالحا، أمــا أصحــاب العقول النشطة والخيال فموقفهم من الحفريات أصعب لأنه يشق عليهم المضى فى جمع الأدلة زمنا طويلا دون أن يستخلصوا منها النتــائج [٣]. ولم يكن من قبيل المصادفة أن يظهر فى ألمانيا شليمان وهو الذى دفع فى

(١) John Morley, Diderot & the Encyclopaedists (London, 1914); II; 212

(٢) Alfred North Whitehead, Science and the Modern World (New York, 1925) p. 148.

(٣) انظر الصــفحات الأولى من مؤلف Rhys Carpenter وعنوانه: The Humanistic Value of Archeolgy (Cambridge, Mass., 1933; وقابل ذلك بملاحظــة وليم چيمس التى جاء فيها: «لقد نشــأ فى ألمانيــا فى سنوات قلائل ما يمكن أن يسمى بعلم النفس المكروسكوبى الذى يعتمد على الطرق التجريبيــة وهذه الطريقة ينفد معها الصبر ولم يكن فى الامكان أن تنشأ فى بلاد يمل أهلها بسهولة» انظر الفصل الخاص بمناهج علم النفس وشراكه فى مبادىء علم النفس، ج ١ .

عام ١٨٧٠ الذى انتصر فيه الألمان فى الحرب ، علم الآثار دفعة قوية بوضعه الحقائق التاريخية الخاصة بهوميروس موضع الاختبار المادى ، وذلك باجراء الحفريات فى مكان طرواده الأسطورى ؛ وفيما بعد أثبت فى ميسكينا وتيرونس وأرخومينوس التى كشف فيها عن ذخائر بيت ميناياس صحة ما افترضه اتفريد موللر من وجود حضارة سابقة على الحضارة الهيلينية . وأظهرت الأدوات الفنية التى حفظت بكثرة فى هواء مصر الجاف أساليب فنية متعاقبة مكنت فلندرزپترى من وضع ترتيب تعاقب حوليات التاريخ المصرى فى مداها الطويل ، ولم يلبث عمله هذا حتى نافسته الكشوف الأثرية فيما بين النهرين ، وقبل أن ينتهى القرن كانت فأس الأثرى قد كشفت فى كريد وآسيا الصغرى حضارتين هما الحضارة المينوسية والحضارة الحيثية ولم يكن يعرف عن وجودهما الا النزر اليسير فى المصادر المأثورة ، الا أن هذه الكشوف المثيرة — وشأنها فى ذلك شأن الكشوف السابقة عن هياكل أجناس ما قبل التاريخ وعن الفن العجيب لانسان الكهوف — تزيد فى طول زمن حياة الانسان على الأرض ، وتثير الشك المفيد فى التفوق البدنى والثقافى للانسان الحديث ، الا أنها لا تشفى غليلنا باجابة عن الأسئلة التى نحن أشد ما نكون رغبة فى توجيهها ، ذلك لأن الأشياء المادية حين لا تعاوننا على فهمها الكتابة المفهومة (الكتابة الكريتية مثلا لم تحل رموزها حتى الآن) ، فانه يصعب تفسيرها الى حد كبير ، فنحن نعرف طعام انسان ما قبل التاريخ ولباسه ، ولكننا لا ندرى ماذا كان تعبير وجهه ، وخفقات قلبه وتصوره للعالم .

وانعدمت الصفات الانسانية فى الدراسات الانسانية وانتقل ذلك منها الى الدراسات اللغوية والأدبية ، وسجل سيرچون سانديز راضيا فى مؤلفه تاريخ الدراسات الكلاسيكية (١٩٠٨) ما يأتى : « فى الجيل الذى أعقب

جيل ولف برز العالمان العظيمان جوتفريد هرمان ، وأوجست بويخ زعيمى مدرستين متنافستين فى العلوم الكلاسيكية : أولاهما المدرسة النحوية النقدية التى جعلت نصـوص الآداب القديمة ومسائل النحو والعروض والأسلوب أهم موضوعات الدراسة ؛ والمدرسة الثانية (التى كان يمثلها نيبور فيما مضى) هى المدرسة التاريخية الأثرية التى كانت تبحث فى مختلف الظواهر العقلية فى العالم الكلاسيكى القديم . عنيت المدرسـة الأولى بالألفاظ وعنيت الثانية بالأشياء ، وعنيت الأولى باللغة والأدب ، والثانية بالنظم والفن والآثار وقد أخذ على أنصار الأولى عنايتهم الضيقة بوضـع الحواشى على النصوص الكلاسيكية ، أما أنصار الثانية فقد اتهموا بأنهم من الهواة الذين يأخذون بطـرف من كل شىء (Dilettanti) . وقد أصبح من المتفق عليه الآن أن الفكرة الشاملة عن الميدان الواسـع للدراسات الكلاسيكية كما قال بها بويخ وان كانت فكرة صحيحة دون شـك من الناحية النظرية ، فانه ، من الناحية العملية ، لابد من معرفة تامة باللغات تكون بمثابة أساس لما ينبنى عليها » [1] .

وقد حدث باسم هذه الدقة التامة أن تجردت الألفاظ من معناها ،وأن أسرف المشتغلون بالدراسات الكلاسيكية فى تطبيق القواعد النحوية مما أدى الى تنمية عادات عقلية تعجز عن التشييد فوق الأساس اللغوى وقد حدث هذا العقم فى دراسة اللاتينية والاغريقية فى ظرف زاده ضررا ان تلك الدراسات اتخذت نماذج لتجديد تعليم اللغات الحديثة وآدابها . وكذلك فسر الابتكار أو الخلق الأدبى بلغة الميكانيكا ، فوصف تين فى مؤلفـه

(١) Sir John Sandys, A History of Classical Scholarship (Cambridge, England, Cambridge University Press, 1908), III; 889. ونشر باذن من الناشرين

تاريخ الأدب الانجليزى (١٨٦٣) أعمال العباقرة بأنها نتاج الجنس والبيئة الطبيعية والعصر الذى ظهرت فيه ، واستوحى اميل زولا بصفة خاصة تين ومؤلف كلود برنار « مقدمة فى الطب التجريبى » (١٨٦٥) ، وخطر له أن يعمل تجربة فى الوراثة باخراج سلسلة من القصص عن أسرة خيالية . وفى مقدمة أولى قصصه وهى مصير آل روجون (١٨٧١) بيّن نظريته الجبرية قال : أود أن أشرح سلوك أسرة ، أى سلوك جماعة صغيرة من الناس فى المجتمع يكثر عددها بانجاب عشرة أفراد أو عشرين فردا يبدو لأول وهلة أنهم يختلفون فيما بينهم اختلافا بيّنا ، ولكن التحليل يبيّن أن كلا منهم يرتبط بالآخر ارتباطا وثيقا لأن الوراثة كالجاذبية لها قوانينها .

وفيما أنا آخذ بحل المشكلة المزدوجة الخاصة بالمزاج والبيئة سأحاول أن أبيّن وأن أتتبع الخيط الذى يصل من الناحية الحسابية بين انسان وآخر ، حتى اذا ما أمسكت بكل الخيوط ووضعت فى يدى جماعة اجتماعية كاملة عرضت هـذه الجماعة من حيث هى تقـوم بدور فى فترة تاريخية وسأصورها وهى نشيطة عاملة وبكل ما يترتب على ذلك من نتائج معقدة ، وسأحلل فى الوقت ذاته حاصل الجمع الناتج من ارادة كل فرد من أفرادها والأثر العام الذى يحدثه المجموع .

ان المصطلحات الرياضية والطبيعية تبرز هنا فيما يفترض أنه من علوم الحياة والنفس ، وتفرعت عن زولا الحركة الأدبية الدولية التى عرفت بالمذهب الطبيعى (Naturalism) لتقليدها العلوم الطبيعية ، وشملت هذه الحركة القصصيين الانجليز جورج مور وارنولد بنت وما تردده الفرقة « الجوقة » فى مسرحية توماس هاردى التاريخية الكبيرة "The Dynasts" (١٩٠٣) ، يمثل الأمم ألعوبة فى يدى « المحرك الأول للآلة » . على أن

زولا وهاردى كانا فنانين حقيقيين ، فلم يتمسكا لحسن الحظ تمسكا شديدا بنظريتهما الطبيعية والجبرية فى أعمالهما الفنية .

لقد كان التأليف التاريخى فى عصر الاستنارة على وفاق مع الأدب والأفكار الفلسفية ، كان ڤولتير وجيبون من أهل الفلسفة والأسلوب ، ولكن التاريخ العلمى الجديد اتهم الفلسفة والأسلوب الأدبى بتحوير الحقيقة البسيطة العاطلة عن الطلاء . وقلد الطريقة الاستقرائية المتبعة فى العلوم ، وأنتج آلاف الصفحات المزدحمة حتى حواشيها ، والتى تعرض العمل نفسه أكثر مما تعرض نتائجه ، وأصبحت اللاشكلية والفتور اللذان اكتسى بهما برهانا ظاهرا محسوسا على دقة المؤرخ وعدم تحيزه ، ونظر الى نقيضها نظرة الريبة ، بل أثارت الغضب الخلقى . وفى ألمانيا — التى لم تنجح قط فى أن يكون لهاأسلوب نثرى نموذجى — لم يكن التغير واضحا وضوحه فى البلاد التى أنجبت جيبون وهيوم وكارليل وماكولى وجرين حين قام مقامهم مؤرخون غير بلغاء من أمثال ستبز وفريمان وجاردنر نصراء لما يجب أن يكون عليه التاريخ القويم ، وقد أثار الوصف الطلى وتصوير الشخصيات اللذان قام بهما چيمس انتونى فرود على نهج كارليل سخط فريمان ، فاتهمه غير مرة بعدم الدقة والجهل وانعدام الرزانة والفكر الصائب ، بل انه اتهمه باساءة التصوير عن عمد . وعبثا عرض فرود أن تقوم بفحص صفحات كتابه « تاريخ انجلترا » التى أثارت هذه التهم لجنة محايدة من المحكمين بشرط أن توافق صحيفة « ستردای رفيو » التى نشرت نقد فريمان اللاذع على نشر حكمها . ونشر لانجلوا وسينيوبوس فى فرنسا أسطورة عدم دقة فرود التاريخية ، كما نشرها چيمس فورد رودس بين أعضاء الجمعية التاريخية الأمريكية [1] . وهوجم جرين كذلك فى مجلة

(١) Waldo Dunn, Froude and Carlyle (New York, 1930), Chap. XIII.

فريزرز وحاول عبثا المطالبة بمستوى أرقى فى الحكم على المؤلفات التاريخية فقال : « هناك (فى كتابى) زلات اهمال ونقص أشعر بالأسف لوقوعها ، ولكنها ليست عيوبا تؤثر فى المؤلف ذاته ، وهى لا تثبت سوء فهم حقيقى لهذه الفترة أو تلك ، وهى ليست من نوع الأخطاء التى تدل على أسلوب غير تاريخى فى النظر الى سير الأشياء مجتمعة [1] . وظلت كلمة « مؤرخ أدبى » وصفا يستخدم عند التقريع أو الحط من القدر .

وكتب چورچ ماكولى تريڤليان فى عام ١٩١٣ يقول : شهدت الأعوام الخمسون الأخيرة تغيرات كبيرة فيما يجرى فى معبد كليو ، لقد انتهى عهد أنبيائها وشعرائها وما كان يهبط عليهم من وحى ، وخلفهم كهنة كنيسة وجدت بحكم القانون فطرد العوام من بلاط أهل الشرف والثقافة ، وحدد المذهب ، وحرم الهراطقة ، ولطخ الكهنة الجدد قبور الأنبياء السابقين بالسواد ، وبينما كانت تجرى هذه التغييرات شوهد تمثال ربة التاريخ وهو يغمز بعينه فهل كان ذلك منه موافقة أو سخرية ؟ [2] .

وقد سمع تريڤليان — وكان لا يزال طالبا بمكبردج — أن ماكولى خال أبيه وكارليل لا يعدهما الأستاذ سيلى فى عداد المؤرخين مكتفيا بوصفهما مؤرخين « أدبيين » ينقصهما الاطلاع . وبعد ذلك بعشر سنين يخرج تريڤليان عن صمته ، وكان ذلك حين نشر ج . ب . بيورى بعد أن حل فى الكرسى محل سيلى واكتون خطاب ارتقائه الأستاذية وجاء به : « ليس من التزيد فى القول حتى الآن أن تؤكد أن التاريخ علم ولا شىء غير ذلك ،

---

(١) Lealie Stephen, ed. Letters of J.R: Green (London; 1901); p: 420:
الخطاب الى فريمان فى ٢ سبتمبر ١٨٧٥ .

(٢) G.M Trevelyan, Clio, a Muse & Other Essays (London & New York, Longmans, Green & Co. 1930), p. 140. ونشر باذن من الناشرين .

واذا تمسكنا (بآراء رانكه المعروفة) تمسكا تاما لانعدم تعدد المذاهب المختلفة فى التاريخ » [1] . ورد تريفليان على « عدم سماحة » بيورى ردا صريحا فى مقاله « أحدث الآراء فى التاريخ » المنشور فى صحيفة (The Independent Review) لعام ١٩٠٤ : « ان المشكلة فى مجالها الأوسع هى : « هل سيبدأ الجنس البشرى من القرن العشرين فى اقصاء الأدب والعاطفة والفكر التأملى عن البحث الذى يقوم به فى ماضيه » [2] وتطورت هذه المعارضة التى قام بها تريفليان فى شبابه فنضجت وظهرت فى بحث فلسفى طلى عنوانه « كليو الالهة » نشر فى عام ١٩١٣ ، وقد جمع فيه بين السخرية المهذبة والقلق الكبير لمستقبل التأليف التاريخى وكان قد أخذ اذ ذاك لأول مرة يفقد نفوذه فقدانا سريعا ، فبينما كانت المؤلفات التاريخية فيما مضى تنتشر قراءتها انتشارا واسعا لأنها كانت من انتاج « أشخاص يغشون دوائر عالم الأدب أو السياسة » أصبحت الآن وقفا على المختصين المشتغلين بالبحث والدراسة فى الغالب وهم يفضلون التأليف لغيرهم من المختصين احتقارا لشأن القارىء العادى » [3] وتشبيه التاريخ بالعلوم الطبيعية الذى أدى الى هذا التخصص غير صحيح ، لأنه يستحيل عزل أية حادثة تاريخية عزلا تاما عن ظروفها أو الفحص عن سببها أو نتيجتها باعادة الكرة كما هو الشأن فى تجارب المعمل : وذلك لأن الحادثة التاريخية هى نفسها مجموعة من الظروف لا يمكن أن يحدث أى ظرف منها مرة أخرى » . وتنتهى مهمة المؤرخ العلمية بجمع الحقائق وتمحيص الأدلة ، وتظل الحقائق لا عمل

---

(١) J. B. Bury, Inaugural Lecture (Cambridge, 1903):

(٢) G.M. Trevelyan, The Latest View of history, Independent Review, 1 (1904) 395.

(٣) G.M. Trevelyan, Clio, a Muse, p. 140.

أو معنى لها حتى تؤول ، والتأويل لا يمكن أن يتخذ قط صورة الاستقراء أو الاستنتاج الدقيق للقوانين : « بل يجب أن يبقى تخمينا يعتمد على الخيال للحصول على أكثر الأحكام العامة احتمال وقوع » وخير المؤرخين هو من كان أوسعهم وأشملهم عقلا وروحا ؛ وكتاب الثورة الفرنسية لكارليل هو فى جانب مهم من جوانبه « أصدق من التحليل الفاتر لنفس الحوادث ، ومن التلخيص الشائع للشخصيات نفسها من نوع ما يقوم به المؤرخون العلميون الذين يزيد علمهم بالحوادث عن كارليل ويقل فهمهم للانسان عنه » ومجال الطبيعة الانسانية الواسع يشمل السخرية ، ومناظر السخرية فى كارليل وجيبون ما أشدها ترويحا للنفس بعد الوقار والشكلية فى الكتاب الذين تشغلهم كثيرا كرامة التاريخ .

والقيمة الحقيقية للتاريخ ترجع لأثره فى التربية بحَثّ الناس على التفكير فى الماضى وتوسيع عقولهم وتهيئتها لفهم الأحداث الجليلة ، والعطف على أنواع الطبائع الانسانية التى لا حصر لها . أما فائدته فانها تزداد بزيادة قارئيه [1] ، ويجب اجتذابهم اليه بفن الوصف وحرارة الحماسة والميل العقلى . فالحياة قصيرة والفن طويل ولكن التاريخ أطول لأنه فن وبحث . ولم يقنع الأستاذ تريفليان بذكر هذا المثل الأعلى ، بل انه طبقه على المؤلفات التاريخية الممتازة البارزة التى لا تزال لحسن الحظ يدبجها قلمه ، وكانت خلافته لبيورى كأستاذ للتاريخ الحديث سنة ١٩٢٧ ايذانا بثورة فى تدريس التاريخ بجامعة كمبردج ، وسوغ كتاب « اليصابات واسكس » لليتون ستراشى ثقته بقيمة التاريخ الذى يؤلفه الهواة والأدباء ، وقد عبر أحد

(١) عاد الأستاذ تريفليان اخيرا الى معالجة هذا الموضوع فى كتابه التاريخ والقارىء History and the Reader (Cambridge, England, 1946.)

مشاهير أساتذة الأدب الانجليزى عن ألمه لظهور كتاب ستراشى ١٩٢٨ اذ قال : « ما فائدة تأليفه فى هذا الموضوع » ان كل الحقائق المتعلقة به معروفة . هكذا كانت حال النقاد الذين تسربوا الى تدريس الانسانيات مرتدين زى البحاث « العلميين » .

وقد وجدت اجالة الفكر الفلسفى فى التاريخ نصيرا لها فى شخص مفكر من أبرع المفكرين فى هذا العصر وأعمقهم وهو بنديتوكروتشه ، وكان من قبيل التحدى أن اختار أن ينشر كتابه التاريخ نظريا وواقعيا (١٩١٥) فى ألمانيا قبل أن ينشره بالايطالية ، وبيّن كروتشه أن المطالبة بترك الحقائق تتحدث عن نفسها ، والوقوع بطريقة تلقائية أو بالاستقراء الآلى فى أنماط لا يتدخل فيها الفكر الفلسفى ، أمر ينطوى على سوء فهم لطبيعة الحقائق التاريخية ولطبيعة الفلسفة ، فالحقائق المعروفة منذ زمن طويل ظلت بطريقة ما ميتة أو فى سبات حتى بعثتها الى الحياة مرحلة من مراحل نمـو الوعى الانسانى .

فقد رقد الرومان والاغريق فى قبورهم حتى أيقظهم فى عصر النهضة ما وصل اليه العقل الانسانى حديثا من النضج ، وظلت الأشكال البدائية من الحضارات الأولية البربرية منسـية ، أو لا تستلفت النظر كثيرا ، أو يساء فهمها حتى « انجذبت اليها » المرحلة الحديثة فى تاريخ العقـل الانسانى التى عرفت بالرومانسية أو عهد العودة لما قبل الثورة . وبعبارة أخرى أنها اعترفت بتلك الحضارات موضوعا لاهتمامها الخاص فى ذلك الوقت . وهكذا فان أجزاء كبيرة من التاريخ مما لا يزال بالنسبة لنا مجرد أنباء وحوادث ، والوثائق الكثيرة التى لا تزال صامتة ، سوف يسطع عليها بدورها نور جديد من الحياة وسوف تتحدث مرة أخرى . هذه الحركات

وهذا البعث الجديد لها دوافع داخلية ولن يؤدى الى احيائها ازدياد ثروتنا من الوثائق والتواريخ [١] .

والفلسفة هى نفس هذا النمو فى نفوذ البصيرة ، فهى ليست نظاما مغلقا ثابتا محدودا ، ولكن هى عملية التفكير ذاتها التى يفتح فيها الوصول الى نتيجة ما مجالا جديدا ويعرض مشاكل جديدة . وقد قال فوستل دى كولانج : « هناك على وجه التأكيد (فلسفة وتاريخ) ولكن ليس هناك (فلسفة تاريخ) وعارضه كروتشه بقوله : « ليس هناك فلسفة ، وليس هناك تاريخ ، ولكن هنـاك تاريخا هو الفلسـفة ، وفلسفة هى التـاريخ وداخـلة فى التاريخ » [٢] . ومنذ عهد اليونان « ظل الفهم التاريخى دواما يزداد ثروة وعمقا ، لا لأن الانسان قد تم له الكشف عن الأسباب المجردة والغايات المتسامية للأمور الانسانية ، وانما لأنه اكتسب احساسا متزايدا بها » [٣] . اذ ليس هناك تاريخ « نهائى » أو فلسفة « نهائية » ولكن التاريخ والفلسفة يتطوران معا ويتحدان اتحادا لا ينفصم [٤] .

وعقد كروتشه فصلا عن التأليف التاريخى فى المذهب الوضعى بحث فيه مزاعم ثلاث من مدارس التاريخ الحديثة ترى اغفال الفلسفة ، وهـذا الفصل من الآيات الرائعة فى صفاء المجادلة أحسن حبكه حتى ليجدر اقتباسه كاملا ، فهو يعرض عجز الكليات الآلية التى قال بها تين عن تناول

---

(١) ترجمة Benedettlo Croce, History : Its Theory and Practice, ونشر Douglas Ainslee (New York; Harcourt; Brace; 1921). pp. 24-25: باذن من الناشرين .

(٢) المصدر السابق ص ٨٣ .

(٣) المصدر السابق ص ٧٧ .

(٤) المصدر السابق ص ١١٩ .

عملية التاريخ الحيوية « والالتجاء الى الاقتضاب والتلميح وحكمة الصمت » مما بنت عليه مدرسة رانكه « الوثائقية » موضوعيتها وعدم تحيزها اللتين فخرت بهما ولاحظ كروتشه متهكما :

« ان المؤرخين الوثائقيين لم يطمعوا فى رفض ادخال الفكر فى التاريخ ، لأنهم لم يتصفوا بالسذاجة اللازمة لمثل هذا الطموح ، فى حين أن المشتغلين بفقه اللغة كانوا على عكس ذلك جماعة ساذجة غاية السذاجة ، وطمعوا فى هذا الرفض حتى ان أبسط ناسخ للنصوص ، أو جامع لمختلف روايات النص الواحد فى ألمانيا ، أو أى باحث فى علاقة النصوص بعضها ببعض ، أو أى ضارب فى ميدان الحدس والتخمين للوصول الى النص الأصيل ، قد رفع نفسه الى مصاف العلماء والنقاد ، ولم يجسر فحسب على أن يعد نفسه ندا للفطاحل من أمثال شلنج وهيجل وهردر وشليجل بل كان يجترىء على ذلك مظهرا احتقاره وازدراءه مطلقا عليهم « غير المنهجيين » . وكانوا جميعا يذكرون وعلى أهبة دائما لأن يرددوا خمسة نوادر أو ستة تتعلق بالأخطاء فى الأسماء والتواريخ مما وقع فيه فعلا مشاهير الفلاسفة وينسون بسهولة الأخطاء العديدة التى وقعوا فيها هم أنفسهم (فهم أسهل وقوعا فيها لأنهم أكثر تعرضا لأخطارها) ، وكادوا أن يقنعوا أنفسهم بأن الفلسفة انما اخترعت لتغيير الأسماء وخلط التواريخ التى عهد بها الى عنايتهم وحدبهم ، وانها (أى الفلسفة) هى الهوة التى حفرها العدو لبلوغ هدفه فى القضاء على « التاريخ الوثائقى » الجدى [1] .

الا أن مثل هذه الاعتراضات مهما بلغت قوتها وحدة عباراتها لم تكن لتنال من العلم وعظم سلطانه لولا أن العلم ذاته بدأ يغير مناهجه وفروضه .

---

(١) المصدر السابق ص ٢٩٢ — ٢٩٤ .

الفصل التاسع

الفكر فى القرن العشرين يبحث عن مؤرخه

طالع العلم القرن العشرين بوجه آخر ، وكان ذلك أوضح ما كان فى علوم الطبيعة والرياضة ، أى فى تلك العلوم التى وضع فيها المؤرخون العلميون ثقتهم باعتبارها علوما ثابتة لا تقبل التغيير ، ولم يعد نيوتن رمز الحقيقية المطلقة ، وتحتم ألا نفكر بعد الآن وفقا لهندسة واحدة هى هندسة اقليدس وديكارت ، وتغيرت نظريات المادة والكتلة والوزن تغيرا عميقا ، ونوقشت الجبرية على ضوء الأفكار الحديثة فى الأسباب والقوانين العلمية .

وبحوث الكهربا والمغناطيسية كانت هى التى أحدثت هذه التغييرات الثورية . ولعل القارىء يذكر أن الظواهر الكهربية ما كاد يتم الكشف عنها حتى بدت لهردر وغيره شبيهة بظواهر الحياة شبها غريبا ، ولكن النظريات الميكانيكية كانت اذ ذاك قد استقرت فى علم الطبيعة استقرارا حمل العلماء على ألا يترددوا فى افتراض امكان شرح الكهربا شرحا ميكانيكيا ، وجرت البحوث على هذا النهج مدة قرن من الزمان على الرغم مما صادفته من صعاب ومتناقضات . وكما أن الفلك البطليموسى اضطر لاستحداث مدارات معقدة ، كذلك استحدث الأثير واسطة مادية تتنقل فيه الظواهر الكهربية المغناطيسية فى الفضاء . وفى عام ١٨٧٣ تمكن كلارك مكسويل — على الرغم من أنه بدأ بالافتراضات الميكانيكية المألوفة — من أن ينشىء معادلات أثبت بها عدم ضرورة الأثير ، كما أثبت أن الكهربا والضوء

والحرارة المشعة تتحد فى كونها موجات مختلفة الطول واحدة السرعة وهى سرعة الضوء كما حددت من قبل ، ولما أن رفض بعض مشاهير علماء الطبيعة مثل لورد كلفن قبول هذه النتائج لأنها لا يمكن أن ترى أو تحس فى نموذج من نماذج الميكانيكا ، دافع عنها كلارك مكسويل دفاعا بارعا بقوله : « اذا اتجه .. المشتغلون بالعلم الى دراسة المميزات الفردية والخصائص المتغيرة بدلا من دراسة عناصر الثبات فى الأشياء فان تقدم المعارف الطبيعية قد ينزع الى القضاء على التحيز للجبرية الناشىء من افتراض أن العلوم الطبيعية فى المستقبل ليست الا صورة مكبرة من صورتها فى الماضى » [١] .

الا أن العادات المتأصلة كانت من القوة بحيث انها ظلت سائدة حتى عام ١٩٠٥ حين بيّن عبقرى فى سن العشرين — هو البرت اينشتين — فى أول بحوثه عن النسبية ما يمكن أن تؤدى اليه اشارة مكسويل الى أن الضوء لا يمكن أن يفسر وفقا لقواعد علم الميكانيكا ، وفى عام ١٩٠٧ أعلن اينشتين نظريته الشهيرة فى أن سرعة الضوء تبدو ثابتة سواء أكان الملاحظ يقترب من مصدر الضوء أم يبتعد عنه لأن مقاييس الزمن والفضاء تختلف باختلاف حركتنا ؛ وفى العام التالى أوضح شاب آخر هو مينكوفسكى التفسير الرياضى لهذه النظرية وهو أن الزمن هو أحد الأبعاد الأربعة للاستمرار الكونى ، ولا يمكن أن يمثل الا بنوع من الهندسة لم يعرفه اقليدس أو ديكارت .

وكان علماء الرياضة قد أخذوا منذ عام ١٨٣٠ ينشئون هندسات نظرية تعتمد على بديهيات أخرى غير بديهيات اقليدس ، واقتفى اينشتين أثر

---

(١) ذكره J.W.N: Sullivan فى كتابه Aspects of Science (New York, 1925), p. 56.

ما ألمح اليه منكوفسكى فعثر بين هذه الهندسات النظرية على هندسة كرّية نشرها ريمان عام ١٨٦٧ ، واتفقت تماما مع الواقع الطبيعى لكون له أبعاد أربعة ، فضلا عن أنها تفسر مسألة تركها نيوتن دون حل وهى : لماذا تعمل الجاذبية فى التو واللحظة ، وعلى أى بعد ، ولا يعوقها شىء يؤثر فيها ؟ واتضح أن الجاذبية ليست قوة ، وانما هى صفة لهذه الهندسة الجديدة للكون ، وأن الكواكب تتخذ فعلا لمسيرها أسهل مسلك يناسبها فى الفضاء والزمان ؛ كذلك بالنسبة للكتلة : كانوا يعدونها الى ذلك الوقت مطلقة ثم فهم أنها نسبية وأنها تزداد بازدياد سرعة الجسم ، وأدى ذلك باينشتين الى معادلة الكتلة بالطاقة وهى شىء أقرب الى اللامادة .

وبينما كانت الخطوط العريضة للكون تتغير على هذا النحو حدث فى الكفة الأخرى من كفتى ميزان الكم انقلاب أكبر فى الآراء القديمة ؛ فقد كانت الذرة تحتفظ حتى بداية القرن العشرين بمعناها اللفظى أى هى آخر جزء من أجزاء المادة غير قابل للتجزئة صلب لا يخترق . وكان لظواهر الكهربا والضوء والحرارة التى ذاعت بالكشف عن الأشعة السينية والاشعاع عام ١٨٩٠ أثرها فى ابطال المعنى القديم للذرة ، وفى ايجاد الصورة الشائعة الآن وهى الصورة التى صور بها بور الذرة أشبه ما تكون بنظام شمسى صغير من الالكترونات التى تدور فى أفلاك شاسعة البعد اذا ما نسبت الى حجم النواة المركزية .

وعلى ذلك فالمادة أكثرها فضاء فارغ ، وأعجب من ذلك أنهم وجدوا أن الالكترونات ليس لها وزن يختلف عن شحنتها الكهربية ، وهذا مما يؤيد نظرية اينشتين فى وحدة الكتلة والطاقة ، وثبات الذرة ينتج من التوازن بين الشحنات الايجابية والسلبية فاذا اضطرب هذا التوازن انحلت

الذرة الى طاقة بحت بكميات تفوق حد التصور . وفى عام ١٩١١ أثبت رذرفورد هذه النظرية بتجاربه فى المعمل ؛ وفى رأى غير الفنيين من الناس أن الكشف عن وسائل أقوى لتحطيم الذرة قد انتهى الى القنبلة الذرية عام ١٩٤٥ . وهكذا تناول التغيير والتعـديل نظريات نيوتن الأساسية عن المادة والحركة والكتلة والقوة ، على الرغم مما أثمرت فى ميدان الكشوف العلمية مدة تزيد عن قرنين .

وتناول البحث الفكرة الأساسية فى الجبرية العِلّية ذاتها ، ويرجـع التشكك فيها الى عام ١٩٠٠ حين حاول ماكس بلانك وهو جبرى صميم أن يحل الخلاف بين النظرية الرياضية والنتائج التجريبية فى شأن أطوال الموجات الحرارية التى تحمل أكبر طاقة ممكنة ، مع العلم بأن هذه الموجات تبلغ من الطول مبلغا يستحيل معه رؤيتها . وتضمن توفيقه بين النظر والتجربة ملاحظة ، وهى أن الذرة لا تشع الطاقة باستمرار ، وانما هى تشعها على هزات أو دفعات أطلق عليها « كوانتا » أى الكميات ، واتفقت هذه الملاحظة مع صورة السلوك الذى تتخذه الالكترونات فى داخل الذرة ، فالالكترونات لا يمكن أن تقهر على شغل الفضاء القائم بين مداراتها المنتظمة ، وانتقالها السريع من مدار الى آخر يتفق مع هزات الكواانتا ، وهذا كله يتعارض مع فكرة الاستمرار بوساطة التغييرات الدقيقة ، وهى فكرة ليبنتز ، والحساب الدائرى المعتمد عليها لا يمكن أن يتنبأ بموضع الالكترونات أو الفوتونات وهى « كوانتا » الحرارة أو الضوء التى لا تقبل النقص . وثمة أداة رياضية أخرى هى حساب الاحتمالات الذى وضع لبحث ألعاب الحظ أو وضع جداول نسبة الوفيات أو خطر الحريق ؛ فهو أداة صالحة فى الحالات التى تتضمن أعدادا كبيرة من الالكترونات أو الموجات الكهربية المغناطيسـية ولكنه يعجز عن التنبؤ بموضع الموجة الواحـدة أو الالكترون الواحد ؛

والموجات الكهربية المغناطيسية تبدو « شيئا لا ماديا كموجات الانقباض والاخلاص والانتحار التى تجتاح بلدا ما » [١] وتحدث شرودنجر وكان من أوائل البحاث فى ظواهر الكوانتا عن العادة الموروثة من آلاف السنين ، وهى عادة التفكير تفكيرا علميا ما أصل هذه العادة ؟ نشأت من ملاحظة الخصائص التى تتكرر بانتظام فى السير الطبيعى للأمور مئات وآلاف السنين ، على أنها فى ضوء معرفتنا الحاضرة لا تخضع للعلية على وجه التأكيد ، أو هى على الأقل لا تخضع لها خضوعا جوهريا ؛ اذ أننا نعلم أنها ظواهر تنطبق عليها القواعد الاحصائية [٢] . ومثل هذه النتائج تعيد الى الأذهان قصر هيوم للعلية على ما يشهده الملاحظون من مجرد تعاقب الأحداث ويقول فى مؤلفه « الطبيعة الانسانية » : « وعلى الجملة فان الضرورة شيء يوجد فى العقل لا فى الأشياء » .

وقد تعارضت النتائج الابتداعية الطبيعة فى خلال السنين الخمسين الماضية — وهى أعظم ما حدث منذ عصر جاليليو ونيوتن — مع الأفكار السائدة فى عقول عامة الناس عن العلم والعلماء منذ أن كانت الفيزيقا فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر مصطبغة بصبغة من الاستقرار النسبى مقبولة الصحة مسلم بها ، والعلم اليوم كما تعلمنا لا يزعم أنه صورة دقيقة للعالم الخارجى لا تقبل التغيير ، والقوانين العلمية حتى قوانين نيوتن هى فروض صالحة وأدوات تسوغها قدرتها على التفسير والتحكم فى الطبيعة الى أن تتمكن من بلوغ تقريب أفضل نحو الحقيقة ، فاينشتين لم يفند

(١) Sullivan, The Limitations of Science (London, 1933), p. 102.

(٢) ذكره Robert Livingston Schuyler فى مقاله « اللاجبرية فى الطبيعة والتاريخ » المنشور بمجلة الدراسات الاجتماعية عدد ٣١ (ديسمبر ١٩٣٦) ص ٥١١ .

نيوتن ولكنه أكسبه تعبيرا أدق وأرق ، والرياضيات لا تعطينا الرأى النهائى ولا ضمانا ضد الشك ، فنحن نعلم أن ديكارت كان على خطأ فى قوله ان شكل المثلث « لا يتوقف قطعا على عقلى » وليست الرياضيات فى حاجة الى أن تستمد من صلاتنا بالعالم الخارجى اذ أن علاقتها بالخارج عنها أمر عرضى ، فالمعادلة الواحدة قد تمثل عدة علاقات مادية مختلفة ، وطبيعة العقل الانسانى لا تفرض هندسة واحدة فقط ، فمن الجائز أن توجد هندسات بقدر ما يستطيع الرياضيون أن يوجدوا من الفروض ، الا أن علم الفيزيقا النظرية لا يتأثر بحالة أدواته الرياضية هذه لأنه لا يبحث الا عن أقصى درجات الاحتمال ، وأصبح وصف هكسلى للعلم بأنه : « الذوق السليم المنظم » وصفا باليا ، اذ تعدى العلم نطاق الملاحظة الانسانية المعتادة الى دائرة الأشياء المتناهية فى الجسامة والمتناهية فى الدقة ويقول دابرو : « ان التشبيهات الميكانيكية والتصورات القديمة لم يعد لها فائدة الا من حيث انها نظريات يستند اليها الخيال المشدوه العاجز عن الشعور بالراحة فى محيطه الجديد »[1]. قال ج . ب . هالدين عالم الكيميا الحيوية أن الكون : « ليس فقط أغرب مما نفترض ، ولكنه أغرب مما نستطيع أن نفترض » .

وأما من تعمقوا فيما سماه العالم الفلكى سير جيمس جينس « بالكون الغامض » فانهم لا تمثلهم الصورة الشائعة للعالم الموضوعى الذى يلتزم الأمر الواقع ، ذلك أن طرق التفكير عند الواحد منهم شىء خاص به وحده الى حد كبير ، وعقولهم تقفز قفزات تقطع التنفس على من يلاحقها وقد لاحظ ج . و . ن . سلڤان فيما يتعلق بنظرية اينشتين فى النسبية : « أن جمهور العلماء قابل هذه النظرية فى مبدأ الأمر بعدم التفهم ، ولم يكن ذلك

(١) المقدمة فى A. d'Abro, The Decline of Mechanism in Modern Physics (New York, 1939).

راجعا الى صعابها الفنية وانما الى غرابة وجهة النظر التى اتخذها واضعها ، فقد بدت كأنها نتاج عقل غير مألوف ، ونستطيع أن نقول عن هذه النظرية ما قاله اينشتين عن بعض أعمال جاوس قال انه لو لم يفكر فيها صاحبها لما كان ثمة سبب لافتراض امكان التفكير فيها قطعا » (١) . وهناك فرق هائل بين الرياضيين المبدعين من هذا الطراز والمناطقة الذين لا يتصفون الا بمجرد الجلد ، بين ذوى الموهبة النادرة فى حبك القواعد والآخرين الذين يتبعونها فقط . « ان الرياضى المبدع فى حاجة الى الخيال أو العبقرية أو ايما شئنا تسميته ، وهو ينبغى أن يكون فنانا لا مجرد عامل يسلك عقله سبيلا ممهدا واحدا ، وقد يستطيع الباحث المدرب أن يكشف عادة بسهولة تامة عن نسبة التجربة أو البرهان الى صاحبه ، وذلك من مجرد الشكل الذى عرضها فيه ، فيعرف ما اذا كان ينسب الى ريمان مثلا أو الى فاير ستراوس . ومثل هذا الموقف مألوف بالطبع فى الشعر والموسيقى ولكنه شائع فيهما شيوعا يجعل من النادر اعتباره جديرا بالذكر » (٢) وهـذه الملاحظة التى قام بها دابرو اتبعها بفصل فى « الفروق السيكولوجية بين علماء الطبيعة » شرح فيه انقسامهم الى نوعين هما : المجربون ذوو الجلد ممن لهم براعة كبيرة فى وضع التصميم وتشغيل الأجهزة ولكن حظهم من البراعة فى الرياضيات أقل نسبيا ، ثم المنظمون النظريون الذين لا يستخدمون من الأجهزة غير القلم والورق ، ويوفقون بين نتائج التجارب فى شتى فروع علم الطبيعة . وأطلق دابرو على أفراد هذا النوع الأخير المصطلح القديم المعروف فى القرن الثامن عشر وهو : الفلاسفة الطبيعيون ، وميز من بينهم ذوى المزاج الفردى المنعزل كأينشتين ممن ينزعون الى تحطيم الكليات الطبيعية المنفصلة ،

(١) Sullivan, The Limitations of Science, pp. 268-269.

(٢) انظر d'Abro فى مؤلفه السابق ص ١٨٩ .

وغيرهم مثل ادنجتون ممن يقنعون بالثنائية أو بالتعدد ، فعلوم الطبيعة أبعد من أن تكون جبهة واحدة مشتركة وتظهر تنوعا كبيرا فى الرأى والنظر بين أقطابها .

كذلك غير القرن العشرون مناهج البحث العلمى فى طبيعة الانسان والجماعة ونتائجه ، وان يكن هذا التغيير أقل استلفاتا للأنظار الا أنه أمر لا شك فيه .

ففى عام ١٩٠١ — أى فى العام التالى لكشف پلانك عن الكوانتا — ظهرت نظرية دفريس المشابهة فى التغيرات العضوية ، وهى تبين أن التطور البيولوجى قد سار فى قفزات ولم يتخذ طريق الاختلافات الدقيقة ؛ وفى الوقت ذاته تقريبا أنقذت من غياهب النسيان قوانين مندل فى الوراثة ؛ وهى تبين التطور قبل الولادة . وفى الوقت الذى لا نزال نجهل فيه طبيعة التغيرات السلالية التى تحدث الاختلافات فانه يبدو أن التطور لم يتخذ على وجه التأكيد السبيل الذى قال به داروين وهو سبيل انتقاء البيئة للتغيرات العارضة ، وظلت الأسئلة : هل تستطيع الآلة أن تصلح نفسها ، أو أن تنشىء نفسها من جديد ، دون جواب . أما من قصروا الشعور الانسانى على الوظائف الفيزيولوجية للجهاز العصبى ، والسلوكيون الذين قصروه على الاستجابة الآلية للبيئة المادية ، فقد تفوق عليهم فى ميدان الكشوف السيكولوجية النافعة المحللون النفسيون الذين درسوا مادة غير محسوسة وهى الأحلام التى قال عنها فرويد انها « ليست ظاهرة جسمية وانما هى ظاهرة عقلية »[1] ، وليس عليها دليل موضوعى تشريحى أو كيموى أو فيزيولوجى .

---

(١) ترجمة Sigmund Freud. A General Introduction to Psychoanalysis, Joan Rivière (Garden city, 1938), p. 90.

وكانت الألفاظ هى أدوات فرويد فى البحث وقال : «كانت الألفاظ والسحر فى مبدأ الأمر شيئا واحدا ، ولا تزال الألفاظ الى وقتنا هذا تحتفظ بكثير من قدرتها السحرية [1] . وتغلب فرويد بسحر الألفاظ على معارضة الناس فى الكشف عن المحتوى اللاشعورى لعقولهم ؛ ووجد أن هذا المحتوى يتخذ شكل رموز ترجع الى ما قبل تاريخ الانسانية حين كانت الصور تمثل الأفكار وحين كانت اللغة صور الذاكرة . قال فرويد : « ان العصر الذى ترجع بنا الأحلام اليه هو عصر « بدائى » بمعنى مزدوج ، فهو أولا عصر بدائى بمعنى أنه أول أيام الفرد ، أى عهد طفولته ، وثانيا بمعنى أنه يشمل الجنس كله بالقدر الذى يعيد به الفرد فى طفولته بشكل موجز كل سير الجنس البشرى » [2] . وكشف فى تاريخ اللغة عن أدلة يدعم بها تفسيره لعمل الأحلام ، ومن قبيلها الأضداد أى تشابه العكس والأصل كما فى اللفظ اللاتينى (altus) فهو يعنى العلو والعمق ، و sacery وتعنى القداسة واللعنة على السواء ؛ واللفظ المصرية (كن Ken) تعنى القوة والضعف ؛ والتغيرات اللفظية التى أدت فى الانجليزية الى لفظى (boat) و (tub) والكتابة الهيروغليفية هى من بقايا الأشكال الرمزية التى استخدمت الصور فى التفكير .

وهيأت الأساطير والأدب لفرويد أقوى تصويراته لمحتوى العقل اللاشعورى ؛ ومنها عقدة أوديب ، ومع أن فرويد أساء فهم الفن اذ قصره على الهروب من الواقع ، فانه كان مع ذلك من أكثر الفنانين الأدباء ابداعا وأعظم مؤلفى الأساطير فى عصرنا . وهو بكشفه عن عمل « الرقيب » .

---

(١) المصدر السابق ص ١٩ .

(٢) المصدر السابق ص ١٧٧ .

الفاصل بين الشعور واللاشعور . قد أوضح عملية التفكير العقلي التي سبق أن لاحظها الأدباء الرومانسيون والمؤرخون ومنهم كارليل ؛ واستمر فرويد مكملا عملهم بتقليله دائرة التفكير الشعوري ، ووضع الذات المفكرة على سطح العقل ، ووضعه تحتها المنطقة الكبرى للذات اللاشعورية واللاشعور (id) وهو الجزء المظلم من شخصيتنا الذي يصعب الوصول اليه ، لايعرف الزمان أو المكان ، وتستقر فيه الغرائز وهي كائنات خرافية رائعة غير محددة .. اذ يقول الناس : « لمح لي الخاطر لمح البرق » .. « كان شيئا في ذات نفسي أقوى مني ! » .. « وتتوسط الذات بين الواقع واللاشعور وهو مادة النفس الأصلية [1] وثمة دليل قوى على نزاهة فرويد ، وهو أنه على الرغم من أنه كان من أنصار الآلية عن عقيدة واقتناع ويرفض الدين والصوفية ، فانه أقر بأن بعض أعمال المتصوفة قد تنجح في قلب العلاقات العادية بين المناطق المختلفة للعقل ، حتى ان جهاز الادراك الحسي مثلا قد يستطيع ادراك علاقات في المناطق العميقة في الذات واللاشعور لا يمكن الوصول اليها بطريق آخر [2] ، فهو قد زاد في ثروة التقاليد التي خلفها مذهب الرومانسية وكان ذلك خلاف رغبته الشعورية .

وقد قلل فرويد وأتباعه من شأن الارتقاء من حالة الهمجية الى الحضارة والذي كانت تعتز به حركة الاستنارة ، اذ صور أكثر الأوروبيين المحدثين ثقافة وذوقا كمستودع للغرائز الشريرة المنحلة التي لا يعترفون بها حتى لأنفسهم ، ومن ناحية أخرى كانت البحوث الأنثروبولوجية قد أخذت ترفع

---

(١) ذكره Egon Friedell في كتابه تاريخ الحضارة في العصر الحديث Kulturgeschichte der Neuzeit (Munich), 1928; III, 578.

(٢) ترجمة Freud, New Introductory lectures on Psycho-analysis Sprott (New York, 1933), p. III.

من شأن الانسان الهمجى . كتب روبرت هـ . لوى فى مؤلفه تاريخ النظرية الاثنولوجية (١٩٣٧) ان بوس وأتباعه قد أحدثوا ثورة فى النظرة الى الحياة الهمجية ، فما كان يعد حتى ذلك الوقت ظاهرة مستقرة ، بدا الآن غريزة تحوى جرثومة التغير ، وتحول الناس الآليون الخاضعون لسلطان العادة الى كائنات بشرية تسير مع سلم القيم العاطفية والعقلية المألوفة فى الحضارة (١) ، ولا يجد علماء الانتروبولوجيا مسوغا لما ينسب الى بعض الأجناس من انحطاط أو تفوق وراثى ، فهم يؤكدون أن خير الطرق المؤدية الى تحسين حال الأفراد من الناحيـة الجسمية هى التعـاون الاجتماعى لا انتخاب السلالة أو التخلص من غير الصالح . والتقسيم الصحيح للجنس البشرى لا يقوم على أساس الجنس أو العـرف ، وانما يكون بتقسيمه مجتمعات تتميز بأنماط مشتركة فى « القيم » ، وأن تنوع الأنماط الحضارية فى العالم يتعارض مع تصور أصحاب حركة الاستنارة فى القرن الثامن عشر لمبادىء عامة ترتكز اليها الطبيعة الانسانية ، كما أنه يتعارض مع تصور فرويد للفرد عدوا للمجتمع بالطبع . ويقول علماء الانتروبولوجيا ان ملاحظة فرويد التى اقتصرت على الأوروبيين فى مجتمع تغلب عليه المنافسة الشديدة قد تنقلب الى العكس لو أنه كان قد قام مثلا بتحليل نفسى لقبائل البويبلو من الهنود الذين لا يشجع نمطهم الحضارى على المنافسة بل على المعونة المتبـادلة (٢) .

وقد دحضت البحوث التاريخية والانتروبولوجية فى التنظيم الاقتصادى

---

(١) Robert Lowie, A History of Ethnological Theory (New York, 1937), p. 266.

(٢) Ruth Benedict, Pattrn of Culture (New York, 1935); and Karen Horney The Neurotic Personality of our Time (New York. 1937).

للجماعات ما زعمه علم الاقتصاد القديم من أنه علم مستنتج من المبادىء الثابتة للطبيعة الانسانية من حيث علاقتها ببيئة مادية غير مرنة ، اذ بينت تلك البحوث أن علم الاقتصاد هو مجرد وصف تجريبى لما يجرى فى مرحلة خاصة من مراحل المجتمع الصناعى ، وهى تعد مرحلة محلية بدأت فى الزوال. وهكذا أخذ علم الاقتصاد يتحول الى علم تجريبى ويدخل فى اعتباره حقيقة لم يسبق اليها وهى أن (التكنولوجيا) قد هيأت للانسان السيطرة على بيئته ولم تعد الطبيعة الشحيحة كما قال مالثوس تضع العقبات فى سبيل اقتصاد يسوده الرخاء ، والصراع فى سبيل البقاء ، فى البلاد التى تقدمت فيها التكنولوجيا هو أمر يكاد يكون كله من صنع الانسان ونتيجة لتفكير منقرض ، فالناس غير ضعاف أمام « القوى » الاقتصادية أو السياسية ، وما يظنونه كذلك ليس الا مجرد أفكار تجول فى رؤوسهم .

وبينما كان الفكر فى القرن العشرين يضطر على هذا النحو المؤرخين الى اعادة النظر فى أفكارهم عن المناهج الصالحة للبحث العلمى ، وبينما هو يحلل المادة الى أشـياء تشبه شبها غريبا العقل والروح ، ويعيد طبيعة الانسان الى مكانتها الرئيسية فى التاريخ باعتبار أن الانسان ليس آليا وانما هو منشىء الجمـاعات ومشكل بيئته المادية — بينما يحـدث ذلك اذا بالحوادث تبين النتائج الوبيلة للأفكار البالية الخاطئة ، فقد أدت فلسفة الجبرية المادية وصراع الأجناس المحتوم ، وسيادة القوى الاقتصادية ومذهب المصير الواضح وحق « المجال الحيوى » — أدت كلها الى أشد حربين عرفهما العالم فتكا وتدميرا ، وما زعمه الاقتصاد القديم عملا حرا قد أثبت كذب هذه الحرية بما أحدثه من احتكارات واسعة وبطالة اجبارية أدت الى قيام أزمة عالمية بين الحربين ـ أما التطـور التاريخى لصراع الطبقـات المحتوم ، والذى وعدت نظرية ماركس الجماهير بالحصول عن طريقه على

الحرية الاقتصادية النهائية بعد يأسها من الحقوق السياسية الضيقة ، فانه لم يصدق أيضا اذ أنكر القيم المثالية ؛ وذلك أنه حين نشبت الحرب فى عام ١٩١٤ وجدت غالبية الماركسيين أن ولاءها للثقافات القومية أقوى من تضامن الطبقات الدولى الذى يفترض أنه تمليه المصالح المادية ؛ ولم يكن انتصار الماركسية فى روسيا قد تم بطريق التطور المادى ، وانما تم بطريق الثورة السياسية التى نمت فى قيادة القومية الثقافية ، وعجز ماركس عن تقدير أثر الجوانب اللاعقلية من النفس الانسانية ، ولا سيما لدى فقراء الطبقة الوسطى الذين وقعوا بين شقى رحى الرأسمالية الاحتكارية والعمال المنظمين ، ويتضح فشله هذا فى ظهور الاشتراكية الوطنية الألمانيــة التى أوردت أوربا موارد الخراب المادى .

وعلى ذلك فان مؤرخى القــرن العشرين قد شــغلوا بمشاكل انهيار الحضارات ، على نقيض الرومانسيين الذين شغلوا بأصول الحضارات ونموها . وثمة شخصية جبارة غامضة فى مطلع عصر التفكير التاريخى الحالى ألا وهى شخصية اوزوالد شبنجلر . بدأ شبنجلر مؤلفه انحطاط الغرب عام ١٩١١ وكان معدا للطبع عام ١٩١٤ الا أن قيام الحرب عطل نشره . وحدد موعد ظهوره أولا فى يولية ١٩١٨ وظهر موسعا فى عام ١٩٢٠ — ١٩٢٢[١] فكانت المصادفة عاملا فى تأييد نظريته بالاهتمام بالحرب العالمية الأولى وفترة الانحلال فيما بعدها .

وقد سبق شبنجلر الى الخطوط العريضة لنظريته فلنذرز پترى فى كتابه الصغير « الدورات الحضارية » (١٩١١) كما سبقه اليها الكونت دى جوبنو فى مؤلفه الذى شمل أربعة مجلدات وهو « مقال فى تفاوت الأجناس

---

(١) ظهر مؤلف T.S. Eliot « الأرض القفر » فى ١٩٢٢ .

البشرية (١٨٥٣—١٨٥٥) . وكان جوبينو شريفا فرنسيا شاعرا ونحاتا ، تولاه القلق للأحوال التى سادت فى أوربا بعد انهيار الآمال فى عام ١٨٤٨ فعالج موضوع « سقوط الحضارات . أهم الظواهر التاريخية وأشـدها غموضا فى الوقت ذاته »(١) . كانت الحضارات موضع ازدراء وكراهية معظم من عاشوا تحت ظلالها ، ولذلك فانها كانت أشبه « بالجزر المؤقتة التى تدفعها البراكين البحرية فوق الأمواج » وقد يحدث أحيانا أن « بعض العمليات المتولدة من الكشوف العلمية باقية بطريقة آلية ، فى حين أن الحركة العقلية التى أدت الى ظهورها قد زالت الى الأبد واندثر معها سر النظرية التى نشأت معها . فهل سمعنا عن مجتمع ظل حيا لمجرد أنه يعرف كيف يسرع أو كيف يحسن اللبس » (٢) . وعلى الرغم من أن بعض المنـاطق فى العالم لا تقوم فيها أية عقبة كأداء من حيث جغرافيتها أو مناخها فانها لم تنتج أية حضارة قط . فهل يرجع ذلك الى سبب آخر غير التخلف الوراثى للشعوب القاطنة فيها ؟ ورأى جوبينو أن أرفع الحضارات وأزهاها هى من ابداع جنس واحد هو الجنس الآرى الذى يشمل اليونان والرومان والأمم السائدة فى أوربا الحديثة ، ولكن الاختلاط بالأجناس الدنيا الذى قضى على النشاط المبدع للحضارة الاغريقية الرومانية يهدد الآن أوربا الحديثـة بالانحطاط (٣) ، ولم يحتفظ بنقاء الدم الآرى الا بقية زائلة من الاشراف ، وسوف يؤدى امتصاصها التام الى الانحطاط العام ، وليس هناك من مفر

---

(١) M.A. de Gobineau, Essai sur l'inégalité des races humaines (Paris, 1853-1855), I, 1.

(٢) المصدر السابق ج ١ ، ص ٢٨٠ — ٢٨١ .

(٣) كان تفوق الآريين من الناحيتين الخلقيـة والسياسـية أما الثقافة الفنية فانها يمكن أن تنشأ من الاتصال والامتزاج بين الأجناس المختلفة .

من هذا المصير لأن قوانين انحطاط الحضارة تتبع قانون الكون فضلا عن القوانين الأخرى التى تحكم بدقة لا يتطرق اليها الخلل عالم الأحياء والجماد على السواء ـ اننا معشر المحدثين أول من يعلم أن كل جماعة من الناس وطريقتهم الحضارية مصيرها حتما الى الزوال » (١) .

ووسعت الكشوف الأثرية التى تمت طوال الخمسين السنة التالية فى مصر وكريت وآسيا الصغرى وأمريكا الوسطى دائرة معرفتنا بالحضارات المندثرة ، حتى ان پترى عالم الآثار المصرية المبرز استطاع أن يقوم فى عام ١٩١١ باحصاء عشرة آلاف سنة ، وأن يقدم المعلومات الدقيقة عن كل قرن على حدة فى الآلاف السبعة الأخيرة ، فميز فى حضارة البحر المتوسط ثمانية عصور كبيرة يبلغ متوسط طول كل عصر منها ١٣٣٠ عاما على وجه التقريب ، وقد وجد فى كل عصر منها أن الحضارة تصل الى مرتبة النضج فى فن النحت أولا ثم فى التصوير والأدب والموسيقى والميكانيكيات والثروة، واستطاع أن يصف على هذا النحو الحضارات التى تفصل بينها الأزمان المتباعدة والمسافات الشاسعة كما لو كانت حضارات متعاصرة (٢) ، بمعنى خاص للتعاصر ، وهو وجودها واشتراكها فى نفس المرحلة الحضارية ، ويبدو أن كل مرحلة تبلغ نهايتها باستنفادها طاقتها الداخلية من الممكنات ، حتى اذا اقتربت العصور الحديثة تباعدت المراحل بعضها عن بعض أكثر من قبل ، حتى أن « الفن ينحط قبل تحرر القدرة الميكانيكية ونمو الثروة » وبلوغ الثروة أقصى حدودها « لابد أن يؤدى الى السقوط » (٣) ،

(١) جوبينو فى مؤلفه المذكور ج ١ ، ٤ .

(٢) W.M. Flinders Petrie, The Revolutions of Civilization (New York, 1941), p. 81. لاحظ ظهور هذا المعنى العلمى لكلمة معاصر مرة أخرى عند شبنجلر .

(٣) المصدر السابق ص ١٢٦ .

ولا تستطيع الحضارة بعدئذ أن تعود الى الحياة مرة أخرى بمحض ارادتها وتعيد الدورة ، ويرى پترى أن السبب فى ذلك هو أن الجنس الذى شيد هذه الحضارة قد استنفد قواه ولا يتأتى الخلاص الا بتقويته بدم جديد لشعب لم تنهكه الحضارة ، ولا يشترط أن يكون هذا الدم آريا فقط كما ذهب جوبينو ، وانما يصح آن يكون دم آى جنس شاب ، وقد اقتربت أوروبا الآن من نهاية المرحلة الأخيرة فهى فى حاجة عاجلة الى التقوية . الا أن فرصة حدوث هذه التقوية أصبحت نادرة لأن سهولة التنقل عملت على مزج دماء العالم كله ، وعلى مر الوقت لن تكون الحضارة ممكنة الا عن طريق استحداث سلالة جديدة بطرق مصطنعة ، وذلك « بفصل الأجناس النقية ومنع اختلاطها المستمر حتى تصل الى نموذج مميز لها .

وعلى الرغم من أن شبنجلر قد قبل معظم الحقائق التى قال بها پترى وجوبينو فانه لم يشاركهما اعتقادهما فى قدرة الجنس على انقاذ الحضارة ، اذ وقف علم الانثروبولوجيا — وخاصة دراسات بوس فى أمريكا — عقبة فى هذا السبيل ، وعرف شبنجلر الشعوب بأنها « ليست وحدات لغوية أو سياسية أو حيوانية وانما هى وحدات روحية »[1] ، وأرفع ما تعبر به عن نفسها هو « الثقافة الحضارية » (Culture) التى تقوى بالولاء للقيم التى تميزها ، وهى على نقيض الحالة البدائية « للجماعات المتسللة المتنافرة التى تتكون وتنحل دون قاعدة يمكن الوثوق فيها »[2] . وهى كذلك على نقيض المرحلة المتأخرة من « الحضارة » التى تعيش بعد استنفاد القيم ذاتها على الجمود مثل : مصر وبيزنطة وعلماء الصين ؛ وعلى ذلك فان الحضارات هى

(١) ترجمة Charles Oswald Spengler, The Decline of the West Travis Atkinson (New York, Alfred Knopf, 1926-1928); II; 169 ونشر باذن من الناشرين .

(٢) المصدر السابق .

التى لها تاريخ ، آما الجنس البشرى فلا تاريخ له ، لأن التاريخ الصحيح هو النمو فى الزمان ، وكل الحضارات — مهما بلغ اختلافها فيما بينها — تمر بمراحل واحدة تشبه الفصول أو الأعمار المختلفة للانسان أو لأى كائن حى . وتعد الخريطة التى وضعها شبنجلر لهذه المراحل المنتظمة فى حضارات العالم الكبرى كالحضارة المصرية واليونانية والرومانية والصينية والعربية والغربية ، . واستخدامه لمصطلح پترى الخاص وهو « المعاصر » لبيان تشابهها ، أبرع ما قام به وأقل أعماله مدعاة للجدال ، وهو يضع أوربا القرن العشرين فى مرحلة « الحضارة » اذ انقضت مرحلة الثقافة الحضارية الأوروبية فى عام ١٨٠٠ على وجه التقريب . وليس للحضارات (فى آخر مراحلها) ممكنات نوعية ، ولكن لها ممكنات فى التوسع تتمثل فىالرأسمالية الاستعمارية والأوپرات الڤاجنرية بميلها الى العظمة ، وفى الطرق الحديدية والبرق واللاسلكى وناطحات السحاب .

أما أسلوب الحياة الكبير فقد حلت محله « حياة الأفول الاصطناعية التى لا جذور لها وتسود مدننا الكبرى الحالية بأشكال رسمها العقل »[1] وأصبحت الجماهير كما كان الحال فى روما الامبراطورية — لا تعيش الا للطعام واللهو .

وكان من الممكن أن يكون ذلك من الأمور البديهية لو لم تكن الحضارة شلت تفكير المؤرخين فأخذوا يطبقون كليات المادة والفضاء على الانسان مع أن جوهره هو الحياة فى الزمان . كان شبنجلر معلما للرياضيات ، وعلى صلة بأحدث تطورات علم الطبيعة ، ووجد أن هذه العلوم ذاتها تتفق مع « أسلوب » الثقافة الحضارية الغربية . وقال : « كلما اعتقد أصحاب علم

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٣٥٣ .

ما أنه أبعد ما يكون تشكلا بالانسان كان تكيفه به أقوى ، وبعد أن يخلصوا علمهم هذا من الصفات الانسانية المنفصلة الموجودة فى صورته الطبيعية صفة بعد صفة يجدون فى نهاية الأمر أن الطبيعة البحتة التى افترضوها وأمسكوا بها ليست الا الانسانية ذاتها خالصة تامة » [١] . ولما كان مؤرخو العصر الحاضر يقطنون فى مدن كبرى بالغة النمو ، وتحيط بهم الوسائل الميكانيكية ، فانهم قد فقدوا صلتهم بالعمليات العضوية ولم يشاهدوا « الفرق بين الاحساس بالحياة وطرق المعرفة » [٢] .

وقد وجد شبنجلر الوسائل لاحياء حاسة النمو التاريخى معدة ليستخدمها ، وهى من تراث معركة الأدباء فى القرن الثامن عشر ضد حركة الاستنارة ، وأقر شبنجلر أنه تعلم من جوته أن « التعاطف والملاحظة والمقارنة والوثوق المباشر الذاتى والتطلع العقلى [٣] كلها وسائل للبحث فى التاريخ ، واستخدم شبنجلر كذلك لفظ (einfühlen) وهو اللفظ الذى استخدمه هردر من قبل — ومعناه الاحساس — لوصف العملية التى تشمل ادراك جهاز الحضارة عن طريق اللقانة ، ودخوله فى التجربة الذاتية ، وفهمه باعتباره شكلا أو رمزا ، وتصويره فى نهاية الأمر تصويرا شعريا أو فنيا» [٤]. واستمر شبنجلر فى بحث هردر عن منطق الزمان ، فوجد أن خواصه الغامضة من حيث الاتجاه وعدم قابليته للاتجاه عكسيا ليست مشكلة اذا تذكرنا « اننا أنفسنا نكون الزمن بالقدر الذى نعيش » [٥] . وكما لاحظ بيرك

(١) المصدر السابق ص ٤٢٧ .
(٢) المصدر السابق ص ١١٩ .
(٣) المصدر السابق ص ٢٥ .
(٤) المصدر السابق ص ٥٦ .
(٥) المصدر السابق ص ١٢٢ .

وثيبور فان الأشكال السياسية والاجتماعية للثقافة الحضارية نمت ولم تصنع ، ونشأت على طريقة التطور البيولوجى نتيجة للتغير بالفروق الدقيقة، ولا بد للنفاذ الى روح ثقافة حضارية من تفهم علاماتها ورموزها كما هو الشأن فى فاوست الذى يمثل روح الغرب . ومن أهم أعمال شبنجلر تهذيبه وتصحيحه الدقيق لفكرة روح العصر ، وذلك بما أوضحه من أوجه الشبه وصلة القرابة بين أقسام من الثقافة الواحدة تبدو متفرقة لا رابطة بينها ، فبين أوجه القرابة بين المدينة اليونانية وهندسة اقليدس ، وبين قواعد المنظور فى فن التصوير الغربى بالألوان الزيتية وغزو الغرب للفضاء .

وقد بيّن شبنجلر فى مقدمته التى كتبها عام ١٩٢٢ كيف أنه اختار لغة مناسبة « تحاول عرض الأشياء والعلاقات بطريقة توضيحية بدلا من حشد الأفكار وترتيبها ، فهى لا تخاطب الا القراء الذين يستطيعون فى خلال قراءتهم أن يجعلوا أنفسهم يعيشون فى عالم أصوات الألفاظ والصور » فالمصطلحات القديمة ، والألفاظ حديثة الصياغة ، أو التى تجددت بالرجوع الى معنى مادتها ، تصور نبض الحياة اليومية التى هى استمرار الانسانية ، فى حين يصور الأسلوب الفخم « قيام الحضارات الثقافية العظيمة بدوراتها المتموجة الكبيرة ، اذ تظهر فجأة وتكبر فى خطوط رائعة ، ثم تنبسط وتزول ويعود وجه المياه فضاء ساكنا »[1] . ان الفروق النفسية الدقيقة ، والتأملات الجديدة الصعبة ، وتعديل نيتشه للقيم ، أصبحت كلها أمرا مألوفا سهل الفهم وذلك بالتنويع فى طرق المعالجة ، والالتجاء الى الأساليب الموسيقية من تكرار متزايد وتغيير فى السرعة .

اما الجمل القصيرة فانها تؤكد القضايا الهامة كما فى قوله : « المؤلفات

(١) المصدر السابق ص ١٠٦ .

التاريخية الأصيلة جميعها فلسفة الا اذا كانت مجرد صناعة جمع كصناعة النمــل [١] .

وخيال شبنجلر لا يستوحش من البدائى أو المغرب على حد سواء ، والعبارات الأولى التى افتتح بها مجلده الثانى جديرة بالذكر قال :

تأمل الأزهار فى المساء وهى تنقبض واحدة بعد أخرى فى غروب الشمس أن الشعور الذى يستولى عليك اذ ذاك شعور غريب ، فهو شعور مبهم بالخوف أمام هذه الحياة الشبيهة بالحلم الحالك والمقيدة بالأرض . ان الغاب الأصم ، والمروج الساكنة ، والأغصان ، والفروع ، لا تحرك نفسها ، فالريح هى التى تداعبها والهوام الصغيرة وحدها حرة طليقة لا تفتأ ترقص فى ضوء المساء وتنتقل حيث تشاء .. النبات نبات لا غير ، أما الحيوان فهو الى جانب أنه نبات شىء آخر ، فالقطيع الذى ينضم بعضه الى بعض حين يلوح له الخطر ، والطفل الذى يتعلق باكيا بأمه ، والانسان الذى يجاهد يائسا لشق سبيله الى الهه — كل أولئك يحاولون العودة من حياة الحرية الى العبودية النباتية التى تحرروا منها منطلقين الى الفردية والأفراد [٢] .

ووفق شبنجلر كذلك فى تفسيره للثقافة الحضارية التى أخذت طريقها الى المغيب :

ان الحديقة المنمقة على طراز « الباروك » هى حديقة الموسم المتأخر ، وحديقة النهاية القريبة والأوراق المتساقطة .. والمنظور هو أول ما يبعث النذر بأن شيئا ما يحدث ويتسلل ويزول ؛ ولألفاظ البعد والمسافة فى الشعر الغنائى فى كل اللغات الغربية رنين شكاة حزين لا نجده فى اليونانية واللاتينية

(١) المصدر السابق ص ٤١ .

(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ٣ .

ونجده فى شعر « أوسيان » لمكفرسون ، وفى شعر هلدرلين وأغانى ديونيزوس الخمرية لنيتشه ، ثم فى بودلير وڤرلين وچورج ودرويم . ان الشعر المتأخر الصادر عن الطرق ذوات الحدائق الذابلة ، والخطوط التى لا تنتهى لشوارع المدن الكبرى ، وصفوف الأعمدة فى الكاتدرائية ، وقمة سلسلة الجبال البعيدة ، كلها تنبئنا أن خبرتنا بالعمق التى تكوّن لنا عالم الفضاء هى فى النهاية وثوقنا الذاتى فى مصير واتجاه مرسوم وزمان وأمر لا مرد له (١) .

وكان شبنجلر آنا شاعرا محللا ، وآنا متأملا قويا ، وهو فى ذلك ينقل الينا الاحساس بالمشاركة الوثيقة فى خصب الانسان الذى لا يصدق فى ميادين الفن والعلم والاقتصاد والسياسة والدين والفلسفة ، ومجاراة شبنجلر فى هذا المضمار تجربة تبعث السرور ، ومهما عزف القارىء عن النتائج التى توصل اليها شبنجلر فان ثروته العقلية لابد أن تزداد وعقله لابد أن يتأثر بشىء من طابع شبنجلر .

وعلى الرغم من ذلك فاننا نجد فى « انحطاط الغرب » رنين نغمة تعارض الشعر ، اذ أغفل شبنجلر فى محاولته التحديد السابق لمجرى التاريخ ما أكده هو نفسه بشأن الثقافات الحضارية وطبيعتها الرمزية البحتة ، فافترض أن الشبه بينها وبين الكائنات العضوية شبه مطلق وليس مجرد استعارة ، وقال بصريح العبارة : « ان تاريخ الصين العظيم ، أو تاريخ الثقافة الكلاسيكية يساوى تماما التاريخ البسيط للانسان الفرد ، أو للحيوان ، أو للشجرة ، أو الزهرة » (٢) . وكل ما قام به شبنجلر فى هذا الصدد هو أنه أحل محل

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٢٤١ .

(٢) المصدر السابق ص ١٠٤ .

الأسباب والنتائج فى الجبرية المادية الطبيعية ، جبرية أخرى بيولوجية وهى « فترات الحياة المقدرة من قبل » [١]. وهى أشد آلية ومادية من الداروينية التى يرفضها وفى متضمناتها وطأة شديدة على الفرد . ويقول شبنجلر : « وسيكون من واجب كل انسان من الآن فصاعدا أن يبين لنفسه ما يمكن أن يحدث ، وما سيحدث فعلا مع قيام الضرورة الثابتة للمصير ، وبغض النظر عن المثل العليا والآمال والرغبات الشخصية [٢] .

وزاد شبنجلر على ذلك قوله : « انه يأمل أن يتأثر أهل الجيل الحديث بكتابه ، فيكرسون أنفسهم على العلوم الصناعية بدلا من الشعر الغنائى ، والبحر بدلا من التصوير بالفرجون ، والسياسة بدلا من نظرية المعرفة الفلسفية [٣] ، ولكن شبنجلر تجاهل فى قوله هذا ما اتصف به « بروميثيوس » من الثبات والتضحية ، وهما الصفتان اللتان تتميز بهما الأمزجة الفنية والفلسفية ، وقد أظهر شبنجلر فى مكان آخر تبجيلا حقا لجلائل أعمالهما .

ان الرجل الذى دق احساسه بالطبيعة حتى انه قال : « انى أشعر بألم عميق حين أرى أزهار الربيع وهى تحاول الاخصاب فلا تستطيع على الرغم من روعة جمالها أن تجذب أو أن ترى احداها الأخرى ولكن يتعين عليها أن تلجأ الى الحيوانات التى لاتوجد هذه الألوان والعطور الا لها » [٤] .

هذا الرجل نفسه لا يحس مع ذلك بآلام الانسانية حتى انه يمجد

(١) المصدر السابق ص ١٠٩ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٩ .

(٣) المصدر السابق ص ٤١ .

(٤) المصدر السابق ج ٢ ص ١١٥ .

الحرب باعتبارها « خالقة لكل عظائم الأشياء »[١] . وعلى الرغم من أن عبارة جوته : « كل ما هو فان ليس الا رمزا » تتخلل أجزاء كتابه كأنها النذير فى الترديد الغنائى ، الا أنه كان يؤمن بسياسة الواقعية ، واستثنى تفسيره التاريخى وحده من النسبية والرمزية التى اتصفت بها جميع التفسيرات التاريخية ، وهذا التفسير الذى قام به عقل تغلغل فى تاريخ العالم وتعددت جوانبه تعددا يدعو الى الدهشة يكشف فى صميمه عن روح الاقليمية المتعجرفة لسيد ألمانى من أصحاب الأرض يؤلف وهو يشعر بمرارة الهزيمة الوطنية ، ويستخدم العقل فى الحط من قيمة العقل ، والفن فى القضاء على الفن .

وعاش شبنجلر حتى شاهد القيصرية التى تنبأ بها ، ولكن قيصر لم يكن كما تخيله شخصا يفوق بسمارك ، بل انه كان زعيما شعبيا للطبقة الكادحة يحمل لواء النظريات الخاصة بالأجناس التى كان شبنجلر يزدريها . وفى خلال السنوات التى كانت فيها الحضارة الأوروبية عاجزة عن الدفاع ومواجهة الهتلرية وسمها الزعاف ، كان المؤرخ ارنولد ج . توينبى ينشر مؤلفه « دراسة فى التاريخ » (١٩٣٤—١٩٣٩) وهو يقول فى مقدمة الجزء الرابع المنشورة عام ١٩٣٩ : « ان الجو المعاصر الذى وضعت فيه الأجزاء الثلاثة الحالية كان مناسبا بشكل أليم لموضوعات « الانهيار » و « التفكك » التى هى موضوعات هذه المجلدات . وقد مرت لحظات كان فيها الاستمرار فى تأليف كتاب استغرق سنين كثيرة أشبه باغراء القدر وبذل الجهود سدى فى وقت قد تطيح فيه الكارثة بعالم الكاتب بعد أسابيع أو أيام قليلة »[٢] ولكن

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٣٦٣ .

(٢) Arnold J. Toynbee, A Study of History (London, Oxford University Press, 1934-1939) IV, viii-ix. المقدمة المؤرخة فى ٣١ مارس ١٩٣٩ ونشر باذن من الناشرين .

الأستاذ توينبى قوى من روحه اذ تذكر بقاء كتاب « المدينة الالهية » للقديس أوغسطين وانتصاره وكان قد بدأه بعد نهب الأريك لروما .

أما عن الحالة الراهنة للعالم فأن توينبى ليس بعيدا عن الاتفاق مع شبنجلر ، فهو مثله يرى أن أعظم أخطار عصرنا كامنة فى « سرطان » الطبقة العمالية فى المدن « وركود الجماهير » [1] . وقد وجد توينبى ، فى استعراضه للحضارات الست والعشرين التى خلفت لنا آثارا مدونة ، أن ست عشرة حضارة منها قد ماتت واندثرت ، وأن كل حضارة من الحضارات الباقية ظاهرة الانهيار وفى سبيل التفكك ،مع جواز استثناء حضارتنا (الغربية)» [2] ويبدو أن هذه الموازنة مع سير حياة الحضارات الأخرى تدخلها فيما يسميه الصينيون « زمن الاضطرابات » وتؤدى افتراضا الى دولة عالمية متحجرة ولكن توينبى مع ذلك ليس على شيء من جبرية شبنجلر ، فقد اقتنع بعد استقصاء وتحليل أمثلة الانهيار والتفكك أن « الحضارات الميتة لم تمت قضاء وقدرا ؛ وعلى ذلك فان الحضارة القائمة ليست مقضيا عليها مقدما قضاء لا رجعة فيه» [3] وما قال به شبنجلر من وجود شبه دقيق بين الجماعات والكائنات النباتية والحيوانية قول خاطىء ، لأن قوة الجماعات الحيوية تكمن فى الأفراد الذين قد يتنوع مجموع جهودهم الى درجة لا يمكن حسابها ، والجنس البشرى ، وهو أكبر وأبقى من أية حضارة استحدثها ، قد يبقى ويسلم ثمار الجهود الفردية الى كل زمان ومكان . فلا يزال هنالك اذن معقد رجاء وأمل فى زعامة العظماء المتازين المبدعة : « ان القبس الالهى من القوة المبدعة انما هو غريزة فى ذواتنا ، واذا كان لنا فضل ايقاده شعلة

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٣٤٢ .

(٢) المصدر السابق ج ٤ ص ٣ .

(٣) المصدر السابق ص ٣٩ .

فان النجوم فى مسالكها تعجز عن التغلب على جهودنا فى سبيل بلوغ الهدف الذى ترمى اليه الجهود الانسانية »[١] ولكن مثل هذه الزعامة ستفشل اذا لجأت ، كما أراد لها شبنجلر ، الى قهر الجماعات بالقوة والتدريب الجماعى الشكلى ، بل يجب عليها أن تكسب هذه الجماعات الى جانبها ، وأن تنال اعجابها فتعمل الجماعة على محاكاة الزعامة ؛ لقد انسحب أعظم القادة من العالم — كما فعل المسيح فى البرية ، وكمافعل بوذا — حتى يتمكنوا من اخضاع أنفسهم والعودة الى العالم لافتدائه بالخدمة والتضحية بالذات ، وقد أرشدت الأسطورتان الخالدتان : أسطورة پروزرپين وأسطورة الاله الذى يموت الى الطريق . وكتاب « دراسة فى التاريخ » — وقد قدر له أن يكمل فى ثلاثة عشر مجلدا — لا يناقض شبنجلر بايمان مؤلفه فى الخلاص عن طريق المثل العليا والقيم الدينية فقط ، وانما يناقضه أيضا من حيث الشكل ، فان التقاليد الانجليزية المشبعة بالروح العملية الحذرة ، وأمثلة الاستنباط العلمى شجعت ميل مستر توينبى على كثرة الأمثلة والاستطرادات المتمهلة[٢] ، وذلك على نقيض الاحساس بالعجلة الذى يتجلى فى الاقتباسات التى قدم بها لكتابه ، وهو على الرغم من سعة ثقافته ، وكثرة استشهاداته بالشعر العالمى وتنوعها ، فانه يبدو عديم المبالاة بتلك الأدوات التى كان لابد له من اتخاذها ليستحوذ على أفئدة قرائه ، وفاته أنها من هذا السحر الذى يعده بحق جوهر الزعامة ، ولقد أظهر شبنجلر أنه فى هذه الناحية أبعد حكمة من (أبناء النور) .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) ان هذه العقبات فى سبيل قوة التأثير الأدبية قد تغلب عليها الى حد كبير D.C. Somervell فى المجلد الواحد الذى اختصر فيه « دراسة فى التاريخ » (لندن ونيويورك ، ١٩٤٧) ولكن هذه المحاولة ذاتها لا تصل الى براعة شبنجلر .

وفى زماننا ، وفى غياهب السجون ومعسكرات الاعتقال ، وبين الأخطار وسأم الحرب وقلقها ، وبين أطلال المدن التاريخية عكفت خيرة المفكرين الأوروبيين على التأمل تأملا لا مثيل لحدته فيما آلت اليه الانسانية . ها هم أولاء يشاهدون الحضارة الغربية تهوى لا على يد أجانب متوحشين ، وانما بتأثير أفكار علمية فى ظاهرها تستغل التخلف العقلى أو الخلقى لجماعات الهمل العديمى الأصول وهم يواجهون أيضا امكان انتقال مركز الحضارة الى قارة أخرى . الا أن الاستغراق فى التفكير فى أخطاء الأمس لا ينبغى له أن يبعد عن أذهانهم أن فى الامكان اعادة بناء الحضارة بناء أثبت على خير ما فى اتجاهات الفكر الحالية نحو تحرير الانسان من رق الضرورات الدينية والمادية والبيولوجية . وقد أدت قرون من الفحص عن معنى التاريخ الى الحكم بأن الانسانية لا تسعى الى غاية واحدة ثابتة نهائية تعيش بعد تحقيقها على الآلية التى هى الموت وسط الحياة فالمستقبل لنا وفى أيدينا ، نشكله ونعدله الى ما لا نهاية وفق ما يكشف الزمن عن ممكنات جديدة ، ان أفكارنا الخاطئة عن أنفسنا هى وحدها التى تقيدنا ، وتخلينا عن المعايير هو وحده الذى يهلكنا . تلك أنباء الفرح العظيم ولكنها يجب أن تكون لكل الشعوب لا ملكا خاصا لطبقة مستنيرة ، ويجب أن تتغلغل فى الساسة والجماهير حتى لا يعودوا فيقضوا على ما بقى من الحضارة ؛ ان الفكر فى القرن العشرين بجرأته وعظمته وقدرته على التحرير ينتظر مؤرخا له على براعة فنية تامة ، ولرب هذا المؤرخ واحد ممن أنجبتهم روح العصر من جديد فى وقت احتضار أوربا .



هذا الكتاب

أهدى «ايمرى نف» كتابه الى من يعتقدون أن المعرفة كل لا يتجزأ، واختار أن يسمى الجزء الأول من الكتاب الآفاق المفتوحة . ولا بدع فقد ألزم نفسه بأن يحطم الحواجز القائمة بين الأدب والتاريخ والعلم والدراسات الاجتماعية والفلسفية .

تجد فيه المؤرخين الرومانسيين من أمثال كارليل وشاتوبريان ، وتجد فيه المؤرخين من أمثال ميشيليه يحيون حقبا ، وتجد فيه التاريخ من حيث هو فن (كما هو عند رينان) أو من حيث هو علم (كما عند رانكه) .. فجاءت بذلك ترجمة الكتاب للغة العربية أول عرض بلغتنا لمجموعة من العبقريات اللامعة . على أنها فى لمعانها تتصل بمراكز اشعاع محققة الوجود . أو كما قال چورچ ماكولى تريفيليان فى العبارة التى اقتبسها المؤلف فى أول الكتاب : « لا تتألف روح الشعر فى تدوين التاريخ من خيال يطوف فى الفضاء ، ولكنها تتألف من خيال يقتفى أثر الحقيقة ويلتصق بها . وبالنظر الى أن الحقيقة قد وقعت فعلا فانها تجمع حولها سر الحياة والموت والزمن الذى لا يسبر غوره ، فعلم المؤرخ وبحثه يجدان الحقيقة ، وخياله وفنه يوضحان مدلولها» .

من مقـدمة
الأستاذ محمد شفيق غربال





الثمن ٤٠ قرشا سنة ١٩٦١